ذخائر العرب

٨٤

سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة

ترجمة حياته بقلمه

تقديم وتحقيق

محمد كامل حسين

بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول

دار المعارف

تأسست ١٨٩٠

تصميم الغلاف: سارة شريف

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع.
هاتف: ٢٥٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهـــداء

إلى أستاذى الأجل حضرة صاحب العزة

الدكتور طه حسين بك

لقد جليتم حقيقة أبى العلاء فكانت كتابتكم خير ما أخرج للناس عنه، فهل تأذن لتلميذك أن يرفع إليك سيرة المؤيد داعى الدعاة مناظر أبى العلاء، إجلالا لشخصك واعترافا بفضلك.

محمد كامل حسين

كلمة المحقق

هذا كتاب آخر نضيفه إلى سلسلة مخطوطات الفاطميين التى نعمل على نشرها. بعد أن ظلت عدة قرون فى طى الخفاء لحرص الإسماعيلية على ستر علومهم وعقائدهم عن الناس. فإن الستر عقيدة من عقائدهم الدينية. وقد يكون هذا الكتاب من أشد الكتب سترا عند طائفة البهرة الذين يزعمون وراثة مذهب الفاطميين. ويدينون بطاعة إمام مستور من نسل الطيب بن الآمر بأحكام الله الفاطمى. فقد بلغ حرص القائمين على دعوة البهرة أنهم لايسمحون لأبناء طائفتهم أن يتصلوا بهذا الكتاب عن قرب أو عن بعد. بالرغم من أن هذا الكتاب فى تاريخ حياة داعية من دعاة الفاطميين. وبقلم الداعى نفسه. وأن هذا الكتاب لا يلم بعقائد الفاطميين إلا إلماما يسيرا هينا لا خطر من إذاعتها بين الناس وخاصة بين أبناء طائفتهم. ولكن الخطر فيما وعاه هذا الكتاب من أسرار عن إمام فاطمى هو المستنصر بالله (٤٢٧ هـ - ٤٨٧ هـ)، (١٠٣٥ م - ١٠٤٩ م) وعن تلاعب الوزراء به وبالبلاد. فهى أسرار تسئ إلى عقيدة من أهم عقائدهم وهى الإمامة التى هى قوام عقيدة الفاطميين. كما تسئ إلى الأئمة المعصومين بزعمهم. ومن هنا حرص القائمين على دعوة البهرة على إخفاء الكتاب عن أتباعهم حتى لايتطرق الشك فى الإمامة والأئمة. ولاسيما أن مؤلف هذا الكتاب داعية من أكبر دعاة مذهب الإسماعيلية منذ نشأ المذهب إلى الآن.

مؤلف الكتاب

يعرف هذا الكتاب بين الإسماعيلية «بالسيرة المؤيدية» تارة و «بسيرة سيدنا المؤيد فى الدين» تارة أخرى. كتبه عن نفسه داعى الدعاة المؤيد فى دين هبة الله بن موسى ابن داود الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ[1]. الذى عرف فى تاريخ الأدب العربى برسائله التى ناظر بها أبا العلاء المعرى فى موضوع أكل اللحم. تلك الرسائل التى نشرها الأستاذ المرحوم مارجوليوث المستشرق الإنجليزى لأول مرة سنة ١٩٠٢م فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عن نسخة خطية عثر عليها بمكتبة أكسفورد. وحاول الأستاذ مرجوليوث أن يعرف شيئا عن حياة المؤيد داعى الدعاة فخانه التوفيق. لأن المؤرخين وأصحاب كتب

(١) راجع مقدمة كتاب «ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة» من مطبوعات دار الكاتب المصرى.

التراجم أغفلوا الحديث عن هذا الداعية الخطير مع أنهم ترجموا لمن هو أقل من المؤيد شأنا سواء فى الأدب أم فى تاريخ الفكر الإسلامى أم فى تاريخ الإسلام السياسى. وحسبك أن تدرك خطر هذا الداعى أنه استطاع أن يدخل ملكا من الملوك البويهيين فى دعوته. وأنه حاول القضاء على الدولة العباسية بتأليب أمراء العراق والشام على القائم بأمر الله العباسى، ونجحت مساعيه فى إقامة الدعوة لإمامه المستنصر الفاطمى على منابر بغداد سنة ٤٥٠ هـ. ولولا أمور لا طاقة له بدفعها لقضى على الخلافة العباسية قضاء تاما. ولغير وجه التاريخ الإسلامى. كما أنه استطاع أن يعيد مدينة حلب إلى أملاك الفاطميين بعد أن أعيت جيوشهم، هذا بعض نشاط المؤيد فى الدين داعى الدعاة السياسى الذى أهمل المؤرخون وأصحاب التراجم التحدث عنه فى كتبهم، فللأستاذ مرجوليوث العذر فى أنه لم يوفق لمعرفة الداعية.

وظلت حياة المؤيد فى الدين مجهولة حتى نشر الأستاذ الدكتور حسين همدانى سنة ١٩٣٢م بحثه عن: تاريخ وأدب الدعوة الإسماعيلية فى أواخر عصر الفاطميين[1] وتحدث فى هذا البحث عن المؤيد فى الدين حديثا طويلا وذكر أنه اعتمد فى كتابة هذا البحث على كتاب «السيرة المؤيدية». ثم نشر الأستاذ الكبير وايفان المستشرق الروسى كتابه «المرشد إلى أدب الإسماعيلية»[2] وذكر فيه أن كتاب السيرة المؤيدية لايزال موجودا فى خزائن الدعوة بالهند. فسعينا جهدنا للحصول على هذا الكتاب فكان من حسن طالعنا أننا وفقنا إلى الحصول على نسختين خطيتين من «السيرة المؤيدية» وعلى أربع نسخ خطية من ديوان «المؤيد فى الدين» داعى الدعاة، وعلى نسختين خطيتين من «كتاب المجالس المؤيدية» وهى مجالس التأويل التى كان يلقيها على جمهور المستجيبين وهى ثمانمائة مجلس، فكانت هذه الكتب وغيرها من كتب الدعوة التى حصلنا عليها أصدق عون لنا فى التعريف بالمؤيد فى الدين ثم بالعقائد التى كان يدعو لها، أهلتنا لأن ننشر ديوان المؤيد وسيرة المؤيد وغيرها من كتب الفاطميين. لم يحدثنا المؤيد فى سيرته عن حياته بأكملها، ولم يذكر لنا شيئا عن أسرته ولا عن أساتذته، فقد كان رجلا يدين بالستر فلم يشأ أن يزيح الستر عن شيوخه الذين أخذ عنهم. ولا عن الدعاة الذين اتصلوا به وأخذوا عنه. واكتفى بأن جعل

---

(1) The History of the Isma'ili Da'wat and its Literature during the last Phase of the Fatimid Empir J.R.A.S.. Part I 1932.

(2) A Guide to Ismaili Lieratnre.

آخر رمضان سنة ٤٢٩ هـ بدء سيرته. ويخيل إلىَّ أن المؤيد عندما بدأ بكتابة سيرته لم يشأ أن يكتب ترجمة حياته، إنما أراد أن يؤرخ ما حدث بينه وبين الملك أبى كاليجار البويهى فى شيراز، ثم توسع المؤيد فى سرد الحوادث وتفصيلها واستطرد فى ذكر بعض الحوادث التى أسهم فيها، فكان نتيجة ذلك أنه كتب جزءا هاما من تاريخ حياته. ولا ندرى ما الذى دفع المؤيد إلى الاقتصار على هذا الجزء من تاريخ حياته مع أنه عاش نحوا من عشرين عاما بعد تلك الحوادث التى ختم بها سيرته. معنى هذا كله أن المؤيد لم يترجم لنفسه إلا لجزء يسير من حياته وهو الجزء الذى يقع بين سنة ٤٢٩ هـ وبين سنة ٤٥٠ هـ. أما قبل سنة ٤٢٩ هـ، فليس بين أيدينا مصادر تحدثنا عنه ولا عن أسرته. ولعل الإشارة الوحيدة التى وردت فى السيرة عن والده هى قول المؤيد لوزير الملك أبى كاليجار «إن والدى كان فى البلد متسما بهذا الاسم، مرتسما بهذا الرسم، وكان له من المكنة واليد والقدرة ما كان يغنيه أن يطأ عتبة باب، أو يقاسى ذل حجاب، وكان الوزير أبو غلاب الواسطى - الملقب بفخر الملك - وزير الوزراء الذى كان ما كان باتساع مكنته وانبساط يده، نازلا هذه الدار التى تنزلها، فلم يعهد والدى قط داخلا إليه ولا مسلما عليه ووجد ذلك غير دفعة يزوره ليلا فى بيته ويغشاه فى منزله»[1] فهذا النص هو الوحيد فى السيرة الذى ورد فيه ذكر أبيه، ومنه نعرف أن والده كان داعى دعاة المذهب الفاطمى فى إقليم فارس، وأنه كان على جانب من عزة النفس والمكانة بين مواطنيه حتى إن الوزير الواسطى كان يزوره فى منزله دون أن يزور هو الوزير فى منزله أو فى دار وزارته. ويخيل إلى أن المؤيد أخذ عن والده موسى بن داود علوم الدعوة، فقد كان والده يهيئ ولديه لهذا المنصب من بعده، فقد ورد فى رسالة مباسم البشارة بالإمام الحاكم لأحمد حميد الدين بن عبدالله الكرمانى المتوفى سنة ٤١٢ هـ، أن الإمام الحاكم بأمر الله قال فى آخر سجل ورد نواحى فارس على موسى بن داود جوابا عما كان اختاره من إقامة ولديه مكانه توبيخا له وإنكارا لقوله «وأما فتياك وما ذكرت أنك تورثه لهما. فذلك على ما يراه الإمام فى وقته وحينه، الأيام تعد يا موسى، والأنفاس تحصى. والرد إلى الله تعالى وإلى وليه أحق وأحرى. ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، ومن يدرى لعل المؤيد اتصل ببعض رجال الدعوة فى عصره وأخذ عنهم، وربما اتصل بأحمد حميد الدين

(١) راجع صفحة ١٥.

(٢) مجموعة رسائل الكرمانى (نسخة خطية بمكتبتى)، سورة الكهف الآيات ٢٣ - ٢٤.

الكرمانـــى الذى لقب بحجة العراقين. والذى يعد من أكبر فلاســفة المذهب وعلمائه. فقد شـاهد المؤيد فى صباه الســنوات الأخيرة من حياة الكرمانى، فربما اتصل به. وأخذ عنه شيئا من العلوم التى أهلته لأن يبلغ ما بلغه من علوم الدعوة حتى وصف نفسه بقوله لإمامه المستنصر بالله «وأنا شيخ هذه الدعوة ويدها ولسانها ومن لا يماثلنى أحد فيها[1].

ومهما يكن من شـــىء فإنا نســتطيع أن نستخلص من كتبه التى بين أيدينا أنه ولد فى شيراز حوالى سنة ٣٩٠ هـ[2]، وأنه تدرج فى مراتب الدعوة حتى صار حجة جزيرة فارس، وعرف بنشـاطه فى الدعوة لمذهبه حتى أوغر صدور جمهور أهل الســنة. وصدر الملك أبى كاليجار البويهى. حتى إذا كان ســنة ٤٢٩ هـ عزم الملك على نفى المؤيد من شــيراز على نحــو مــا رواه المؤيد فى ســيرته. ونترك المؤيد يروى حياته بعد ذلك. وكيف اســتطاع أن يتقرب إلى أبى كاليجار، بل كيف أقنع الملك إلى الاســتجابة إلى دعوته، وأن يتخذه المؤيد تلميــذا له فى أمور دينه، ثم كيف ثار جمهور أهل الســنة فى فارس واســتعانو بالخليفة العباســى فى بغداد الذى اضطر إلى أن يهدد أبا كاليجار بالاستغاثة بالسلجوقيين، فاضطر أبــو كاليجــار إلى أن يبعد المؤيد عنه، كما اضطر المؤيد إلى أن يهرب من فارس وأن يفر إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ.

ثم يحدثنا المؤيد عن حياته فى مصر وعن علاقته ببعض الوزراء ورجال بلاط المســتنصر بالله، ويذكر المؤيد فى صراحة أن المستنصر بالله الإمام الفاطمى كان ألعوبة فى أيدى رجال دولته، وأنه كان محجورا عليه، وأن أم الإمام ووكلاءها كانوا هم المتصرفون فى أمر البلاد، ففى حديث المؤيد إلى أبى سعد التسترى «أيها الشيخ: اعلم أنه ما مجتنى ديارى من فمها إلا تكشفا بخدمة هذه الدولة العلوية وتخوفا من الجهة العباسية. وتسللا من فتنة كاد شرها يهلكنى وغرقها يدركنى. لا أننى لسعت بحمم الإملاق فأويت إلى درياق الانتفاع والارتفاق. فما الداعى إلى قصدى هذا غير داعى الإيمان، وما المقصود إلا صاحب القصر الذى هو إمام الزمان دون الوزراء والوسائط والأعوان. فإن كان هذا المقصود يعلم أننى أنا الرجل الذى فيه أخرجنــا مــن ديارنا وأبنائنا – كما قال الله تعالى – وهو يأنف علىَّ من لقائه بلحظة. ومن خطابه فيما يشرح الصدر بلفظة، فبختنصر أولى بأن يقام فى خدمته على ساق. وأوقع منه من مواقع اســتحقاق. وإن كان لوجهه إلىّ التفاتة غير أن عنده وجها عنى يلفته، وللســانه

(١) راجع ص ٩٩.

(٢) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة ص ٢١ وما بعدها.

معى مخاطبة سوى أن مسكتا عن خطابى يسكته. فلا خير فى المقام على باب من يكون محجورا عليه. ويكون مقاليد أموره بيدى غيره لا بيديه»[1].

ونحن نعجب أن يصدر مثل هذا الكلام عن شيخ من شيوخ الدعوة فى حق إمام عصره الذى يدعو له ويدين بإمامته وطاعته بل وعصمته. وكان من حق المؤيد وهو من شيوخ الدعوة أن يشيد بالإمام المعصوم ويتجنب التعريض له من قريب أو من بعيد. وأن يجعل هذا الإمام فوق هامات البشر - كما فعل المؤيد فى ديوانه - ولكن المؤيد فى سيرته هذه يعطينا صورة دقيقة صادقة لما كانت عليه مصر فى النصف الأول من القرن الخامس للهجرة. بعد أن خلع عن نفسه صفته المذهبية. وطرح عن نفسه عقيدته الدينية فى الإمامة. ولبس مسوح المؤرخ العالم الذى يكتب ليرضى نفسه قبل أن يرضى السلطان أو الوزير. ويصف ما شاهده من وقائه وأحوال دون أن يتأثر بمؤثرات الدين، أو يتطلع إلى رياسة. وإذا كان المؤيد لم يأبه بإمامه المعصوم على هذا النحو. وتحدث عنه هذا الحديث الذى يجعل من إمامه المعصوم ألعوبة فى أيدى غيره. فكذلك تحدث عن الوزراء ورجال الدولة الذين استغلوا ضعف الإمام فتلاعبوا به. وبالبلاد لمصلحتهم الشخصية. حتى اضطربت أمور مصر وأدى إلى المحنة التى عرفت فى التاريخ بالشدة العظمى المستنصرية. حقيقة لم يأت المؤيد فى هذا الحديث بشىء جديد على المؤرخين. فإن ذلك كله مسطر فى كتب التاريخ. ولكن الجديد الذى لا أكاد أجد له مثيلا فى كتب التاريخ الإسلامى: أن المؤرخ تحدث عن ذلك كله صراحة فى حياة الإمام وعلى مسمع من وزرائه بينما لم يعودنا المؤرخون أن يوجهوا انتقادا أو لوما إلى الملوك والأمراء فى حياة الملوك والأمراء. بل كان من المؤرخين من اضطر إلى تغيير بعض الحقائق التاريخية منفعة لنفسه أو دفع مضرة. وقد تحدث ابن خلدون فى مقدمته حديثا طويلا عن هؤلاء المؤرخين وضرب أمثلة عديدة لأقوال بعضهم وناقشها مناقشة دقيقة واضطر إلى دفعها أخيرا. أما المؤيد فى الدين فقد كتب ما كتبه فى سيرته. وتحدث عن الإمام والوزراء بما تحدث به دون أن يتطلع إلى منفعة يبتغيها أو يخشى أذى يلحق به. فكانت كتابته على هذا النحو جديدة على التاريخ الإسلامى. ويكفى أن تقرأ قول المؤيد عن حالته النفسية قبل أن يدخل مصر وبعد أن استقر بها لتدرك أن المؤيد كان صادق اللهجة فى حديثه. دقيقا فى تعبيره عن شعوره وإحساسه. قال المؤيد: ولما حصلت بالحضرة الشريفة على النصبة المقدم ذكرها. كنت استصحبت إليها من البضاعة ما كانت

(١) صفحة ٨٣ وما بعدها.

تحدثنى نفسى أنه به أفلح. وبه يكزن توجهى تقدمى، ومنه أطأ فوق النجوم بقدمى لكون متجرى ربيحا وسعى نجيحا، وكونى بالفضل معها مبرزا وعن كل قرن متميزا، فكشف لى الزمان عن كون البضاعة التى كان رجائى فيها هذا الرجاء بائرة كاسدة مسترذلة مستذلة، فسقط فى يدى وعمى علىّ طريق رشدى، وقلت الآن ضل السعى وخاب الأمل. وبطل المعتمد عليه والمتكل. وألجأتنى الضرورة إلى غيرها من بضاعة مزجاة ما كنت اعتدتها طول دهرى، إذ كان حظى منها كحظ غيرى، فلولا أنها تقوم بى وتريش قليلا سهمى لما قامت لى راية فى مجامع الناس. ولتلاعبت بى أيدى الأوضاع منهم والخساس[1] ويزداد إعجابنا بصراحة هذا المؤرخ الفذ إذا علمنا أن البضاعة التى كان أعدها لرفع شأنه هى علوم الدعوة التأويلية. مما يدلنا على أن الدعوة قد بدأت تضعف فى مصر. وأن القائمين عليها لم يأبهوا بها فاضطر المؤيد أخيرا إلى أن يجاريهم فى هذا المضمار.

ثم يترك المؤيد مصر فى أمر خطير نيط به القيام عليه. وكان المؤيد أول من فكر فيه ومهد له مع وزراء مصر، فعهد إليه المصريون أن يتمم ما بدأه ويتكفل بتنفيذها ما شرع فيه. وذلك الأمر أن يكون على رأس مدد الأموال والخلع التى أرسلها المصريون إلى البساسيرى ليتقوى بها فى حركته ضد العباسيين والسلجوقيين، فيحدثنا عن هذه النصبة التى وليها وجهوده فى تحقيقها، وكيف جذب إليه قلوب الأمراء العديدين الذين استقلوا بإماراتهم فى العراق وشمال الشام، ولم يتركوا للخليفة العباسى الخطبة على المنابر، وكانوا كثيرا ما يترددون بين الدعوة للعباسيين والدعوة للفاطميين دون أن يكون لهم رادع من دين دانوا به أو عبدوا عليه بل النفاق ديدنهم. والطمع فى أموال وخلع العباسيين والفاطميين رائدهم. كما كانت الحروب بين هؤلاء الأمراء مستعرة دائما مما أضعف الدولة العباسية وأطمع فيها البويهيين ثم السلاجقة.

كان أكبر هذه الإمارات أثرا فى القرن الخامس هى: بنو مزيد فى الحلة (٣٠٣ هـ - ٥٤٥ هـ)، وبنو مروان فى ديار بكر (٣٨٠ هـ - ٤٨٩ هـ). وبنو عقيل فى الموصل (٣٨٦ هـ - ٤٨٩ هـ). وبنو مرداس فى حلب (٤١٤ هـ - ٤٧٢ هـ)، وسوى هذه الإمارات كان بعض الأمراء يحتل بلدا، ثم سرعان ما ينتقل هذا البلد إلى يد أمير آخر بعد حروب ومحن، وهكذا كان أمر البلاد فى اضطراب. والأمراء فى منازعتهم ومشاحناتهم بعضهم مع بعض مما جعل موقف المؤيد دقيقا حرجا. ووصف فى سيرته علاقته بهؤلاء الأمراء.

(١) صفحة ٧٩.

حتى استطاع أن يؤلف بينهم فهزموا السلجوقيين فى أول الأمر. ولكنهم لم يلبثوا أن انفصم عرى شملهم فسهل على طغرلبك أن يوقع بهم. وتتوالى الحوادث فيدخل البساسيرى بغداد سنة ٤٥٠ هـ. ويدعو فيها للمستنصر الفاطمى صاحب مصر. ولكن بعد عام واحد عاد طغرلبك. واستخلص بغداد من أيدى البساسيرى بفضل مساعدة الأمراء الذين كانوا يؤيدون البساسيرى من قبل. ويعود القائم بأمر الله العباسى إلى مقره فى بغداد.

عاد المؤيد إلى مصر قبل أن يدخل البساسيرى بغداد بقليل. بعد أن بذل هذه الجهود المضنية. وعرض نفسه لأخطار جسيمة. ووصف دخوله مصر بأنه «دخول المهزوم لا الهازم. والمكسور لا الكاسر، والمغلوب لا الغالب، ولقيت ما كنت أمله من التقديم والإعلاء والرفع إلى مناط الجوزاء عكسا وضدا[1]».

ثم لم يحدثنا المؤيد عن حياته بعد ذلك، ولكننا نعلم من مصادر أخرى أن المؤيد أصبح داعى الدعاة سنة ٤٥٠ هـ. وأن الوزير عبدالله بن يحيى بن المدبر فى إحدى نوبتيه للوزارة نفى المؤيد من مصر[2]. فرحل إلى القدس ثم عاد إلى مصر مرة أخرى، وينزل فى داره لملك بن مالك قاضى الصليحيين باليمن مدة خمس سنوات. استوعب فيها لملك علوم الدعوة عن المؤيد. فأصبح المؤيد بذلك أستاذ الدعوة فى اليمن، وهى الدعوة التى عرفت بعد ذلك باسم الدعوة الطيبية وتعرف الآن بالبهرة. وتوفى المؤيد سنة ٤٧٠ هـ. ودفن فى دار العلم بعد أن صلى عليه إمامه المستنصر بالله.

هذا ملخص حياة الداعية، الذى أهمل الكتاب والمؤرخون الحديث عنه. فلا هم ذكروه مع العلماء مع أن مؤلفاته لاتزال تحتفظ بمنزلتها الرفيعة بين البهرة. ولم يذكروه بين الشعراء. مع أن البهرة لايزالون يرددون بعض قصائده على نحو ما يقرأ الصوفية أورادهم، ولم يذكروه بين رجال السياسة مع جهوده السياسية التى أشرت إليها من قبل. وفصلها هو فى سيرته. ونحن نعجب للمؤرخين وأصحاب كتب التراجم كيف أغفلوا الحديث عن المؤيد فى الدين، فهل تعمدوا ذلك لأنه كان يدين بمذهب غير مذهب أهل السنة؟ ولكنى أراهم قد ترجموا لكثير من رجال الشيعة، ولبعض أصحاب المذاهب الإلحادية، فمذهب المؤيد لايمنع المؤرخين من الحديث عنه. وإذا قلنا إنهم أهملوا الحديث عنه لأنه أقل شأنا من أن يتناولوه بالحديث. فنراهم قد ترجموا لمن هو أضعف شأنا وأثرا فى الحياة من المؤيد. فلم يبق لتعليل

---

(١) ص ١٧٧.

(٢) ابن منجب ص ٤٨.

إغفال المؤرخين أمر الحديث عنه سوى تدين الإسماعيلية بالستر، فهم يسترون دعاتهم وكتبهم وعقائدهم حتى لا يعرفها إلا من اعتنق مذهبهم، ولهذا لا تجد ترجمة حياة علماء الدعوة فى المراجع التى بين أيدينا مع أن كتبهم وصلتنا، فنحن لا نكاد نعرف شيئا عن أبى حاتم الرازى، ولا عن أبى يعقوب السجستانى، ولا عن أحمد حميد الدين الكرمانى، وهم أكبر شيوخ الدعوة فى القرن الرابع والخامس للهجرة، فلو لم يكتب المؤيد فى الدين شيئا عن حياته فى السيرة المؤيدية، ولم تصلنا هذه السيرة ما كنا نعلم شيئا عنه.

قيمة الكتاب

فإذا تركنا الحديث عن قيمة الكتاب من ناحية أنه ترجمة ذاتية لأحد دعاة مذهب يدين بالستر، فكشف هذا الكتاب ما حاولوا ستره من جهود هذا الداعية فى سبيل مذهبه، وهى ناحية هامة كانت غامضة عند الباحثين. فإننا نستطيع أن نلمس قيمة هذا الكتاب فى عدة نواح أخرى منها ما هو متصل بالعقائد، ومنها ما هو متصل بالتاريخ. ومنها ما هو متصل بالأدب.

أما من الناحية العقائدية الباطنية فإننا نرى الداعى يذكر فى سيرته:

١ - احتفاله بعيد الفطر سنة ٤٢٩ هـ، قبل احتفال جمهور أهل السنة بيوم[1]. وهذه ناحية هامة فى عقائد القوم تخالف ما عليه جمهرة المسلمين وهى سبب كتابة السيرة المؤيدية. فإن الفاطميين لم يتخذوا رؤية الهلال لمعرفة ابتداء شهر الصيام رؤية بصرية. بل رؤية استبصار. ولدعاتهم فى هذا الموضوع أحاديث كثيرة، وكتب مؤلفة يحاولون فيها دحض أقوال جمهور أهل السنة، وإثبات عقيدتهم هذه. فمن ذلك ما قاله صاحبنا المؤيد فى الدين فى مجالسه.

زعم الزاعمون أن شهر رمضان يتم تارة وينقص أخرى، وأن صيامه مبنى على رؤية الهلال. واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا ثلاثين». وهذا القول فاسد من عدة وجوه نحن نذكرها ونقيم الأدلة على كون شهر رمضان كاملا أبدا. لا يعتريه النقص بحال من الأحوال. ونبدأ بالرد على من يحتج بالخبر «صوموا لرؤيته وافطرو لرؤيته» فنقول إنكم معترفون بكون مقتضى هذا الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد التوجه فى بعض الغزوات فى القرب من شهر رمضان، فاجتمع إليه أصحابه فقالوا: يارسول الله. كنا نصوم بصومك ونفطر بإفطارك،

(١) راجع ص ٥ وما بعدها، وص ٥٩ وما بعدها.

فكيف حالنا فى غيبتك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته»فقد دل الخبر على وجوب الصوم بصوم الرسول. إذا كان حاضرا أو من يقوم مقامه إذا كان غائبا، ووجوب الفطر بإفطاره. وإن الصوم على رؤية الهلال من قضايا الضرورة فى حين عدم الرسول والإمام الذى يقوم مقامه. فإذا كان الرسول حاضرا أو الإمام حاضرا، كان قانون الغرض أن يصام بصومه ويفطر بإفطاره. كما قال القوم للنبى صلى الله عليه وسلم: «كنا نصوم بصومك ونفطر بإفطارك». وأما قول من قال: إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصوم برؤية الهلال، فهو فاسد من ثلاثة أوجه وجهان منها شرعيان، ووجه عقلى. فأما الوجهين الشرعيين: فمعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول وهوصادق: أن الروح الأمين جبرائيل يغشاه بكرة وعشيا بالوحى والقرآن الكريم، ومن كان جبرائيل يأتيه بكرة وعشيا بأخبار السماء، فلا حاجة به إلى أن يقلب وجهه فى السماء بطلب الهلال، وعنده من يأتيه بالخبر اليقين. والوجه الآخر: أنه مأثور عنه صلى الله عليه وسلم فى الأخبار أنه قال: «أنا بطرقات السماء أعرف منكم بطرقات الأرض». فلو أنه بعد هذا القول شوهد يطلب الهلال لقيل له فأين قولك الأمس «إنك بطرقات السماء أعرف منا بطرقات الأرض». أما الوجه العقلى: فمعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم منزه أن يخفى عليه من حال الاختلاف فى مطالع الأهلة ومرائيها مالا يكاد يخفى على منجم. وإن أوضاع الأرض مختلفة. فمنها مرتفع يقضى بأن تكون رؤية الهلال أسرع مثل رءوس الجبال وما يجرى مجراها. ومنها مستفل يقضى بأن تكون تكون الرؤية فيه أبطأ. وإذا كان معلوم من حاله أن ذلك مما لايخفى عليه فكيف يوجب العقل مع معرفته باختلاف المرائى أنه يفرض فريضة الصوم المتعلقة بفريضة الحج على الناس كافة بنية واحدة وهو يعلم أنها لا تصح. لأن قوما يرون فى ليلة ما وقوما لا يرون، ثم لا يصح أن يوما واحدا يكون من شعبان حيث لا يرى. أو من رمضان حيث لايرى. ومن شوال حيث لا يرى. هذا مما يشك فيه عاقل، ولا يدفعه إلا جاهل. وسوى هذا. فقد قال الله سبحانه فى محكم كتابه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾. والذين من قبلكم مشار به إلى النصارى. وصيامهم غير متعلق بالرؤية بل بالحساب. ثم قال سبحانه تأكيدا «أياما معدودات». والأيام المعدودات هى التى لا تزال معدودة. ولا يحتاج فيها إلى رؤية الهلال ولا نظره. فلو كان يحتمل أن يكون شهر رمضان تارة ثلاثين، وتارة تسعة وعشرين لما قال أياما معدودات قطعا.

وقول آخر: لما كان موضوع السنة أن يكون ستة أشهر كاملة وستة أشهر ناقصة، وجب أن يكون أصلها وبناؤها موضوعا على الكمال دون النقصان، فالشهر الأول الذى هو المحرم كامل وصفر ناقص، وربيع الأول كامل وربيع الأخر ناقص، وجمادى الأولى كامل وجمادى الأخرة ناقص ورجب كامل وشعبان ناقص، وشهر رمضان كامل. قال النبى صلى الله عليه وسلم (ما تم شعبان ولا نقص رمضان) دليل على نقص شعبان ليلة النصف منه، ولا نصف لرجب ولا لشهر رمضان، وذلك أن ليلة النصف من شعبان ليلة الخامس عشر منه، وهذه الليلة ليلة النصف بالحقيقة لكون أربعة عشر قدامها وأربعة عشر خلفها. وهى فى النصف ولا يكاد يصح ذلك فى شهر رمضان، ومما يدل على كمال شهر رمضان أيضا موضوع أمر الكفارات من أفطر فيه يوما متعمدا، وهو أن يصوم شهرين متتابعين توبة إلى الله. وهو مثلا شهر رمضان ستون يوما. فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ولو كان يحتمل أن يكون شهر رمضان تسعة وعشرين يوما لاحتمل أن تكون الكفارة إطعام ستين مسكينا أو ثمانية وخمسين مسكينا[1].

وتحدث أحمد حميد الدين الكرمانى إن هذا الموضوع فى رسالته الموسومة «بالرسالة اللازمة فى صوم شهر رمضان وحينه[2]» وذكر فى مقدمتها أنه كتبها لأن المسلمين «قد كثرت أقاويلهم طعنا منهم على الجماعة. وتعييرا لهم فى دخولهم الصوم قبل العامة، وسألت أن أشرح لك أمر الصوم فى دخول جماعة شيعة أمير المؤمنين قبل أولئك وخصوصا سنة أربعمائة التى أوجبت الأوامر الورادة من الحضرة الطاهرة الدخول فيه بيومين قبل رؤية الهلال عيانا». وحديث الكرمانى ينصب كله فى إثبات أن الرؤية يجب أن تكون رؤية علمية. وكذلك فعل صاحب كتاب عيون المعارف[3]. فموضوع بدء شهر الصوم. وهو الموضوع الذى بسببه كتب المؤيد سيرته. من أهم موضوعات الخلاف بين عقائد الفاطميين وجمهور أهل السنة. كما كان من أقوى الأسباب إلى نهضة علمية فى مصر الفاطمية ولا سيما فى الرياضيات والفلك. والذى بسببه عرف الفاطميون بالشغف بدراسة النجوم وحركتها. وإقامة المراصد. وعمل الزيجات.

---

(١) من المجلس الثانى والأربعين من المائة الأولى من المجالس المؤيدية (نسخة خطية بمكتبتى).

(٢) مجموعة رسائل الكرمانى. نسخة خطية بمكتبتى.

(٣) راجع أيضا كتاب المجالس المستنصرية ص ١٢٧ وما بعدها.

٢ – وجـوب طاعـة الله والرسـول والأئمة من نسـله[١] حتى قال المؤيـد فى رده على ابـن الملمة «وليس اعتقادى فى هذا الإنسـان الذى بمصر وقلـت إنه لا ينفعنى ولا يضرنى كاعتقادك فى مرسلك[٢]، وأن الأئمة هم الذابون عن الدين، المدافعون عن المسلمين.

٣ – عقيدة أخرى من عقائد الفاطمية تحدث عنها المؤيد فى هذا الكتاب. وهى عقيدة وجـوب تأويل القرآن الكريم تأويلا باطنيا[٣]، وكانت هذه العقيدة من موضوعات المناظرات التى جرت بين المؤيد وبعض العلماء فى حضرة الملك أبى كاليجار البويهى.

٤ – وكذلـك تحدث عن وجوب أخـذ العلم عن الأئمة المنصوص عليهم من أهل البيت دون العمل بالرأى أو بالقياس[٤].

٥ – أخذ العهد والميثاق على كل من دخل فى الدعوة[٥].

٦ – أشـار المؤيـد إلى مكانة الداعى فى نفوس المسـتجيبين، فالداعى هو أحد الحدود الجسـمانية ومعرفته وطاعته من معرفة إمام الزمان وطاعته، ولذلك قال المؤيد عن أتباعه: معلـوم مـا بينى وبين الديلم من الأحوال الممهدة والأسـباب المؤكدة وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه يباكرنى شاكيا إلى ومورداً جملة أهله وتفصيله على[٦]. ويقول أتباعه عنه «أنهم قوم يعتقدون اعتقادا تقرر فى نفوسـهم حقـه. وتأكد عليهم بعهود ومواثيق أخذوها فرضه، وأنهم يتخذون هذا الرجل القيم به أبا لهم وأخا وصاحبا ومحلا لكل سـر ومفزعا فى كل خير وشر»[٧].

وهكذا نستطيع أن نتخذ من كتاب السيرة المؤيدية مصدرا من المصادر التى منها نعرف شيئا عن عقائد الفاطميين بعد أن ظلت موضع حدس الكتاب والمؤرخين عدة قرون.

أما من الناحية التاريخية. فالكتاب كله فى التاريخ ذلك أن المؤيد كما قلنا من قبل كان يسهم فى الأحداث الهامة التى كانت فى الربع الثانى من القرن الخامس للهجرة، ونستطيع أن نقسم حياة المؤيد فى هذه السنوات إلى ثلاثة أدوار:

---

(١) ص ٢٦.

(٢) ص ٦٦.

(٣) راجع ص ١٦ وما بعدها.

(٤) ص ٢٤.

(٥) ص ١٢٢.

(٦) ص ٩.

(٧) ص ١٠.

الدور الأول: إبان إقامته فى فارس قبل اتصاله بالملك أبى كاليجار وبعد هذا الاتصال. فى هذا الدور يحدثنا المؤيد عن بعض نواحى الحياة فى فارس، وعن لون من ألوان الحياة التى كان يحياها الملك ورجال حاشيته، وعن انقسام أهل فارس إلى طائفتين متعاديتين متشاحنتين: طائفة أهل السنة وطائفة الشيعة، وكيف كانت تكيد إحداهما للأخرى. وكيف اعتنق الملك أبو كاليجار عقيدة الفاطميين على يد المؤيد، ثم عاد إلى مصانعة العباسيين عندما رأى الشعب دبت فيه الثورة، ثم نقرأ رأى أبى كاليجار بعد ذلك فى خطابه إلى المؤيد، فهذه كلها معلومات لم يتحدث عنها أحد من المؤرخين. فكتاب السيرة له قيمة كبرى فى دراسة فترة من تاريخ فارس فى القرن الخامس للهجرة.

ناحية أخرى يظهرها لنا هذا الكتاب: تلك هى أن أهل السنة كانوا السواد الأعظم فى فارس فى هذا القرن. وأن الشيعة كانوا مستضعفين. فهل نستطيع إذن أن نجارى بعض المؤرخين والكتاب الذين ذهبوا إلى أن التشيع كان فارسى الأصل. أو أن الفرس هم الذين احتضنوا هذه العقيدة منذ وجدت؟ فإذا صح هذا القول منهم فكيف نوفق بين قولهم وبين حديث المؤيد أن مذهب السنة كان الغالب على سكان البلاد؟ هذا موضوع سنتحدث عنه فى بحث خاص فى غير هذا الكتاب.

ومما نلاحظه على هذا القسم أن المؤيد كان إذا أراد أن يتحدث عن الشيعة فى فارس فكان يذكرهم بالديلم فى هذا الكتاب ترادف الشيعة دائما – بصرف النظر إذا كان الشيعة من بلاد الديلم أم كانوا من غيرها. أما فى الكتب التاريخية التى بين يدى فلا أكاد أجد الديلم ترادف الشيعة. حقيقة أجد أن الديلم كانوا يدينون بالتشيع وأن أكثرهم كانوا على مذهب الزيدية وأقلهم على مذهب الإسماعيلية أو مذهب الإثنى عشرية أما إطلاق الديلم على الشيعة عامة فى فارس. فهذا فى أغلب الظن جديد على المؤرخين الذين كتبوا بالعربية. وإنى أترك تحقيق هذا الموضوع إلى زملائى المختصين بالدراسات الإيرانية لمعرفة إلى أى حد كان مؤرخو الفرس يطلقون الديلم على الشيعة.

الدور الثانى: وهو حياة المؤيد فى مصر قبل ثورة البساسيرى وقد تحدثنا عن قيمة هذا الجزء من السيرة.

الدور الثالث: وهو الذى وصف فيه المؤيد دوره فى مؤامرة البساسيرى. ولعل هذا الجزء من الكتاب هو أقوم أجزائه. فقد ذهب المؤرخون فى هذه الثورة مذاهب شتى. وإذا تصفحنا كتب التاريخ فإننا لا نجد فيها ذكرا لجهود المؤيد فى الدين داعى الدعاة فى هذه

الثورة اللهم إلا ما ذكره ابن ميسر فى قوله «وفى صفر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة هـ جهز الوزير اليازورى خزائن الأموال على يد المؤيد فى الدين لأبى الحارث البساسيرى»[1] وقال ابن منجب الصيرفى «وكان طغرلبك قد وصل من خراسان إلى بغداد واتفق بعد وصوله إليها أن عاد معظم رجاله إلى خراسان وخفت عساكره فأقام اليازورى أبا الحارث البساسيرى مناصبا له، وأمده بالمؤيد فى الدين أبى نصر هبة الله بن موسى وأصحبه الأموال»[2] وفى كتاب مرآة الزمان «وكثرت الأراجيف بانضمام جماعة البساسيرى ووصول أبى نصر بن أبى عمران الداعية رسولا من مصر بمال كثير وخلع وألقاب وأنه أخذ البيعة عليه (أى على البساسيرى) وعلى من معه من الأتراك والأكراد والعرب وأنهم على عزم قصد بغداد»[3].

هؤلاء هم المؤرخون الذين ذكروا المؤيد فى هذه الثورة الخطيرة التى كادت تودى بالخلافة العباسية وتغير وجه التاريخ الإسلامى، ومع ذلك فإن هؤلاء المؤرخين لم يتحدثوا إلينا عن الدور الذى قام به المؤيد فى هذه الحركة، إذ يحدثنا المؤيد فى سيرته أنه كان العقل المدبر واليد المحركة لهذه الثورة، ويسرد تفاصيلها منذ بدأ يفكر فيها، وهى تفصيلات أهمل المؤرخون ذكرها ولا نجدها فى غير «السيرة المؤيدية» من الكتب.

ومما زاد فى قيمة هذا القسم أن المؤيد أودع سيرته نصوص رسائله إلى أمراء العراق وأمراء الشام ووزراء مصر. وبعض إجاباتهم على رسائله، فكانت هذه الرسائل وثائق تاريخية لهذه الثورة وفيها نجد جهود المؤيد وما بذله من نشاط فى سبيل القضاء على العباسيين والسلجوقيين معا.

وإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية، وقارنا بين ما جاء بها عن السلجوقيين وثورة البساسيرى وما أثبته المؤيد فى سيرته نرى بعض اختلافات، من ذلك أن ما ذكره أبو كاليجار فى خطابه إلى المؤيد أن السلجوقيين – وكانوا لا يزالون فى خراسان – يريدون قصد أملاك الفاطميين لولا وقوف الملك أبى كاليجار بجنوده حائلا بينهم وبين مقصدهم[4] فإن مثل هذه الإشارة إلى عزم السلاجقة غزو بلاد الفاطميين لم يرد لها ذكر فى كتب التاريخ العامة أو كتب تاريخ السلاجقة، ومن يدرى لعل خطاب الملك أبى كاليجار كان من أهم العوامل التى دفعت المؤيد إلى أن يسئ الظن بالسلاجقة ويتهم حركتهم إلى الرى سنة

(١) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨.

(٢) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٦٩.

(٣) ج ١٢ حوادث سنة ٤١٨ نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٠٦.

(٤) راجع ص ٧٧.

٤٦٦ هـ بأنها بدء حركة المقصود بها غزو أملاك الفاطميين. فبدأ من ناحيته يعمل لدفع هذا الضرر عن دولة أئمته.

كذلك حدثنا المؤيد أن طغرلبك حالف البيزنطيين لاقتسام أملاك الفاطميين[1] ولكن كتب التواريخ لم تذكر شيئا عن المخالفة. وتذكر كتب التاريخ أن البساسيرى هو الذى بدأ بمكاتبة الفاطميين يطلب معونتهم، وأن ابن المسلمة رئيس الرؤساء كان يطلق لسانه فى البساسيرى ونسبه إلى مكاتبة المستنصر بالله صاحب مصر، وذلك قبل أن يطلب الخليفة العباسى مكن الملك الرحيم أن يبعد البساسيرى من واسط فى رمضان سنة سبع وأربعين وأربعمائة هـ[2] ولكن الذى فى السيرة المؤيدية أن المؤيد فى الدين هو الذى بدأ بمكاتبة البساسيرى عن صاحب مصر، وأن كتب المؤيد لم تصل إلى البساسيرى إلا بعد أن دخل طغرلبك بغداد[3]

وكذلك نقول عن عصيان إبراهيم بن ينال ومفارقته الموصل نحو الجبل مفارقا طغرلبك. فقد ذهب المؤرخون إلى أن المصريين هم الذين استمالوه وحببوا إليه عصيان طغرلبك بينما ذكر المؤيد أن إبراهيم هو الذى بدأ هذه الصلة. بأن أرسل إليه رجلا صوفيا يطلب منه ألقاب الفاطميين وخلعهم وأن المؤيد أجابه إلى ما طلب. ولعل المؤيد فى هذا كله كان أصدق من المؤرخين لأنه كان يتحدث عن نفسه بينما روى المؤرخون عن غيرهم هذه الحوادث.

على أننا نأخذ على المؤيد فى الدين أنه أغفل الحديث عن أسباب غضب القائم بأمر الله العباسى على البساسيرى واستعانته بالسلجوقين. فربما كان أمر هذا الخلاف أخطر مما حدثنا به المؤرخون، وإن كان المؤيد يرجع هذا الخلاف إلى عدوه ابن المسلمة رئيس الرؤساء. وناحية أخرى أهملها المؤيد إهمالا شديدا فهو لم يذكر تاريخ الحوادث بالسنين والشهور فقارئ السيرة المؤيدية إن لم يكن ملما بتاريخ القرن الخامس للهجرة فهو مضطر إلى الاستعانة بكتب التاريخ الأخرى حتى يستطيع أن يحدد زمن الأحداث. ولذلك اضطررنا إلى استدراك هذا النقص عند ذكر هذه الحوادث بتعليقات فى هذا الهامش.

وهكذا نرى قيمة هذا الكتاب من الناحية التاريخية.

أما من الناحية الأدبية. فكما أن كتاب السيرة المؤيدية قيم من ناحية دراسة عقائد الفاطميين. وقيم من ناحية تاريخ القرن الخامس للهجرة. فإن قيمته الأدبية لاتقل خطرا

---

(١) ص ٩٥.

(٢) ابن الأثير ص ٩ وص ٤١٧.

(٣) راجع ص ٩٦.

عــن قيمة الأخرى ذلــك أن المؤيد فى الدين كان كاتبا قديرا يجيــد صناعة الكتابة إجادة جعلته يقول للوزير اليازورى وقد جرى ذكر كتاب الإنشــاء بمصر: معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان من الجاه الوســيع والرزق السنى الكثير، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة فإن آثارهم فــى صناعة حاضرة موجودة، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردئ والضعيف فى الصناعة والقوى. وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إلى. فإن كنت ممن يجرى فى حلبتهم فرســه. ويطول نحــو أمرهم باعه فأنزلنى منزلتهم من الجاه والمال إلا فقل لى ما أنت مثلهم ولا فى آفاقهم[1]. والمؤيد فى الدين هو الذى وصفه أبو العلاء المعرى بقوله: «ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه»[2] ذلك أن المؤيد كان مثقفا ثقافة واســعة فاســتطاع أن يســتغل هذه الثقافه فى مناظراته ومجالسه ورســائله. كما اســتغلها فى هذا الكتاب التاريخى. ولعل أظهر ما نراه من ثقافته فى هذا الكتاب هى ثقافته الأدبية واللغوية. فقد أخذ صناعة الكتابة المســجوعة عن الذين ســبقوه فأســرف فى استخدام الســجع فى كتابته، ولم يكن المؤيد بدعا فى ذلك إنما كان السجع أســلوب عصره. وعليــه جرى كل الكتاب والأدبــاء. فكتاب الرســائل والدواوين وكتاب المقامات والقصص كانوا يسرفون فى السجع ويتعمدونه ويتخذون كتاباتهم المسجوعة صناعة يتصنعونهــا وينفقون جهدا كبــيرا فى الحرص عليها والتزامها: حتــى إن أبا العلاء كان يلزم نفســه فــى بعض نثره بما ألزم نفســه به فى لزومياته من اتخاذ الســجع فى حرف وفى حرفين. ولكن المؤرخين وأصحاب الســير لم يلتزموا السجع فى كل كتاباتهم. والمؤيد فى ســيرته كان يســرف فى الســجع أحيانا. ويترك كتابته على سجيتها أحيانا أخرى. ففى رســائله التى أودعها هذا الكتاب. يكثر فى اســتخدام السجع والبديع. وأما إذا سرد الحوادث أو تحدث عن نفســه فقد تمر بفقرات لاتجد فيها جملة مســجوعة، وهو عندما كان يتعمد الســجع والزينة البديعية ولا ســيما الجناس. نرى أسلوبه يلتوى ويتعقد بعض الشىء، فهو يضطر أحيانا إلى أن يباعد بين أجزاء الجملة فيضطر القارئ إلى تأملها ليربط بين أجزائها. أما تضميناته لأى الذكر الحكيم وبعض أبيات الشــعر. فهذه أيضا ليســت جديــدة فى الكتابة منــذ القرن الثالث الهجــرى، ولكن المؤيد لمكانته فــى الدعوة وتأثره الشديد بالقرآن الكريم كان يكثر من تضمين ألفاظ القرآن الكريم وآياته. ومن الاقتباس منها

(١) ص ٩٤.

(٢) معجم الأدباء ج ٣ ص ٢٠٢ (طبعة فريدة رفاعى).

ليحلى بها كتابته، فإذا بأسلوب المؤيد فى هذا الكتاب أسلوب أدبى لم نكد نعرفه عند الكتاب المؤرخين.

وإذا تركنا أسلوب المؤيد نرى قيمة أخرى للكتاب. تلك أن المؤيد لم يكتب هذه السيرة إلا بعد أن وفد على مصر واستقر بها عدة سنوات، فتأثر بفن السير الذى برع فيه المصريون وأكثر من الكتابة فيه. بل لا أغالى إذا قلت إن فن السير فى تاريخ أدبنا العربى هو فن متأثر بشغف المصرين بالسير منذ أقدم عصورها التاريخية. فقدماء المصريين سجلوا سير ملوكهم وأبطالهم على جدران المعابد والمقابر وعلى أوراق البردى، وفى مصر المسيحية جرى الآباء البطارقة على كتابة سير من سبقوهم من الأدباء والقديسين. وفى مصر الإسلامية أكثر الكتاب المصريون من الكتابة فى فن السير، بل أرجح أن ابن اسحق صاحب السيرة النبوية وضعها فى مصر متأثرا بفن السير عند المصريين، وجاء ابنه هشام فروى أكثر السيرة عن علماء مصر. وكتب عبدالله بن عبدالحكم سيرة عمر بن عبد العزيز. وصنف ابن الداية سيرة أحمد بن طولون، وسيرة ابنه خمارويه، وسيرة الأخشيد وابنه، وجاء ابن المؤرخ المصرى فأكمل سيرة الأخشيد. وسيرة ابنه، وسيرة كافور، وسيرة المعز لدين الله، وسيرة العزيز، وسيرة سيبويه المصرى، وسيرة جوهر القائد. وسيرة المدرائيين. وكتب محمد بن محمد اليمانى سيرة جعفر الحاجب. وكتب أبو على منصور الجوذرى العزيزى سيرة الأستاذ جوذر، وهاهو المؤيد فى الدين يكتب السيرة المؤيدية متأثرا بمن سبقه من الكتاب المصريين. على أن أصحاب السير من المصريين الذين سبقوا المؤيد لم يترجموا لأنفسهم، أما غير المصريين من الكتاب والعلماء فلم أجد من كتب منهم ترجمة ذاتية لنفسه. حقيقة نجد بعض الكتاب يذكرون شيوخهم وأساتذتهم فى كتبهم. ولكنى لاأكاد أجد من سبق المؤيد فى تخصيص كتاب بأكمله يترجم فيه المؤلف لنفسه ترجمة ذاتية. فالمؤيد من أوائل رواد هذا الفن إن لم يكن هو أولهم وتبعه الكتاب بعد ذلك حتى بلغ هذا الفن ذروته فى كتب الرحالة المسلمين ثم فى كتاب التعريف لابن خلدون.

وهكذا تظهر قيم هذا الكتاب فى نواحيه المختلفة.

تاريخ تأليف الكتاب

قال الأستاذ ايفانوف فى حديثه عن سيرة المؤيد ما ترجمه «سيرة سيدنا المؤيد فى الدين – ترجمة حياته – كتبها لملك فارس عماد الدولة أبى كاليجار البويهى.

(٤١٥ هـ - ٤٤٠ هـ - ١٠٢٤ م - ١٠٤٨ م) يصف حياته واضطهاد الشيعة فى جنوب إيران»[١] أى أن ايفانوف ذهب إلى أن المؤيد كتب هذه السيرة قبل سنة ٤٤٠ هـ، وهى السنة التى توفى فيها أبو كاليجار، وهذا رأى عجيب، فإن من يقرأ السيرة المؤيدية يرى لأول وهلة أن قول ايفانوف فى حاجة إلى تغيير كبير، فإن الكتاب ألف بعد هذه السنة التى توفى فيها أبو كاليجار، ويكفى أن نقول لنؤيد ذلك أن المؤيد تحدث عن وفاة أبى كاليجار[٢]، فكيف يكتب السيرة إلى من توفى؟

نستطيع أن نتبين بسهولة ويسر أن كتاب السيرة المؤيدية لم يكتب دفعة واحدة أو فى عام واحد، بل كتب على فترات. ففى القسم الأول من الكتاب - وهو القسم الذى تحدث فيه عن حيلته فى فارس حتى وفد على مصر - كتب بعد سنة ٤٤٣ وقبل سنة ٤٥٠ هـ. إذ يقول المؤيد عن ابن المسلمة رسولا إلى أبى كاليجار «فما كان إلا قليل حتى سمعت بحصول ابن المسلمة بالبصرة روسولا للخليفة كان فى ذلك الوقت وهو وزيره فى هذا الوقت لما نجح سعيه باقتلاعى من تلك الديار وقصدى بالتشرد والذى تصدى لكاتبة الصنهاجى ومنهاداته والتحريك من ساكنه والذى شرع شروعه فى نبش قبر موسى بن جعفر ومكابر قريش»[٣] فمن هذا النص ندرك أن المؤيد كتبه فى وقت كان ابن المسلمة فى الوزارة حتى قتل سنة ٤٥٠ هـ عقب دخول البساسيرى بغداد أى أن هذا النص كتب قبل مقتل ابن المسلمة سنة ٤٥٠ هـ ثم حديث المؤيد عن مكاتبة ابن المسلمة المعز بن باديس الصنهاجى لخلع طاعة الفاطميين سنة ٤٤٠ هـ، وعن نبش مقابر قريش وقبر موسى بن جعفر سنة ٤٤٣ هـ يدلنا على أن النص كتب بعد سنة ٤٤٣ هـ، وإذن فهذا القسم الذى ورد فيه هذا النص كتب بين سنة ٤٤٣ هـ وسنة ٤٥٠ هـ.

أما القسم الثانى من السيرة فهو هذا القسم الذى بدأه بوصف دخوله مصر والذى جعلنا له عنوان المؤيد فى مصر. فنرى المؤيد قد استهله بمخاطبة شخص لا نعرفه، يخيل إلينا أنه أحد أصدقائه الأوفياء وأن هذا الشخص سأل المؤيد أن يصف له حوادثه مع أبى كاليجار، فلما كتب المؤيد القسم الأول من السيرة وأرسله إليه، كتب له هذا الشخص يظهر تأله لما حل بالمؤيد ويرثى لحاله ويطلب إليه أن يصف له أموره فى مصر. فكتب المؤيد هذا القسم

---

(١) A Guid to Ismaili Literature. p . 48.

(٢) ص ٧٨.

(٣) ص ٥٦

الثانى الذى ينتهى بعودة المؤيد إلى مصر سنة ٤٥٠ هـ بعد مساهمته فى ثورة البساسيرى. وإذن فقد كتب هذا القسم من الكتاب بعد سنة ٤٥٠ هـ وليس فى الكتاب نص يقرب إلينا معرفة السنة التى ألف فيها هذا القسم.

وينتهى الكتاب بالقسم الثالث الذى تحدث فيه عن دخول البساسيرى بغداد ثم قتل البساسيرى سنة ٤٥١ هـ. وهذا القسم كتب بعد سنة ٤٥٤ هـ. ذلك أن المؤيد ذكر ثمال ابن صالح وقريش بن بدران وأردف كل اسم بقوله «رحمه الله» ونحن نعلم أن ثمال بن صالح توفى سنة ٤٥٤ هـ وأن قريش بن بدران توفى سنة ٤٥٣ هـ. ومعنى هذا أن القسم كتب بعد وفاتهما أى أنه كتب بعد سنة ٤٥٤ هـ.

هذا ما نستطيع أن نستخلصه من كتاب «السيرة المؤيدية» عن تاريخ تأليفه وليس بين أيدينا من المصادر ما يفيدنا فى تحديد سنوات تأليفه تحديدا قاطعا.

نشر الكتاب

ذكرنا أننا استطعنا الحصول على نسختين خطيتين لهذا الكتاب. وقد اعتمدنا عليهما فى نشره:

النسخة الأولى: وهى التى أشرت إليها بحرف د (أى الدكن) وهى نسخة كتبت بخط ردئ جدا يصعب قراءته وتقع فى نحو ١٢٩ صفحة من القطع الصغير وقد جاء فى آخر هذه النسخة:

«تم بعون الله وتوفيقه يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٧ هـ كتبت فى بلد حيدر أباد دكن الهند. وانتسخ من الكتاب المكتوب بيد غلام حسين بن الشيخ شاه ملك فى عصرنا سيدنا عبد على سيف الدين صاحب يوم الحادى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٢ هـ».

النسخة الثانية: وهى التى أشرت إليها بحرف ك (أى كجرات) وهى مكتوبة بخط بين الفارسى والرقعة وأخطاؤها أقل من النسخة السابقة وتقع فى نحو ١١٩ صفحة من القطع المتوسط وجاء فى آخرها:

«تمت السيرة الميمونة المؤيدية على صاحبها أفضل السلام والتحية فى التاسع من شهر شوال من ١٣١٣ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين بخط أحقر الحقير من عباد الله خان بهائى بن موسى جى فى مدرسة الرئيس المكرم آدم جى فير بهائى غفر الله له ولوالديه».

ولم يذكر شئ فى أول النسختين سوى العنوان «سيرة سيدنا المؤيد فى الدين شيرازى صاحب (قس)» وقد اتفقت النسختان على عدم وجود عناوين لأجزاء الكتاب أو لموضوعاته ويخيل إلى أن المؤيد نفسه لم يضع عناوين تدل على فصول كتابه شأنه فى ذلك شأن غيره من كتاب السير من المصريين. فقد صنفوا هذه السير دون مراعاة تقسيمها إلى أجزاء أو فصول. وتعريف كل جزء أو فصل بعنوان يدل عليه. فاضطررنا إلى أن نكمل هذا النقص، وأن نضع عناوين من عندنا حتى تسهل قراءة الكتاب والبحث فيه. فكل العناوين التى فى الكتاب ليست أصلية فيه بل هى من عملنا.

وقد ذكرنا من قبل أن المؤيد لم يذكر لنا السنوات التى جرت فيها حوادث السيرة فاضطررنا إلى تحقيق ذلك بالرجوع إلى كتب التاريخ الأخرى. وأن نجعل فى الهوامش نتائج تحقيقنا.

وانتهز هذه الفرصة وأتقدم بجزيل الشكر وأخلصه إلى الصديق الكريم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى لتفضله بمساعدتى فى عمل فهارس هذا الكتاب مما أضاف إلى نشره فائدة محققه، ونسأل الله أن يجزيه عنا أحسن الجزاء.

وبعد فأرجو أن أكون وفقت فى إحياء هذا الأثر الجليل من آثار مصر الفاطمية، وأن نكون بهذا العمل قد سددنا ثغرة من ثغرات تاريخنا الإسلامى وأدبنا العربى.

الروضة. ١٥ مايو ١٩٤٩ م

محمد كامل حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله الذى جعل موضوع المقدار على الجمع بين الصفو والأكدار، واختلاف الليل والنهار ضمين الإيسـار والإعسار، أحمده حمد الشاكرين لآلائه الذين هو لهم كفيل الجزاء بقولـه تعالى ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1] والصابرين على بلائـه الأولى حباهم من حبه بأفضل الحبـاء فقـال تعـالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2] وصلى الله على رسـوله المصطفى المبعوث بأهدى السـبل «محمـد» المخصوص بأرضى الملل، المأمـور بقوله ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[3]، وعلـى وصيه على بن أبى طالب صفوة الماشـين بعـده على الغبراء، وقدوة مـن عناهم قوله تعـالى ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[4]. وعلى الأئمة من ذريتهما سـادة السـاجدين فى زمانهم والراكعين، وقادة المخاطبين من ربهم بقوله سـبحانه ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[5].

(أما بعد) فإن بعض الناس خاضوا فى حديث الفورة التى جرت بشـيراز مما ألف بين عزيمة السـلطان الـذى كان بها المكنى «أبا كاليجار»[6] وقصد العـوام لدفع الدعوة العلوية وإذلال قـدم متوليهـا، وإثـارة الفتن والاجتماع على مد غواشـيها. مسـتعظمين لما جرى منها، ومسـتهولين لخطبها، ومتعجبين من ألطاف الله الخفية فى فتح أغلاقها، وكشـف أغساقها، وإظهار العلم المعجز فيها قلبا للأعيان، وكسرا لنواجز الشيطان. قائلين إن دون ذلـك – ممـا لم يهل وقوعه كهوله، ولم يرع مسـموعه كروعـه – دوّن فى الكتب، وأودع بطون الصحف، ليكون للمستبصر تبصرة، وللمستذكر تذكرة. فما يمنع أن يكون هذا الأمر

---

(١) سورة آل عمران ٣/ ١٤٥.

(٢) سورة آل عمران ٣/ ١٤٦.

(٣) سورة الأحقاف ٤٦/ ٣٥.

(٤) سورة البقرة ٢/ ١٧٧.

(٥) سورة البقرة ٢/٤٥.

(٦) هو المرزبان بن سـلطان الدولة بن بهاء الدولة أبو كاليجار ولد بالبصرة سـنة ٣٩٩ فى شوال، ولى إمارة فارس والأهواز مدة خمس وعشرين سنة وولى العراق أربع سنين وتوفى سنة ٤٤٠ هـ.

«انظـر مرآة الزمان ج ١٢ ص ٢ نسـخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريـس رقم ١٥٠٦. والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤٦ (طبعة دار الكتب المصرية).

الهائل مثبتا كثبوت الغير. ليكون في الغابرين باقي الذكر. فاستخرت الله تعالى في اقتصاص ذلك وشرح ما تبعه مما غبر في وجهه، وأدى إلى أهوال فاقت ما تقدم، وأدت إلى الجلاء عن الأهل والوطن، على كون عبارة مثلي ممن طحنته أضراس المحنة. ورمت به بحار الحيرة ضعيفة. وأنوار فكره خامدة، والله تعالى ولي إحسان المعونة والتوفيق لجميل العاقبة برحمته.

المؤيد وأبو كاليجار

[فأقول] كان هذا السلطان حدثا في سنه وإن كان متينا في عقله، وكان الأستاذ الذي أنشأه مغرقاً في بغض أهل البيت صلوات الله عليهم، متناهيا في القصد لشيعتهم والمنتمين إلى جملتهم، وكانت لي معه قصة مفردة، لم أخل فيها من خشية القتل صباحا ومساء، وكنت ألقاه معها بصبر الرجال، وثبات الجبال، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر من مأمنه، وأتاه سوء العذاب من حيث لم يشعر به، إلا أنه أورث السلطان بغض الشيعة ودرجه فيه، ورباه عليه وكان بحاشيته من الأستاذين والأتراك من لم يزل لذكرهم مقبحا. وعليهم في كل وقت محطبا، زاعمين أنهم يشتمون الأصحاب، ويلعنون الصلحاء، ثم لا يصلون ولا يصومون. ويقولون بالتعطيل والكفر والزندقة،[1] وأن لهم فوق هذا كله عيبا شاخصا لكل ذي عين لكونهم في المملكة مفسدين، وإلى صاحب مصر[2] داعين، للناس عنه وباسمه مبايعين، وأن التجافي عما هذه سبيله مما هو ثلم في المملكة لا يصلح للسلاطين. فلم تزل هذه الضربات تعمل والكلمات تؤثر حتى أحمت الوطيس، وهيجت ساكن الحمية وأثارت كامن العصبية. فلما كان يوم عيد الفطر من سنة تسع وعشرين وأربعمائة، كنت بيوم قبله مستعدا له في تحصيل فرش وآلة وسجادات يصلي عليها المصلون، ولا يستغني عنها المتعبدون فرفع الخبر بأنني أستجمع الجموع للصلاة والخطبة في الغد، وأضرب في ساحة داري المضارب والفازات[3]، وأن ذلك مراغمة ظاهرة ومغايظة حاضرة، فنشأ من هذه الجهة سوء رأي عظيم، وقع به على القصد والنفي عزم وتصميم، واستفاض القول في البلد بذلك

---

(١) انظر القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ١٢٣ إلى ١٢٥ ففي هذه الأبيات إشارة إلى خصوم الفاطميين، وكيف رمي الفاطميون بالكفر والإلحاد وتعطيل الأديان.

(٢) صاحب مصر في ذلك الوقت هو الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر وهو الخليفة الثامن من المهدي. ولد عام ٤٢٠ هـ وولي الخلافة يوم الأحد ١٥ من شعبان سنة ٤٢٧ هـ وتوفي عام ٤٨٧ هـ.

(٣) جمع فازة وهي مظلة بعمودين.

من وقته. وجعل الناس به فى الأسواق يتناجون. وفى المجالس والمنازل يتحدثون، وكان يقرع أسماء الشيعة فى أقصى المدينة. فكان كل ساعة يتبادر إلىّ أحدهم متعرفا لخبرى، مستكشفا عما حل بى، فيجدنى صحيحا سليما. وفى موضعى على جملتى مقيما. ولما كان فى غد وهو العيد اجتمع الخلق الكثير من الديلم للصلاة فصليت بهم، فلما أتممت عكفت عليهم بالوعظ والانذار. وقلت: «لاتخفى عليكم صورة الوقت فى الشدة والأعداء فى التظاهر والكثرة، وأنهم عاكفون على تقبيح الجميل من آثارنا. ونسب العظائم إلينا من حيث إننا المبرزون فى تحمل أثقال العبادات والقيام بالمفروضات والمسنونات[1] فينبغى أن تذموا أنفسكم وتحسنو أعمالكم وتتقوا الله حق تقاته، وتتحفظوا من أن يتعلق أحد عليكم بعيب، أو يجد لسان مساغ انطلاقا فيكم بثلب. وعليكم بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين». ولما كان عشية ذلك اليوم كان الناس يطلبون الهلال على جارى عاداتهم فى مثله. فغم عليهم ساعة. وتباشروا لهذه الجهة، إذ كانوا صاموا تسعة وعشرين يوما فظنوا أنهم يكملون فى غد العدة ثلاثين. ويبسطون أيديهم وألسنتهم فينا لإفطارنا قبلهم بيومين[2] ليكون ذلك أبلغ فى التشنيع، وأعون على ما يؤثرونه من التشفى. فما كان إلا هنيهة إذ ظهر الهلال. فجفت ألسنتهم فى أفواههم. وماتت قلوبهم فى أجسادهم من فرط الغيظ والحنق. ولما كان فى غد سعوا إلى مصلاهم فصلوا ورجعوا. وباعاتهم موفورة على ذكرنا ونصب الإشراك علينا. إلا أنه لم يكن فى ذلك اليوم شىء. فلما كان فى غد استدعانى وزير الملكة بهرام بن مافنة ابن شهل الملقب كان بالعادل[3] رحمه الله إلى مجلسه. وهو كامل فى عقله، مبرز فى فضله فى جميع أحواله، مهذب بمتصرفاته وأعماله. فقربنى وأدنانى ورحب بى. وهو كاره لما يريد مواجهتى به من القبيح، عارف أن ذلك فى غير وجهه ولا مكان وجوبه. إلا أنه كان

---

(١) قال المؤيد فى ديوانه (القصيدة الأولى البيت ٣١ وما بعده):

أينا فى الشرع إذ نثبت ... كل جهول جاحد يبكت

نستنطق الأنفس والآفاقا ... أرضا وسبعا فوقها طباقا

بحجج مثل السراج تلمع ... تقصم كل ملحد وتقمع... إلخ

(٢) نلاحظ أن الفاطميين وأتباعهم إلى اليوم لا يصومون حسب رؤية الهلال كعامة المسلمين. بل لهم تقويم خاص بحيث يجعلون شهر رمضان ثلاثين يوما دائما. (راجع الرسالة اللازمة لشهر الصوم للكرمانى والمجالس المؤيدية. وكتاب المجالس المستنصرية، وكتاب عيون المعارف).

(٣) هو الوزير أبو منصور بهرام بن مافنة الملقب بالعادل ولد سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٣٣ هـ (ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤٤).

مأمورا من جهة آمر، لايمكنه مخالفة أمره ومنافاة رسمه، فقال: تعرف عنايتى بك وإيثارى الجميل لك، وأننى لا أشير عليك إلابما فيه مصلحتك، وأرى أمرك قد تجاوز فى الفساد حده. وبلغ أمده. ولقد كان السلطان أمس فى عامة الطريق من داره حين ركب إلى المصلى وإلى أن عاد، فى حديثك وممتلئا من الحنق عليك. وقال فى جملة كلام كثير «إنك إن لم تدع هذا البلد ولم تمض لوجهك، أنفذ من يفعل بك كذا وكذا» مشيرا إلى القتل. سوى أنه يتحاشى عن تصريح القول فيه، فانظر هل بقى بعد ذلك غاية، أم هل وراءه نهاية. ثم إنه كان حضر هذه الغداة قاضى البلد وقال إنه اجتمع إليه القصاص وأهل المسجد وقالوا: عيل الصبر فيما يأتيه فلان - عنوك - من نشر البدعة ورفض السنة، وأننا نجتمع ونقصد باب السلطان مستعدين من هذه الحالة ونستدعى سبه رخصة فنهجم عليه داره بالقلع والحرق والقتل وجميع ما نستطيعه من الفساد. قال الوزير: فأجبته: أن ذلك ليس بالهين، فإن هذا الأمر يؤلف بين كلمة الديلم عامة. ومهما حرك ساكنة انتبهت عين الفتنة بإراقة الدماء واستباحة الحريم وتعدى إلى مفاعيل. قال : وكان جواب القاضى إنه إن استنجد بهؤلاء - يعنى بالديلم - استنجد خصومهم بغيرهم - يعنى به الأتراك - ثم قال لى: ولو لم يكن فى هذا الكلام مع مقت السلطان الذى قرر عليه ولا ثبات معه إلا حديث العامة وهيجانهم لكان التقدير فيك وفى عقلك أن لا تكون أصل الفتنة، وأن لاتختار أن تصير سبب الفساد والنائرة، فالأولى أن تستخير الله تعالى فى الخروج من البلد فى هذه الساعة لأضم إليك عدة من الفرسان من يتدرقون بك إلى حيث توخى قصده من البلدان.

فأجبت وقلت: إن الأمر أمركم والمملكة لكم، ولكل كلم جواب غير من يقول لأحد فى داره اخرج من دارى فلا جواب له، ولكنى أفكر فى قولكم «اخرج من ديارنا» فلا أدرى أهو مشبهى أو مشبهكم، أو مستحقكم، لأنى أنظر فى نفسى فلا أعرف لها عليكم ثقلا ولا كدا. إذ لاحظ لى فى خيركم، ولا ذكر لى فى ديوان عطاياكم، ولا رفق فى حال من الأحوال من جهتكم. وأرى كل من دب ودرج من قاض وفقيه وعالم وكاتب وجميع طوائف الناس ممن له مداخلة لداركم ولقاء لمجلسكم محظوظين منكم، بين ما يأخذونه أخذا. أو ينالونه بتوقيعكم معيشة ورفقا، وصحيفتى بيضاء من جميع هذه الوجوه. وسوى هذا فأنتم أعرف الناس بقضاتكم وعدولكم وعلماء مساجدكم فيما هم مرتهنون به من المعايب. وما يشوبهم من المناقص ذميم الشوايب. ولا تعرفوننى توسمت بسمة من سمات معايبهم. أو أشبهتهم فى

شئ من مناقصهم ومثالبهم، فإنى لم أزل بالسداد والرشاد علما[1]، وباستشعار البر والتقوى مقدما. ولولا تبرجى بزينة التشيع لاتخذت العامة تراب نعلى كحلا لأعينها. وماء طهورى شفاء لسقمها. وغير ذلك فإن هم الجميع حيازة ملك وإقامة دخل وإضافة درهم إلى درهم. ولم يلقنى إنسان شغلت بشيء منه فكرا. أو قصرت عليه من عمرى يوما. بل كانت الدنيا فى عينى - مذ كنت - مرفوضة، وأعراضها لدى مهينة. وأسباب مطامعى مقطوعة، فإخراجكم من هذه سبيله من دون تعلق عليه بعيب يشينه. أو تبرم بمؤونة له عليكم يثقلكم باستحقاق منى. وأنا من الوجهين برئ، أم استحقاقكم بأن لا تستوجبوا كونى لديكم ومقامى بين ظهرانيكم. ومعلوم أنه إذا كانت مؤونتى هذه المؤونة فكل مقصود يقبلنى وكل أرض تحملنى، ولست أقيم عندكم ما أقيم إلا عصبية للدين الذى أدين الله به. ومحافظة عليه من وهن يحل بساحته. ولولاها لكان أكثر باعث على التخلى عنكم نفسى. وأدعى داع إلى مفارقتكم قلبى، لأستريح من مغاداة الذل ومراوحته. لاسيما ومعلوم أن لى مولى يقصده القاصد متوسلا إليه بسطور من خطى ولفظى فيكرم مثواه، ويكفيه ما أهمه من دنياه، فلو قصدته بنفسى أكان يتقاصر حظى عنده دون حظ من يقصده بكتابى، فليس الخروج يرهبنى ولا شيء دون ما قدمت ذكره يمنعنى، وأن أجتهد إن شاء الله تعالى وأصوب وأصعد فى كفايتكم أمرى، وتولية هذه النعم التى لى فى دياركم ظهرى. ليزول شغل قلوبكم. فأمل القاضى وتجرده للجهاد. فليت الحديث كان معه ومع العامة الذين يفزعنا بهم حتى يرى الأعاجيب، ولكنما أمر السلطان فى الوسط يضعف المنة. وقصده يهد ركن الثبات والمكنة. والقاضى إذا كان لايأسى على أمواله الموفورة، وضياعه المدخورة، وتنازعه نحو الجهاد نفسه «ودينه عليه عمى». لم لا ينشط له من لا يملك من الدنيا شبرا، ولا يحوى إلا قوتا قشفا وطمرا «وهو على بصيرة من ربه». فليتكم خليتم بيننا وبينه حتى كان كل منا بخته والسلام.

ثم قمت من ذلك المجلس عائدا نحو بيتى وعاكفا على إصلاح أمرى، وجعلت أخفض وأرفع أين يكون قصدى والمنافذ بالأعداء مشحونة. لاسيما إذا عرف السبيل التى أخرج

---

(١) فى ديوان المؤيد (القصيدة السابعة البيت ٤٢):

العلم سيفى والرشاد مطيتى ... والستر درعى والأمانة مغفرى

أنا آدمى فى الرواء حقيقتى ... ملك تعين ذاك للمستبصر

وردد هذا المعنى فى أكثر قصائده.

عليها من مقت السلطان وقصده، وسهرت ليلتي كلها مفكرا فيما أبني عليه أمري، وأسوق إليه قصتي، فلم يلح لي شيء أعتمده، ولا رأى أعمل به. ولما كان في اليوم الثاني عاودت المجلس في دار الوزارة. وأنا لا أدري بما عاودته، وعلى أي شئ أخاطبه، فكان من إلهام الله سبحانه ساعة التقيت بالوزير أن قلت «عدت لشيء عن لي بعد انصرافي بالأمس، وذلك أنك قطعت علي بالخروج من البلد وقلت اجتهد، وفكرت في محصول خروجي فوجدته يوردني شرا مما أنا متهارب منه موردا وأعم ضررا، ويسومني حالة رديئة أخشى منها ميتة دنيئة، فإنني أتهارب مما يتوعدني به السلطان العظيم القدر الجليل الخطر لا من شئ غيره، ولست آمن الحصول على مثله من جهة أوضع الناس قدرا وأخملهم ذكرا، فلئن أقم بموضعي موطن النفس على ما ينتظر منه أولى. كي ما أعرف قاتلي، ثم ليقول: الناس قتل، فلان مظلوما وقتله فلان ظالما. فليكتسب كلانا بالحمد والذم ذكرا باقيا، فأنا مقيم على جملتي لا أبرح ولا أنتقل من حيث معروف إلى حيث منكور، فإن كان لابد بحالة من إخراجي فقد أمكنك أن تجعلني تحت الكبول، وتقيدني بالقيد الثقيل. وتطرحني على بهيمة وتحملني لأكون عند نفسي معذورا، فأما أن أتولى الخروج بقدمي فلا أفعل، اللهم إلا أن تؤجلني أياما لأعاود بيتي وأصلح شأني وأبيع دويرى وأحصل نفقة لتوجهي. وأخرج خفية آمن معها من معترض يعترض لي، حتى أتخلى من دياركم وأتجاوز حد أعمالكم».

فأطرق الوزير ساعة ينكت في الأرض وقال بعد ذلك مجيبا «قد وقع الرضا بالخروج على هذا النمط. فارجع لترتب أمرك على ما تخيرته برأيك، وليكن أكثر المقام أسبوعا» فقلت: «سمعا وطاعة. أقوم على هذا التقدير، وأجتهد في تقويم المسير، إلا أن في الأمر حالة لايسعني إهمال ذكرها والاستئذان في بابها» قال: وما هي؟ قلت: «معلوم ما بيني وبين الديلم من الأحوال الممهدة والأسباب المؤكدة. وأن أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه يباكرني شاكيا إليّ، وموردا جملة أمره وتفصيله عليّ، ولاشك في أنهم إذا عرفوا جلية أمري ضجوا وصرخوا وقاموا وقعدوا. فلا يكونن ذلك منسوبا إلي، ولا معتدا بجناية علي» فقال: «يجب أن تمنعهم من لقائك مدة مقامك، وتحول بين نفسك وبينهم بحجة دواء تشربه أسبوعا». فقلت: «ما عهدوني قط حجبتهم ساعة من النهار عني. ولا قطعتهم دون ذلك مني. ولكني أفعل حسب ما ترسم إن شاء الله تعالى». وخرجت على أن أكون إلى ما مثل مُنْصبا وللخروج مستعدا. فأغلقت الباب في وجهي. ومنعت الناس عن لقائي. وتوفرت على الدعاء والصلاة والرغبة إلى الله تعالى في كشف الداهية. وكان ذكر ما أنا

بصدده يستفيض وينتشر. وقلوب الديلم تخرج وتضيق. فلم يكن يجمعهم مجمع من تعزية وضيافة إلا كانوا يتناجون بينهم فيما يخلص إليهم من الوهن بعد الوهن، حتى انتهى إلى أنهم يزاحمون في دينهم، ويمانعون عن اعتقادهم، والنصارى واليهود في دينهم لا يعارضون، وعن بيعهم وكنائسهم لا يمنعون. فاتفقت الكلمة على التجمع للتألم من هذه الحالة. فاجتمع منهم عدد كثير في سوق الدواب بشيراز - وذلك موضع يختص بهم إذا شغبوا - واختاروا من بينهم رسلا يتحملون رسالاتهم، ويوردون ظلاماتهم. فتوجهوا إلى خليفة كان للوزير، وأدوا الرسالة. وهولوا القضية، وخلطوا حلوا ومرا، ولطفا وعنفا، وأرادوا أنه إن يستمر الأمر على ذلك قطعوا الآمال. وركبوا الأهوال وحموا نفوسهم من احتمال الذلة والتوسم بميسم الضعف والقلة. فانتهى الخبر إلى كل جهة، وعلم أنه سيكون منه شأن يستفيض شره ويستطير شرره، فرسم السلطان للوزير تلافي القضية وإطفاء النائرة. فكان من تلطفه فيه، وحسن تدبيره وجميل تأنيه، أنه استقبل الأمر بالتلافي والتدارك، وسابق الديلم يوم الجمعة الكثير في الميدان للتكلم عن مداواة الداء ورسم استحضار القاضي والقصاص والصوفية على بكرة أبيهم، فجاءاو يخرقون محاف الديلم يمنة ويسرة. وهم يتحاملون بالألسنة عليهم، ويقولون كل قذع وسقط في حر وجوههم، إلى أن دخلوا الدار وهم موتى من الفزع فيما حصلوا من جهة الديلم عليه. وما دعوا من دار السلطان إليه. ولما مثلوا في بساط الوزير اعتمدوا بكل تثريب وكل زجر ونكير قولا: «إنكم قد بطرتكم النعمة، وكفرتم الموهبة فيما مد عليكم من ظلال الأمنة والمعدلة، فصار همكم إثارة الفتنة. وكلامكم الإغراء بين الشيعة والسنة، وأنه إن سمع بعد هذا أن أحدكم يتلقن بشيء منه ذكرا، أو يجرى به في فمه لسانا. فرشتم قتلى في السكك والأسواق، وحصل من سلم بعده في المصادرة والجر في الخناق، فابصروا بين أيديكم، وانظروا إلى مواطئ أقدامكم والسلام». فصدروا ثقالا بعد أن وردوا خفافا. ثم سئل الديلم عما جمعهم في الميدان. وألف منهم بين الشيب والشبان، ورسم اختيار عدة يدخلون ويترسلون عنهم، فاختاروهم ودخلوا، وسألهم عن سبب الجمع فأجابوا: «بأنهم قوم يعتقدون اعتقادا تقرر في نفوسهم حقه، وتأكد عليهم بعهود ومواثيق أخذوها فرضه، وأنهم يتخذون هذا الرجل القيم به أبا لهم وأخا وصاحبا ومحلا لكل سر، ومفزعا في كل خير وشر، وأنه منذ أيام أغلق الباب في وجهه، ويرجف بأنه ينفى عن البلد، ويفعل به ويصنع فهذا هو الذى ألفنا وحرك ساكننا فأجاب الوزير: «بأنه لم يجر شيء من ذكر النفي معاذ الله، فإنه أجل قدرا وأبسط حشمة أن يتناول بشيء

من ذلك. ولكننى أشـرت عليه بالجلوس فى داره. والمنع عن لقائه أياما لحدوث فورة من العامة بسببه، ريثما أتوصل إلى حل عقدتها وإطفاء نائرتها، وقد استدعيت فى هذه الساعة رؤوس ضلالتهم والمتوجهين فيهم. وأطعمتهم لحومهم، وأنذرتهم سوء العذاب إن عادوا لما نهوا عنه من كلام التشـيع والتسـنن. والخوض فما يثير أسباب الفتن. ويجب عليكم أن تعاودوا منازلكم وتشرحوا صدوركم. فقد كفيتم فى صاحبكم ما تخشونه». فانصرفوا راضين شاكرين. ولما كان بعد ذلك بيوم أو يومين كتب إلى الوزير رقعة فسح لى فيها فى فتح الباب. وتمشـية الأمر، وعقد المجالس على الرسم. ففتحته مسـرورا بلطف الله تعالى فيما كفانيه عاجلا وخائفا مما يؤدينى إليه تضاعف الغيظ آجلا وقلت:

لقد أحسن الله فيما مضى كـذلك يـحسـن فيما بقى

ووضعت الخد بالسـجود والرغبة والابتهال والمسألة راجيا من الله تعالى حسن الإجابة. ثـم اقتضى الحزم أن أرفـع من البلد كل ما كنت خائفا عليه من كتب ودفاتر، فنقلتها إلى بعض المواضع وجلست مستسلما للمقادير فيما يمسنى. ومسلما نفسى لأهل البيت صلوات الله عليهم فيما يدهمنى. ولم أخل من نفثات كنت أسمعها دالة على سوء الإضمار، وانتهاز الفرصة فى الإساءة الى عند الإمكان والاقتدار. فقلت ما افترض الله تعالى على التقرير فوق هذا بنفسـى. وإلقام فم الردى عرضى، واعتقدت الانتباذ إلى الأهواز التى من المملكة طرف وللديلـم مجمع. وأن أتخلـى هناك عن جميع أثقالى من بهيمة وغلمة. وأغير من حالى فى ملبسـى. وأعتكف فى مشهد ولا أزايله حتى يقضى الله على أمره الذى يريحنى من مرارة ما أتجرعـه. ووافق عقد نيتى على ذلك اتفاق حركة السـلطان إلى الموضع الذى كان نحوه توجهى فقلت فتح من الله ونصر. فإنى سـائر فـى الجملة. ومتوجه فى الصحبة، ثم إذا حصلت أقمت بمكانى وعكفت على شأنى. فجعلت أخبط وأقوم وأقعد فى الإعداد للمسير إعـداد منقلع بجملته عن مسـتقر ولادته. ومـول له ظهره. فاسـتنظفت دارى من قليلها وكثيرهـا مما يكون موجـودا فى الدار، ورتبت مـن يقوم ببيعها إذا فارقتهـا، وبينما أنا مشدود الرحل سائر بالقلب. إذ أتتنى رقعة من الوزير مختومة. فخفق قلبى حين تناولتها وفضضـت ختمها. فاذا هو ينهانى عن المصاحبة أشـد النهـى، ويزجرنى أعظم الزجر. ويقول إن السـلطان جد ممتعض مـن مصاحبتك. فلم أدر بماذا أجيب، وأى شـىء أقول وتوجهت إلى مجلسه بنفسى جوابا عن الرقعة وقلت: ياقوم ما تطلبون من ضعيف مهين. لا منعة له يتعزز بها، ولا يأوى إلى ركن شـديد يسـتظهر بمكانه، أمـا تأنفون أن تكونوا

أوفزتم على قصده أوقاتكم، ووفقتكم على ذكره بالسوء هممكم. من هو؟ وأى شيء هو حتى تكون همة السلطان أبدا عليه موقوفة وسريرته به مشغولة؟ ولم يمنعونه عن النفوذ فى صوب الرفاقة وسلوك الطريق مع السابلة. دعونى لأخرج فى شأنى. فقال: «هذا السلطان ليس يطيق سماع ذكرك ولا يؤثر قربك ومجاورتك، وقد عرفت ما جرى عليك أولا وآخرا وقصدت به باطنا وظاهرا، وكان من الحق أن لا يستقر بك القرار بعده، وتبغى لنفسك كيفما كان سبيلا وتستصلح شأنا. فلم يكن إعفاؤك عما كنت بعرضه إلا لما عرفت لا عن رأفة بك ورقة لك، وإذ قد نمت عن تدبير أمرك إلى هذه الغاية. فلا وجه الآن للمصاحبة، ولا جسارة على الكلام لك والمخاطبة» ولم أزده شفاعة إلا زادنى ردا. وعن بلوغ غرضى بعدا، فخرجت لابسا ملبس الخيبة. موطنا نفسى على مواقعة أعظم الخطة. إذ كان الديلم عامة فى الصحبة سائرين. وعندهم أننى فى الجملة. فكذا كانت الموافقة بيننا، فمنعت عن النفوذ. وبقيت فى البلد والمتولى لأمره من لو سقوه دمى لعسى أن كان يشربه، من بغضه لى وسوء رأيه فى، فأرقت ليلى كله اغتماما وافتكارا فى مصائر أمرى.

ولما أصبحنا أدلج القوم وبقيت مرتبكا فى الحيرة متبلبلا من الدهشة. فقلت لمن حولى: «اطلبوا إلى صحبة لعلها تتوجه إلى «بسا» – موضع على أربع مراحل من شيراز وأهلها من النصب على غاية. سوى أن بها من الديلم جمعا كثيرا – لسير فيها، فجاءنى البشير بوجودها واتفاقها. فأرخى نفسى من بعض خناقها، وقمت متوجها إليها وجها واحدا، وجلست هناك أبنى بها مشهدا مختصا بالشيعة وأهل الدعوة. وما كانت تلك البقعة شهدت حجرا على حجر وضع فيها هذه سبيله. وقلت: يانفسى أنت مهما أمكن أكلك مأكولة. وأى وقت تيسر أخذك مأخوذة فاشتغلى بإشادة هذا البناء المورث ذكرا وأجرا، وانتظرى ما يكون ولعله سيكون خيرا» فكنت شتوة بطولها موفور الليل والنهار على ذلك، وكان الديلم الكبراء يعمل الواحد منهم بيده فيه ما لايعمله عدة من العملة. فقالت العامة: إن هذا الرجل – يعنونى – ساحر قد سحر هؤلاء الجبابرة كما سحر سليمان الجن. حتى تكامل أكثر الغرض، ولما أقبل الصيف أقبل السلطان والعسكر بوجوههم إلى شيراز، فقلت الآن حصحص الحق. الآن جاء البشير. فقلت لامعنى لغيبتى فى هذا الوقت إلا أن أكون فى خط الدائرة فرجعت على علاتى إليها.

وكنت أقضى الوقت بها خائفا مترقبا. ولما يحدث من الأمر منتظرا فكان من توفيق الله سبحانه الجميل أنى توجهت فى زمرة عدة من الأصدقاء من الديلم إلى استقبال

صديق منهم وارد من الأهواز. وكان حضر أيضا من ندماء السلطان وخاصته واحد فكنت فى رجوعنا إلى البلد أسايره وأبث إليه شكواى وأقول: إن الدولة ديلمية. والسلطان ديلمى. وندماؤه ديلم خلص، والقيامة قائمة علىَّ خوفا ووجلا من حيث أن المملكة كلها بالأمن محفوفة. وبالعدل مكنوفة. فلو كنت فى ولاية محمود بن سبكتكين[1] لما زادنى على هذا فإن كان الشرائط الديملية لاتكاد توجب عليكم معشر خاصته أن تحاموا على من ظلمه قربة لله، وقربة إلى أهل بيت رسوله صلى الله عليه وسلم. أما يوجب عليكم ما تقبلون فيه من نعمته أن تنصحوا له، وتنهوه عن ظلمى وتنبهوه لما فى ضمنه من المآثم والشدائد استحفاظا لنعمته واستتبابا لدولته. وجعلت أطاوله فى هذا المعنى وأطول وأعرض معه. إذ أقبل ركاب من قبل السلطان يحث نحوه ويركض فى طلبه ويقول: إن الملك يدعوك. ورجع الركاب إلى حضرته فسأله أين وجده، ومع من كان؟ فأخبره على ما بلغنى أنه كان توجه لاستقبال فلان الوارد وأنه رآه يساير فلانا - عنانى به - ويساره ويطول معه. فلما حصل هناك أخذ يعتب عليه من مصاحبته لى ومسارته، عما جرى بينى وبينه. فأورد من الجملة ما أمكنته العبارة عنه فاستوعبه، وحمله جوابا إلى، ونهاه أن يقصد دارى به دون أن يستدعينى إلى بعض الصحارى فيسمعنيه هناك. فاستدعانى فى اليوم الثانى وخرجت فقال: أبلغت الملك رسالتك. واستوعبها وذكر أنك تسعى بالفساد فى المملكة وتجتهد فى إيقاع الفتنة. وتجرى إلى عظائم ودواهى لا تغتفر فيها زلة ولا تقال منها عثرة. حتى لقد قيل عنك إنك تريد البروز إلى المصلى لإقامة الصلاة والخطبة هناك. ولو كنت سالكا طريق الصواب ناكبا عن نهج الخطل ودواعى الاضطراب. لشملتك العناية واكتنفتك الرعاية، [ولكن الأفعال تحدث منك بضد ما يرضى]، ونقيض ما يحمد ويرتضى.

«فقلت فى الجواب» إن هذا الأمر الذى أتولاه ما أنا أبدعته، ولا فى أيامى أحدثته، فإنه قديم تقضت عليه السنون. واندرج فى معرفته ومشاهدته الملوك. ولو علم أنه يوقع ملكا أو يحدث فسادا لما نامت عيون فحولة ملوك بنى بويه عن إحالته وتغييره وقصر

---

(١) هو أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة ابن منصور سبكتكين صاحب غزنة (راجع ترجمه فى ابن خلكان ج ٢ ص ٨٤ طبع المطبعة اليمنية سنة ١٣١٠ هـ).

ولعل عداء المؤيد لمحمود بن سبكتكين إنما يرجع إلى ما حدث سنة ٤٠٣ هـ عندما أرسل الحاكم بأمر الله الفاطمى كتابا إلى محمود يدعوه إلى طاعته. فبعث محمود بالكتاب إلى الخليفة القادر العباسى بعد أن بصق عليه وخرقه. (راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٢ وتاريخ مصر لابن ميسر).

باعه وقص أظافره، ولما كان أكثرهم يؤثره لنفسه دينا لقى الله تعالى به[1] ويتبرج بزينته. ولكن المقبحين قبحوا الصورة بحضرة الملك، ولو أنه استقصى الأمر لوجد قدماءه أكثرهم بذلك دائنين وبشعاره منادين. فأما ما انتهى إلى عالى مجلسه من اعتقادى كان البروز إلى الصحراء بالصلاة والخطبة فإن ذلك ما جال فى خاطرى ولا هجس فى خلدى، وإنى لأرجو أن أكون أبلغ ما يجرى به الفال من ذلك فى ظل دولته وبركة إيالته وسوى هذا فإن الملك نشأ فى سماع كلام المخالفين والطاعنين علينا، وتلقن منهم كل شئ مما يزيفنا فى عينه، ويثقلنا على كريم قلبه، وقد انتشر الذكر فى كونه من وفور الكمال والعقل بحيث يوجب عليه أن يسمع كلامنا ويصغى لحجتنا. ثم إن وضح له شيء مما ننسب إليه من الكفر والتعطيل، كان وسيع العذر عند الله تعالى وعند نفسه فيما يقصدنا به من القتل والنفى. فاعلا للشيء فى وجوبه واستحقاقه. وإلا وجب الاستحلال عما مضى وتلافى ما سبق بالحسنى» فنفذت هذه الرسالة وعاد الجواب دفعة ودفعتين بما كان يتهدأ كلما عاد من التحريش. ويشتمل على الكلام اللطيف، فعن لى أن أكتب رقعة أودعها ما يجمع بينه وبين هذه من كلام محق لا يتحاشى فى الله ولا يحابى، وأنهاه عن الظلم الذى ضاق عن الصبر على مضضه إهابى. فكتبتها وأصدرتها، وهناك فضل معرفة بالألفاظ الجزلة والمعانى الرائقة، فوقف عليها وقوف معجب بها مستحسن لها، وأصدرها إلى حضرة الوزير مقرونة برسالة فى استدعائى والتلطف بى والتسكين منى، ومخاطبتى على أن أقف فى الأمر الذى أمشيه حيث بلغت. ولا أتجاوز به من أحد الإسرار إلى الإظهار، فاستدعانى وأكرمنى وبذل الجميل لى. وقال لى ما قدمت ذكره من القول فأجبت: «بأنى قد أخرت هذا الأمر من حيث تظنوننى قدمته. ووضعته من حيث تحسبوننى رفعته، والدليل على ذلك أن والدى كان فى هذا البلد متسما بهذا الاسم مرتسما بهذا الرسم، وكان له من المكنة واليد والقدرة

(١) تذكر كتب التاريخ أن البويهيين كانوا من الشيعة وهنا يقول المؤيد إن أكثرهم كان على مذهب الفاطميين.

ويحدثنا صاحب النجوم الزاهرة أن العزيز بالله الفاطمى كان يراسل عضد الدولة البويهى، ومما جاء فى إحدى رسائله إلى عضد الدولة: «فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين (أى العزيز) مع الرسول المنفذ إليك فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك. ومعرفتك بحق إمامته، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين». وكتب إليه عضد الدولة يعترف فيه بفضل أهل البيت، ويقر للعزيز أنه من أهل تلك النبعة الطاهرة وأنه فى طاعته. الخ (راجع النجوم ج ٤ ص ١٢٤). فهذا يؤيد قول المؤيد من دخول بعض البويهيين دعوة الفاطميين.

ما كان يغنيه أن يطأ عتبة باب، أو يقاسى ذل حجاب. وكان الوزير أبو غالب الواسطى الملقب[1] بفخر الملك وزير الوزراء. الذى كان ما كان باتساع مكنته وانبساط يده، نازلا فى هذه الدار التى تنزلها، فلم يعهد والدى قط داخلا إليه ولا مسلما عليه. ووجد ذلك غير دفعة يزوره ليلا فى بيته ويغشاه فى منزله. وأنا طول الدهر على الأبواب طائف، وعلى الزورات عاكف. فلو أمكننى التعزز أكنت أختار التذلل». وجرى فى مثل هذا الكلام طويل وخرجت ساكن القلب، واثقا بحسن كفاية الرب سبحانه وتعالى.

وكان السلطان أزمع الخروج للتصيد عشية ذلك اليوم، ولم يكن قد اكتحل بى قط. لأنى كنت ألزم الزاوية وأطلب العافية. فلا أوثر أن ينثلم دينى أو يسجد لغير الله جبينى. وكانت صورتى فى التقاعد عن الخدمة تقبح زيادة تقبيح، وأنسب فيه إلى كلام فظيع. فحدثت نفسى بالتعرض لموكبه والنزول والدعاء. ليرق قلبه، وينزع من سوء الرأى همه، فوقفت فى بعض الصحارى له، ولما دنا نزلت وتخضعت ودعوت، فسأل عنى. فقيل فلان. فرسم أن يقدم مركوبى لأركبه. فارتفعت ضجة المطرقين والركابية بين يديه بذلك، وقدم لى مركوبى وركبت. ووقفت مكانى أنتظر عودة الوزير من تشييع ركابه. فلما عاد ذكر أنه قال فيك خيرا. وأثنى عليك حسنا، واستخبرنى هل سكنت بالغداة منك. وهل أديت رسالته إليك قال: فقلت نعم.

وغاب أياما ثم رجع، ولما كان يوم الرجوع لقيت ركابه قدر فرسخين، ونزلت وخدمت ودعوت ودخل البلد، ورسم للوزير تبرعا استحضارى إلى عالى مجلسه أى وقت حضر. ففعل ذلك. وكنت أحضر. وسبب الاقتراب يعمر، ثم رسم مناظرة عدة من المخالفين مكاتبة. فتناوبت بيننا ابتداءات وأجوبة. وكان يقف عليها ويميز بين الصحيح والسقيم منها. وقد شرحت ما جرى بينى وبينهم ليقف عليه من تأمل هذه القصة. فأعجب الملك بها وانحل منه جميع ما كان سبق منه بسوء التعليم، ولعن كل أفاك أثيم. والمناظرة ما قد أشرح بفصه، وأورد على جليته، وهو هذا:-

مناظرة المؤيد مع العلماء فى حضرة أبى كاليجار

بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد حمد الله ذى الطول والإنعام والصلاة على سيدنا محمد المصطفى، وآله صفوة الأنام، فإنه رأى من الموقف الأشرف الشاهى أيد الله جمال

(١) هو محمد بن على بن خلف أبو غالب الواسطى المتوفى سنة سبع وأربعمائة (المنتظم لابن الجوزى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٧. ابن خلكان).

زمانه وأيد قواعد سلطانه، استبراء كلام هبة الله بن موسى فى اعتقاده، والترجيح بينه وبين قول من يحكم بفساده ليعرف المحق منهما من المبطل والهادى من المضل. فإنتدب للسؤال واحد كان وقع عليه سؤال من جهتى وهو قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[1] الآية. وقلت إذا كانت هذه الأسباب التى هى جماد وحيوانات لا تكليف عليها ساجدة لله تعالى من غير معلم، فلم صارت مفضولة والإنسان الذى لا يصح له السجود إلا بمعلم عليها فاضلا. فلم يورد فى الجواب ولم يصدر، وعدل إلى هذا السؤال الذى نذكره: ما قول الشيخ فى ظواهر القرآن؟ هل تقتضى معانى لا يدل عليها لا اللفظ ولغة العرب مما تحتاج أن نرجع إليه فيه ونتعلمه منه إذ لايفهمها أحد إلا هو ومن هو على مذهبه وطريقته؟ وإن كان لها هذه المعانى عنده فما الحجة عليه؟ وما الذى يدل عليه؟ يبينه يستفاد منه مأجورا إن شاء الله تعالى بحوله وقوته.

(الجواب) أقول وبالله التوفيق وعليه أتوكل إن للقرآن معانى سوى ما تتداوله ألسن العامة مما يستنبطونه بحولهم وقوتهم من دون الرجعى فيه إلى أهل الاستنباط ممن قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[2] ونص الكتاب ناطق بأن للقرآن تأويلا بقول الله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[3] ويقول تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[4] ويقول عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[5]. وقال النبى صلى الله عليه وآله: «أنا صاحب التنزيل وعلى صاحب التأويل». وعلم التأويل معناه علم العاقبة. وما يفضى الأمر إليه فى النهاية، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[6] أى أحسن عاقبة، والتأويل تفعيل من آل يؤول، وهو الذى يستجار به فى الشدة ويفزع إليه عند عارض النائبة، فتأويل القرآن كذلك، هو ما يرجع إليه عند عارض الشبهة والحيرة. فاللفظ يقتضى التأويل، والعقل يقتضيه. ومعلوم لكل ذى حاسة أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى حين

---

(١) سورة الحج ٢٢/ ١٨.
(٢) سورة النساء ٤/ ٨٣.
(٣) سورة آل عمران ٣/ ٧.
(٤) سورة يوسف ١٢/ ٢١.
(٥) سورة يونس ١٠/ ٣٩.
(٦) سورة النساء ٤/ ٥٩..

استعلاء الألفاظ العربية وتبرج أهلها بالفصاحة والجزالة. وكان كلام خاصتهم مضمنا من الرموز والإشارات مالا يتطاول نحوها عامتهم. فأتى صلى الله عليه وسلم من جنس ما كان لهم فيه اليد والقهر والغلبة وحيا من ربه سبحانه ما أعجزهم باطنه كما أعجزهم ظاهره، قال الله سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1] فكان ظاهر القرآن معجزا لرسول الله، وتحقيق معناه وتفسيره معجزا لأهل بيته صلوات الله عليهم لا يدعيه سواهم إلا كاذب. يؤكد ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى وأنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض» وقال صلى الله عليه وسلم: «تعلموا من عالم أهل بيتى أو ممن تعلم من عالم أهل بيتى تنجوا من النار» والحجج على ذلك كثيرة وهى كوضوح الشمس واضحة. لا يجليها عن سترها إلا تنسم رائحة الإنصاف بإلزام من لايكاد يفرق بين نفسه وبين الجماد، بل يفضله عليها إذ كانت الجمادات عنده ساجدة لله تعالى عن غير تعليم، وهو ساجد تعليما أن يخرج عن هذه العهدة، ويوضح شرف الإنسانية أو ينزع قلنسوته لمستحقها من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(جواب الخصم على ما هو به) وجدت فى هذا الكلام تطويلا ينقض بعضه بعضا، وكاتبه هارب عن جواب ما سئل عنه. جانح إلى أبسط الكلام فيما هو مائل إليه. غير منصف فى العبارة والمعنى. وذلك أن السؤال أولا وقع عن القرآن. هل له معان لا تقتضيها ألفاظه أم لا؟ وجواب هذا: نعم أو لا. فلم يجب بشىء منهما. بل كتب شيئا آخر فيه جفاء، تعريضا لا تصريحا. وجوابه مثله تعريضا. قولك: إن للقرآن معانى سوى ما تداوله ألسن العامة مما يستنبطونه بحولهم وقوتهم من دون الرجعى فيه إلى أهل الاستنباط ممن قال الله سبحانه: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾[2] لايخلو من وجهين: إما أن يريد بالعامة غير العلماء من أهل نحلتنا، أهل الإسلام والحق، أو يريد به مخالفيه من أهل الحجى والأدب والإعراب والقرآن وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم. فإن أردت به غير العلماء فلا اعتداد بهذا الكلام إذ ليس لهؤلاء معرفة بالقرآن نفسه. فكيف يكون لهم معرفة باستنباط الحق منه واستخراج ذلك بالنظر الصحيح الذى مداره على أصول لم يعرفوها وقواعد لم يحكموها. أو يريد به مخالفيه وهم الذين أحكموا مذاهب العرب وعاداتهم ومجارى كلامهم، وعرفوا الفرق

(١) سورة الإسراء ١٧/ ٨٨

(٢) سورة النساء ٤/ ٨٣.

بين الحقيقة والمجاز، والتأويل الصحيح الذى يعضده لغاتهم وطبعهم ويدل على قوته كلامهم وعبارتهم، مثل ابن عباس رضى الله عنه الذى قال له النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن مسح وجهه: «اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن» ولا شك أن دعوته مستجابة، ومثل الفقهاء والأئمة مثل أبى حنيفة الذى استخرج من كتاب الله مائة ألف مسألة دونها فى كتبه، وصار الناس فى البلدان الكثيرة إلى مذهبه فيها، ومثل الشافعى الذى ظهرت بركاته فى الدين حتى انتشر مذهبه واعتقده الخلق العظيم فى كثير من البلدان، مثل غيرهم من أئمة الهدى رضى الله عن كافتهم ممن يطول ذكرهم، فإن أردتهم بهذا الكلام فقد غلطت فى قولك، وأفحشت وقبحت، إذ هم وأمثالهم لا يستنبطون بآرائهم، وإنما يستنبطون الأحكام من القرآن بعد أن يشهد بصحة بعضه البعض، ويقوى الشىء منه الشىء، وأنا أذكر من استنباطهم الحسن شيئا تستفيده وتزين به حلقتك باطنا وإن أنكرته ظاهرا على عادة مذهبك واستمرار طويتك: قال الفقهاء رضى الله عنهم: إن أقل الحمل ستة أشهر وإنما كان ذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[1]. وقال فى آية أخرى ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[2] فإذا كان مجموعها ثلاثين شهرا ومدة الرضاع أربعة وعشرين شهرا بقى مدة الحمل ستة أشهر فأى استنباط أحسن من هذا، وأى استخراج أوضح منه. ونحن أولوا الأمر لأننا العلماء والقدوة والفقهاء، والنظار فى دين الله تعالى، والذابون عنه والناصرون له. والدامغون للباطل وحزبه، والرادون على الزائغين، عصمنا الله تعالى من قول المبطلين المفترين فى الدين الذين يجحدون الحق وينصرون الباطل. وإن كان الإشارة فى إبطال الاستنباط إلى رد القياس واستعماله، فالقياس الصحيح هو المعيار الصحيح الذى يميز به الحق عن الباطل، عن الضلال، يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[3]. والاعتبار إلحاق الشىء بنظيره، ولا يعلم أن الشىء نظير لغيره إلا بمعنى يحصل فيهما، أو علة تجمعهما، ومن أنكر الاعتبار والقياس فى الدين لم يكن من أهل الاجتهاد، ولا يكون ما يشغل به علما، والذى يدل عليه من جهة الخبر أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القبلة للصائم أنها تفطر أم لا، فقال له: «أرأيت لو تمضمت ماء فمجته أكان ذلك يفطرك» فقال الرجل: «لا». فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «فلا إذن». فشبه النبى صلى الله

(١) سورة الأحقاف ٤٦ / ١٥.

(٢) سورة البقرة ٢ / ٢٣٣..

(٣) سورة الحشر ٥٩ / ٢..

عليه وسلم القبلة للصائم بالمضمضة من حيث إنه لم يدخل جوفه شيء مع الذكر، وهذا يفهمه من له حاسة صحيحة، وعقل وافر لا نافر.

ثم وجدت في الكلام تناقضا لأنه نفى استنباط الغير وأثبت لنفسه وأهل نحلته استنباطا، فإن كان الاستنباط فاسدا فهلا هجره هو وقد قيل في المثل:

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ثم هذا الكلام خارج عن الإنصاف ونهج الصواب لأني سألته عن تصحيح ما يدعيه من معاني القرآن، لايدل عليه اللفظ العربي ولا يقتضيه فحواه، وهو يزعم أنه يستنبط من القرآن معاني، [والاستنباط لايصح إلا بعد اعتبار معنى] في الشيء المنصوص عليه فيرد عليه بذلك المعنى غيره مما لا ذكر له في القرآن وهو القياس المحض. وهو لايقول بالقياس والاستنباط فلم ينقض كلامه بعضه ببعض؟ وينسخ أوله بآخره؟ إنما يناظر المرء مكاتبة ومشافهة إذا ضبط المناظرة. فأما الذي لايعرف ذلك لم يعترض له لأنه تفضحه شواهد الاختبار. فإن زعم هذا القائل أنه من أولي الأمر لم يسلم له وقد بنى خلافا على خلاف هو أعظم. وادعى لنفسه ما لايصلح له أبدا. وأما قولك ونص الكتاب ناطق أن للقرآن تأويلا بقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[1]. فصحيح إلا أنه يحتاج أن يبين أن التأويل المشار إليه هو عارف به من دوننا، وعنه يؤخذ ولأجله يسار إليه. فإننا نقول وقولنا الحق والصدق: إنه معنى ونحن به عارفون، وهم عنه عادلون. يقولون فيه بشهواتهم، ومرادهم حيث يحملون قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[2] على قوم بأعيانهم وهل ذلك إلا شهوة وقول معدول به عن الحق، نعوذ بالله من القول في القرآن بالشهوة. وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار». وأما تعلقك في هذا الموضع بقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[3]. فهو محمول على معرفة تعبير الرؤيا، أجمعوا على ذلك. وليس تأويلاتك من هذا الجنس. ولو كانت تأويلاتك تعبير الرؤيا على ما جاء فيه الآثار لكان مسلما لا نناقش فيه، فاعلم أنه لاتعلق لك بهذه الآية، وإذ لا حجة لك فيها بتة بتة. وأما تعلقك بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[4] فلهو

(١) سورة آل عمران ٣/ ٧.

(٢) سورة محمد ٤٧/ ١٥.

(٣) سورة يوسف ١٢/ ٢١.

(٤) سورة يونس ١٠ / ٣٩.

حجة عليك إذ تجرأت على الله تعالى، وحملت كلامه على مرادك، وما زينه الشيطان فى عينك بلا حجة، وخالفت ظاهره، وزدتم فى القرآن ونقصتم وبدلتم على شهواتكم، هداكم الله للرشاد ودين الحق بمنه ولطفه.

أما ما رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم: «أنا صاحب التنزيل وعلى صاحب التأويل» فمن أعجب الأمور! من روى هذا عن النبى أولا من الصحابة ومن أهل البيت، وأى شئ إسناده؟ وفى أى كتاب دون؟ وفى أى مسند كتب؟ ومتى سمع على أمير المؤمنين عليه السلام يروى هذا؟ أويذكر تأويلا لايدل عليه لفظ العرب؟ ومتى سمع أحد من أولاده الطاهرين يروى هذا ما لا أصل له بوجه من الوجوه؟ فثبت الغشاء ولك الفضل.

وأما كلامك فى تفسير التأويل فإنى أسلمه لك تسليم جدل لأطرح لك طرحا وافرا وتقوى ثم أبين لك فساد تعلقك به، أحسب أن الأمر فى التفسير كما ذكرت لكن من أين لك إذا سلكت طريقتك ونهجت مذهبك واستمررت على عادتك كانت لك العاقبة، به نجوت وبلزومك إياه تخلصت، بل يقول لك مخالفك كل ما سلكته ضد ما رمته، وخلاف ما أردته، فهل وجدت فى هذا الكلام نفسك إلا قائلة بشهواتها مائلة إلى ما وضعتها.

وأما قولك اللفظ يقتضى التأويل فكلا ومعاذ الله، اللفظ العربى الذى يقتضى عندهم معنى معلوما لايحتاج معه إلى التأويل بل هو محمول على معناه الحقيقى، وقولك والعقل يقتضيه فليس الأمر كما زعمت فإن العقل لا يقتضى أن تحمل ألفاظ عربية على معان لم توضع لتلك الألفاظ، يدلك على ذلك أن رجلا لو أمر غلاما بأن يسقيه ماء فباع للآمر جارية، استجهل وأدب وعوقب، وإن قال حملت قوله اسقنى ماء على تأويل صحيح وهو أنه أراد منى بهذا اللفظ أن أبيع له جاريته لم يقبل منه، ولم يسقط عنه التأديب واستدراك عقله، ولا يجوز أن يختلف فى هذا العقلاء، فكيف تعضد دعواك بالعقل ولا يدل على صحة قولك هذا العقل الناقص فكيف العقل الكامل؟ وأما ما ذكرت أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى حين استعلاء الألفاظ العربية وتبرج أهلها بالفصاحة والجزالة فنعم، إلا أن الفصاحة والجزالة ضد ما تطلبه أنت وتدعو الناس إليه، وأنا أضرب لكم مثلا ها هنا، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم ركب فرسا، فقال وجدتها بحرا، وهو كلام جزل فحل فصيح وجيز، فترى أنه يجوز لقائل أن يقول إنما أراد بقوله: «وجدتها بحرا» معنى سوى السير العظيم والنفس القوية والطاعة لراكبها، حتى إنه لو أراد إنسان أن يحمل كلامه على غير هذا ما التفت إليه وعرج عليه. فاعرف الفصاحة من الشهوة، والجزالة من الدعوة المحضة حتى لا يضل.

وأما قولك كان ظاهر القرآن. معجزا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحقيق معناه وتفسيره معجز لأهل بيته، لايدعيه سواهم إلا كاذب. فكلام طريف، قد ادعيت أن لك استنباطا حقا، إليك فيه يسار. فلم يصح لك دعواك. ثم قلت هذا الكلام الذى عظمت جنايته. وذلك أن القرآن ظاهره وباطنه فكله معجز للنبى صلى الله عليه وسلم وقولك باطنه وتفسيره معجز لآهل بيته صلوات الله عليهم كلام غير مفهوم ففسره، ثم لايصح هذا الكلام من أوله إلى أخره من حيث إن أهل البيت ما فيهم من أولهم إلى آخرهم من يدعى لنفسه شيئا مما ذكرته. بل كلهم صاروا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. ولم يدعوا تأويلا أنت القائل به. ولا خالفوا الناس ولا أخفوا عنهم الدين دين الإسلام. بل علموهم فى الظاهر وأمروهم بالمصير إليه. فقد علمت أنك تحاول ما لا أصل له ولا يرتضيه أهل البيت. بل يسخطونه ويمقتون قائله ومعتقده. وأما الخبر الذى رويته عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى» فصحيح وأنت عادل عنهم ناسب إليهم ما لا يعتقدونه. تبطل ما قالوه واستعملوه فى الدين. تتفوه بذكرهم، وتنقض عليهم دينهم عروة عروة. وفق الله بين قولك وعملك. وهداك إلى الرجوع إلى اعتقادهم وأقوالهم. وأما الكلام فيمن لا يفرق بين نفسه وبين الجمادات فلم يجر بينى وبينك كلام فيه. والاشتغال به من جهته عبث، وقد تبينت فساد كل جواب كلامك شيئا شيئا. وجملة القول أنه تدهكم[1] فى جواب مسألتى. وشغل المسألة بعبارات تشتمل على الهرب والدعوة وترك الإنصاف. وبدأ فيه بالجفاء، وقد خاطبتك مرة بحرف الغيبة وأخرى بحرف المبهم إذ هذه عادة العرب العاربة. وأنا منتظر لجواب المسألة والجواب عن هذه الأسئلة اللازمة. والله أسأل أن يعصمنا من الزلل ويهدينا إلى صواب العمل وهو بلطفه يسمع ويجيب.

رد المؤيد

(الجواب) وصل الجواب بالاعتراض الذى أجل المسامع الشريفة للموقف الأشرف الشاهنشاهى خلد الله ملكه عن أن يكون ما تضمنه من الهجو الوافر، والسقط الكثير جرى فيها. فلم يأمر بالمقابلة عنه بالزجر والنكير. إذ كان ذلك من أشراط المناظرات خارجا، ولعادات المجارات فى المسائل مباينا، ولقد كان التحفظ فى الامتناع عن المشافهة بها عن

(١) تدهكم أى اقتحم فى أمر شديد.

مثله. والتصون عن نظيره، ولم أدر أنه يستفتح به، وأرشق على ظهر الغيب بسهامه. ومعلوم أن مستقرنا من قديم الدهر بشيراز هذه وأن أحدا لم يمكنه أن يدير بمثل هذا الجفاء لسانا، أويصرف على هذه اللدغات المؤلمة بنانا. ففى أى الأحكام أن إنسانا سئل عن مسألة فيصدر جوابها ما يظهر فيه لأهل بيت الرسالة عليهم السلام على العامة فضلا، ويوجب منهم إلى ما لديهم افتقارا، فيجاب عنه بهذه الفواقر، أليس مثل ذلك إذا وقع إلى أقاصى البلاد وأهل الحق والنصفة مما يتبين منه موقع الاستطالة وتجاوز حد العلم إلى الجهالة.

فأما نسب كلامى إلى التطويل فلا عجب مما أنا معرض له من صراح الظلم أن الذى أكتب به فى نوبتى فالخصم مكتفل بعرضه وممكن مما يزيده فيه تزييفا وتبجينا. كما أن الذى يكتبه هو قادر على أن يشبعه بما يريده تجميلا وتحسينا ولكن لهذا المكتوب الذى نسبه إلى التطويل مقدارا إن ذرعه أو شبره قائسا إلى ما كتبه هو استبان أيهما أطول وذلك متعلق برأى العين لا غيره.

أما ما ادعى من التناقض فى كلامى والهرب عن جواب ما سئلت عنه ونسى إلى الجنوح لبسط الكلام فيما أنا مائل إليه غير منصف فى العبارة والمعنى، فباب الدعوى مفتوح وكان حقيقا أن يعين على ما يناقض من قولى. والموقع الذى هربت منه.

وأما السؤال عن القرآن هل له معان لا يقتضيها ألفاظه وكون استحقاقه من الجواب أن أقول نعم أو لا، فإنى كنت وجدت السؤال مختلا لا قاعدة له فتجانبت عن الرد فى وجهه والمناقشة فى أصله وآثرت أن أوطئ له وأصرف نحوه جوابا قريب المأخذ من فهمه، ففعلت ذلك، ولو صادف إنصافا لكان كافيا فى الإيضاح. فأما ما أقول الآن فإن للقرآن ألفاظا مقدرة على معان ملائمة لها فلن يوصل إلى المعانى إلا منها، ومثال ذلك كالأرواح والأجساد. فاللفظ إذا تخلى عن معناه كان كالميتة التى لا منفعة بها، والمعانى لا تلفى مجردة عن الألفاظ كما لا تلفى الأرواح مجردة عن الصور معتبرا فى ذلك خلقة الله سبحانه إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] وأما ما ذكرته فى شأن القرآن فإن له معانى يستنبطها أولوا الأمر لا متخطى للعامة إليها ولا مرتقى نحوها، وتقسيمك الأمر فيما كنيت عنه من ذكر العامة قسمين أحدهما تفاريق الناس ممن لايستنبط فى شىء من العلوم، وقولك إنهم إن كانوا هم الذين عنيت فمعلوم أنهم ليسوا بأهل التفسير

(١) سورة فصلت ٤١ / ٥٣.

والمعنى فذلك مسلم. وقولك والآخر الذين همْ المحكمون أصول العربية والمفرقون بين المجاز والحقيقة من المخالفين. فما كنت أكنى عن مخالفي بمن يفرق بين المجاز. والحقيقة إذ لو كان هذا النعت به لائقا لم يكن مخالفا. وسوقك هذا الخطاب إلى ابن عباس رضى الله عنه إلى من نزهه الله عن النقصة فى دينه، ومن دعته وثاقة اعتقاده وجزالة علمه ومصادفة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الإجابة فيه إلى الاعتراف بفضل على عليه السلام بقوله: «ما رأيت علمى فى علم على عليه السلام إلا كقطرة فى المثعنجر[1]» فأقول حاشا لله ما علمنا عليه من سوء. إلا أن ههنا نكتة قلتها ثم لم تف بشرطها وانقلب عليك البيت الذى تمثلت به:

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ما معنى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه «اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن» ولئن كان تأويل القرآن متعلقا بالإفصاح فى لغة العرب فابن عباس لايرد عن قدم صدق فيه. ودعوة النبى صلى الله عليه وسلم له إذن فضل، فهذا هو الذى أدعوك إليه والله تعالى أنطقك بالحق فيه.

وأما جمعك بين ابن عباس رضى الله عنه وبين أبى حنيفة والشافعى فى التمثيل والقياس فبئس والله القياس، حتى لقد زيفت ما مدحت به ابن عباس حين جعلته وإياهما فى قرن، ومعروف محل ابن عباس من قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه من الإسلام وموقعه من العلم وكناية النبى صلى الله عليه وسلم عنه «بربانى الأمة» فهلا رعيت فيه شيئا من هذه العصم حين سويت بينه وبينهما، ثم إذا كنيت عنهما باسم الإمامة وجردت ابن عباس من هذه الفضيلة ولم ترقب أن الإمامة إلى اليوم بزعمكم فى ولده، والقوم الذين عنيتهم هم المتوسمون بالعلم من أهل الرأى والقياس الذين يقولون القول بالغداة ثم يرجعون عنه بالعشى، ومن قد رجعوا فى آخر أعمارهم عن سائر ما قالوه فى أولها، فالعقل يوجب أنهم لو عاشوا زيادة على ما عاشوا لرجعوا عن كثير مما عليه انقرضوا وماتوا، وقد قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يوما لأبى حنيفة: يا نعمان ما الذى تعتمد عليه فيما لم تجد فيه نصا من كتاب الله ولا خبرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

---

(١) المثعنجر وسط البحر.

أقيسه برأيي. قال الصادق: إن أول من قاس إبْليس حين رأى أن عنصر النار أشرف من عنصر الطين فخلده الله تعالى في العذاب المهين. يانعمان أيهما أفضل الصلاة أم الصوم؟ فقال: الصلاة. فقال: إن الله تعالى أمر الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة. ولو كان القياس مطرودا لكان القضاء في الصلاة! وأيهما أطهر المني أم البول؟ قال: المني. فقال الصادق: إن الله تعالى أوجب في المني الغسل وفي البول الوضوء ولو كان بالقياس لكان الغسل في البول وأيهما أعظم عند الله الزنى أم قتل النفس؟ قال: قتل النفس. قال: فإن الله تعالى أوجب في القتل شاهدين وفي الزنى أربعة ولو كان بالقياس لكان الأربعة في القتل!. قال: فأيهما أضعف المرأة أم الرجل؟ قال: المرأة. قال: فلم جُعِل لها سهم وللرجال سهمان؟ فلو كان بالقياس كان السهمان للمرأة! فاتق الله يا نعمان ولا تقس فإننا نقف غدا بين يدى الله تعالى فيسألنا عن قولنا، ويسألكم عن قولكم، فنقول نحن: قلنا ما قال الله تعالى ورسوله. وتقول أنت وأصحابك رأينا وقسنا فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء.

أما الفائدة التي سقتها إلى وامتنت بها على لأزين بها حلقتي فيما يتعلق بقوله سبحانه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[1]» مما ذكرت أنه من استنباط أئمتك، فابعث ثقة لك لنريه أنها مسطرة عندنا في كتاب يسمى «دعائم الإسلام[2]» والرواية صادرة عن علي عليه السلام دون من ذكرت طنزك[3] ونبزك مما يتعين الصبر عليه. وأما قولك إننا نحن أولوا الأمر، لأننا العلماء القدوة والفقهاء، والنظار في دين الله تعالى، والذابون عنه والناصرون له، والدامغون للباطل وحزبه والرادون على الزائغين، فقد عرفت ذلك ولقد حقق في نفسي صدق قولك بكونك من أولى الأمر تسلطك هذا وتنشطك في استماع السوء، وضراوتك على ثلب الناس

---

(١) سورة الأحقاف ٤٦ / ١٥.

(٢) كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي أبي حنيفة النعمان بن أبي عبدالله محمد بن منصور بن أحمد ابن حيوان التميمي، والإسماعيلية لا يكنونه بأبي حنيفة خوف الالتباس بالإمام أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب المعروف، بل يشير أتباع المذهب إليه بسيدنا القاضي النعمان والقاضي الأجل وتوفي النعمان سنة ٣٦٣ هـ في خلافة المعز لدين الله الفاطمي بعد أن خدم المهدي. ثم خدم القائم والمنصور ثم المعز وكتابه دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام في جزأين الأول يبحث في العبادات وأوله باب الإيمان والثاني يبحث عن العلامات، والمقول إن المعز هو الذي أمر النعمان بتأليف هذا الكتاب لما وجد اختلافا شديدا بين الدعاة في الفقه فأصبح هذا الكتاب أكبر مصدر في فقه الفاطميين وعليه يعتمد الإسماعيلية إلى الآن. (راجع ما كتبناه في التقدمة لكتاب النهمة في آداب أتباع الأئمة).

(٣) الطنز السخرية والنبز بالفتح فالسكون اللمز.

والنقيصة فيهم. وحجتك في هذا المعنى قوية والمسألة لك مسلمة. بعد أن كان مأثورا عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[1]، فقال: إيانا عنى به ونحن أولوا الأمر وطاعتنا مفروضة. وإنما هذه ثلاث طاعات خارجة مخرج الإطلاق والعموم، ولم تتعقب واحدة منها بتقييد ولا خصوص، فطاعة الله سبحانه عامة لجميع الخلائق وكمثلها طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وينبغي أن يكون طاعة أولي الأمر مثلها عامة وعلى مثالها جارية. ثم إن طاعة الله ممتنعة إلا بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. وكمثلها تمتنع طاعة الرسول إلا بطاعة الأئمة من ذريته (عليهم السلام) ليكون الجميع على نسق واحد جاريا وبعضه لبعض موازيا. وإن كان بنو علي من الحسن والحسين، وزين العابدين، والباقر، والصادق، ومن نسلوا (عليهم السلام) قد نزعوا عن هذه الفضيلة. وسقط في طاعتهم ما أكد الله من الفريضة، فلأن يكون شاهنشاه المعظم حرس الله ملكه متوجا بتاجها متبرجا بزينتها خيرا من أن تكون أيها الشيخ المترشح لها والمتوسم بها، فبالله لا تنافسه في ذلك. وأما قولك إنني نفيت الاستنباط ثم أوجبت لنفسي مثله، فمتى قلت ذلك وادعيته؟ لم أدعيه إلا لأهله الذين أوجب الله لهم أن يستنبطوا انتزاعا من القرآن على مثال تركيب الأنفس وتقدير الآفاق، حتى إذا اعتبرت المسألة من منتزعاتهم وجدت السموات والأرض بها شاهدة. ولفضائلها مؤكدة، فإن كانت منتزعات أبي حنيفة التي هي مائة ألف مسألة على هذه الصيغة في شهادة التركيب لها لم يكن عليها مزيد، وإن كانت مؤسسة على شفا جرف الشبهة، إذن ليس هو من رجال الاستنباط والانتزاع.

وأما ما كررته من ذكر سؤالك عن تصحيح ما أدعيه من معاني القرآن لايدل عليها اللفظ العربي وإفشاؤك إلى التكرمات التي كلامك مشحون منها، مما يصدر من مثلك مثلها، فقدعرفته ووددت أن لايعرى فصل واحد منها، وليس يكاد يتفق والقول في جواب السؤال، أنني أسألك هل كان في معتادات العرب الصلاة التي هي القيام والركوع والسجود؟ وهل عرفوا فيها إلا السابق والمصلي؟ فلو وكل الأعرابي إلى استدراج ذلك بفطنته أكان يجد من فصاحته في معرفة الصلاة ردءا؟ أم هل عرفوا في الصوم غير الوقوف؟ فلو خلي بينهم وبين فصاحتهم أكانوا يبلغون فيه غرضا مؤديا! أم هل عرفوا من الزكاة غير الزيادة

---

(١) سورة النساء ٤ / ٥٩.

فهل كانوا يبلغون بأحلامهم لو تركوا فيها غرضا؟ وكذلك السنة والشريعه والنبى والإمام. ثم أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[1] من أين يتمعنى للفصيح من الأعراب هذا القول؟ أليس مأثورا عن النبى صلى الله عليه وسلم: «إياكم وخضراء الدمن» أين هذا مما يبلغه فطنة العرب أنه المرأة الحسناء فى منبت السوء. أليس الله تعالى يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾[2] فشبه الماء بالوحى، وما خص به الأنبياء عليهم السلام. أليس النبى يقول: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جانبى الصراط سور وعلى السور أبواب مفتحة عليها ستور مرخاة. وعلى جانبى الصراط داع يدعو أن ادخلو الجنة ولا تعرجوا» فشبه ذلك بالإسلام وبحدود الله ومحارم الله تعالى. وأمثال ذلك كثيرة مع الإنصاف يجزى عشرها. وأما قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[3] مما احتججت به فى وجوب تأويل الكتاب وإثباتك إياه بعد أن سودت الطوامير فى دفعه وإنكاره والمطالبة بإثباته ووافق الأمر فيه على الخلاف هل هو فى أيدينا أم فى أيديكم. فقد عرفته. والحمد لله الذى ردك إلى الواجب وأفضى بك بعد الجحود إلى الإقرار، وقولك إنكم - تعنينا به - عنه عادلون وبشهواتكم قائلون. فأنت فى حل. ونسبك إلينا أننا نحمل معنى قوله: ﴿أَنْهَرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[4] وغير ذلك على أنهم قوم بأعينهم فقد وجدتك فى معرفة مذهب مخالفك غير ماهر. وقبيح بك القطع على مالا تعرفه.

وأما تقسيمك الآية: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[5] على أنه الرؤيا فقد أثبتت الآن التأويل ولا جحود بعد إقرار، ولو ثبت على آية واحدة وتكلمت عليها لتبين لكل منا مقداره. ولكنك تقتصر على السب والثلب والقصص والحكايات، وما يضيع الوقت فيما يصرف إلى كتب جوابه. وأما ما استدللت به من قول الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[6] وما سردته فى جوابه من الشتيمة المستمرة المطردة أنك فعلت وصنعت وزين الشيطان فى عينك، فلا أدرى من أين حصلت لك هذه الحجج القاطعة والبراهين اللامعة. وأما إنكارك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى

(١) سورة التوبة ٩/ ٢٨.
(٢) سورة الرعد ١٣/ ١٧.
(٣) سورة آل عمران ٣/ ٧.
(٤) سورة محمد ٤٧/ ١٥.
(٥) سورة يوسف ١٢/ ٢١.
(٦) سورة يونس ١٠/ ٣٩.

علـى: «إنك صاحب التأويل». فانكره ولا شـيء عليك. ولئن أنكرت أن عليا صاحبه فلقـد أوردت الآن أن ها هنا تأويـلا، فمن صاحبه؟ أفدنا مأجـورا. فلئن كنت وأبناء جنسـك أصحابه على سـنتكم في الدعوى أنكم أولوا الأمر فأعلمنا ذلك. وأما ما رددته على من القول في كون التأويل علم العاقبة الذي به ينجي فإنني لا أنكر على مخالفي إذ قال إن الذي نتمسـك به ضد ذلك مما ينجي به، فقد سـبق القول إن الذي يتمسك به للنجاة ويتحقق أنه علم العاقبة ما كان شـاهدا بصحته الآفاق والأنفس، أو لايكفي من البيان ما تشيد به الأيدي والأرجل كما قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]. فمـا بعد قيام هذه الشـهادات في معارف علم العقبى بشيء وماذا بعد الحق إلا الضلال. وأما قولك إن اللفظ العربي لا يقتضي تأويلا فإنـه محمـول على معناه المقصود منذ تقدم الذكر في حديث الصلاة والزكاة ونجاسـة الشـرك وما يجري هذا المجرى. وأنه لو خلي بين العرب وبين ذلك كله فلم يكشـف لهم فيه الغطاء ولكان الجهل يغشـاهم والوقوف دون الغرض فيه قصراهم. وأما تمثيلك فيه بمن أمر غلامه أن يسـقيه ماء فباع جاريته فما أحسـنه من مثل، هلا تمثلت بقول النبـي صلى الله عليه وسـلم: «لاينقص مال عبد من صدقة بـل يزيد». وهلا اعتبرت المائتين إذا أخذت منها خمسـة يزيد ذلك أم ينقص وهل ذلك شيء إذا اعتبره أعرابي بفصاحته استبان له وجه الغرض؟ وهلا اعتبرت قوله سبحانه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾[2] ومن تنصرف هذه الإشارات إليه ألقي في التراب مفرقا بين رأسـه وجسـده وهو نصب عينيـك تراه ميتا مطروحا فكيف تعده حيا مرزوقا. وكيف تقول إنه عند ربه وهو عندك بأسوأ حاله. أين يحوم الأعرابي حول هذا؟ وبأي مثابة هو من مبلغ فهمه. وهلا اعتبرت قوله سبحانه أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3] فكنـى عن الأحياء بالأمـوات هـا هنا وعن الأمـوات بالأحياء هناك، فما تصنع العـرب ها هنا؟ على أن الخلاف معك زال في إثبات التأويل فقد ردك الله فيه إلى الواجب فأقررت بثبوته بعد مـا أمعنت في دفعه وإنكاره. وأما تهجينك لقـولي إن معنى القرآن معجزة لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك مفاتيح أقفاله غيرهم ولا يدعي قدم الصدق فيه

---

(١) سورة النور ٢٤/ ٢٤.

(٢) سورة آل عمران ٣/ ١٦٩.

(٣) سورة الأنفال ٨/ ٢٤.

سواهم. فيا سبحان الله أيجوز لك أن تدعى أنك من أولى الأمر وتنكر أن يكون بنو على أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا أهلا لهذه الفضيلة؟ ما أظلمك لمحمد صلى الله عليه وسلم فى أهل بيته. فتفضل وسقهم فى هذه المزية مساق نفسك وسو بينهم وبين أبناء جنسك. ما هذا الإنكار العظيم والامتعاض الكثير. وأما قولك إنى مخالف لأهل البيت وفاعل وصانع فجميع ذلك معتاد من برك وفضلك. وفى كل ساعة يتجدد لدى عرفك وإحسانك، وقولك إنهم ما خالفوا الناس ولا كاتموهم دينهم فالله تعالى بايع وعاهد وبه أمر فاعتبر القرآن تجد موجبات العهد فيه والبيعة كثيرا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾[1] والله تعالى قسم ما خلق قسمين: ظاهرا جليا كالدنيا وكأجسادنا. وباطنا خفيا كالآخرة وأروحنا. فسله لم فعل كذلك! وسل النبى صلى الله عليه وسلم لم قسم شريعته هذا التقسيم؟ فإن خصومتك فى ذلك كله معهما وعندك أنك إذا قرأت «بسم الله الرحمن الرحيم» فقد قتلته علما. وأحطت بما فيه خبرا ولو تشتغل بهذه الترهات، وكنت تدع رجلك على معنى آية حتى كنا نتكلم فيها. لعرفت هل يصح لك فيها معلوم أم لا. وإن شئت جعلنا بسم الله الرحمن الرحيم قاعدة الكلام، فأورد ما تعرفه فيه لتخاطب عليه. وهبك تتصور فى نفسك أنك بقدر بضاعتك فى العربية ذلت قطوف معانى القرآن لك، فصرت من أولى الأمر المفترض الطاعة ما الذى عرفته فى ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾[2] و ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾[3] وأشباهما أما تعلم أن ذلك ليس بعبث، وأنه يحتاج إلى معنى محقق فإن كان ذلك مما لايعرف معناه بوجه فهل كان إيراده إلا عبثا يجب أن ترجع إلى معهود نفسك ولا تمد رجلك فوق قدرك وتكف عنان سبك وثلبك فإنه أولى. وأما الكلام فيمن لا يفرق بين نفسه وبين الجماد وقولك إنه ما دار بينى وبينك خطب فيه، فكان سهمى فى ذلك تجاوزك، وما نال منك نيله من غيرك أو كأنك اهتديت فيه لما ضل عنه سواك، ولو كانت نصفة لما عكستم المسألة على. وأنتم من سؤالى مأخوذ بالنواصى والأقدام. جعلنا الله ممن يعرفون مقادير نفوسهم فما هلك امرئ عرف قدره. والسلام والحمد لله رب العالمين وصلواته على النبى المصطفى محمد وعترته الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) سورة الأحزاب ٣٣ / ٧.

(٢) سورة مريم ١٩ / ١.

(٣) سورة الشورى ٤٢ / ١

مناظرة الخراساني

جواب الخراساني عما سئل عنه من معنى قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[1]» والغرض في السؤال أن يفرق بين الناس وبينها إذا كان السجود يعم الكافة:

«بسم الله الرحمن الرحيم» قال الله تعالى في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾[2] أعلمنا أنه لا يتكلم إلا عن وحي، وقال تبارك وتعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[3] أمرنا تبارك وتعالى بأن ننتهي عما ينهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال تعالى في سورة النساء: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[4] وقرن طاعته بطاعته إذ كان لا يأمر العباد إلا بالحق. كذلك كان لاينهى إلا عن ما يجب الانتهاء عنه. فيلزم كل مسلم أن لايتعدى حدود الله تعالى، فقد قال الله تعالى عز من قائل: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾[5] وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[6] وابتغاء الوسيلة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم عند أكثر المفسرين، فعلينا أن نتبع سنته ونسلك طريقته، وننتهي عما نهانا عنه. قال صلى الله عليه وسلم: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» وحدثنا بهذا الحديث القاضي أبو حامد بن أحمد بن أبي إسحق الابنورذي قال: أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن غلينمه قال أخبرنا أبو بكر الشافعي قال حدثنا محمد بن سليمان الحرث الواسطي: قال حدثنا أبو نعيم الفضل ابن دكين قال: حدثنا عيسى بن طهمان الجشمي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب

---

(١) سورة الحج ٢٢ / ١٨

(٢) سورة النجم ٥٣ / ٢ و ٣ و ٤ و ٥.

(٣) سورة الحشر ٥٩ / ٧.

(٤) سورة النساء ٤ / ٨٠.

(٥) سورة النساء ٤ / ١٤.

(٦) سورة المائدة ٥ / ٣٥.

علـى متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[1]». وفى تفسـير النقاش عن سـعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى لله عليه وسـلم أنه قال: «اتقوا الحديث إلا ما علمتم فإنه من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». وعن أبى صالح عن ابن عباس قال: «من فسر القرآن بالـرأى فأصـاب لم يؤجر وإن أخطأ دخل النار[2]» وفيه عن سـعيد بن جبير عن ابن عمر قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: «من فسـر القرآن برأيه فأصاب كتبت عليه خطيئة لو قسـمت بين العباد لوسـعتهم، فإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار». وعن الحسن عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال: «من فسـر القرآن على رأيه فأصاب لم يؤجر وإن أخطأ محا الله النور من قلبه» وهذا خبر مشـهور لا طعن عليه رواه الثقات عن النبى صلى الله عليه وسلم، سئل أبو بكر وعمر عن قوله تعالى ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾[3] فقالا لا علـم لنا أى سماء تظلنا وأى أرض تقلنـا إذا قلنا فى كتاب الله تعالى بما لانعلم[4]» وعن مسـروق قال: قال على بن أبى طالب عليه السـلام وابردها على الكبد إذا سئل عما لايعلم أن يقال الله أعلم. ثم قال على عليه السـلام: أى أرض تسـعنى وأى سماء تظلنى إذا قلت على الله ورسـوله ما لا أعلم». ثم قال على عليه السلام: كلام العرب كالميزان الذى يعرف به الزيادة والنقصان، وهو أعذب من الماء وأرق من الهواء. إن فسـرته بذاته استصعب وإن فسـرته بغير معناه اسـتحال. فليس يجوز لأحد أن يتكلم فى القرآن برأيه وإن كان عارفا باللغـة. ولو كان علم القرآن يدرك باللغـة دون التنزيل والمراد لم يكن فى العالم أحد أعلم بـه مـن الأعرابى، والجلى والخفى له أصل فى القرآن: إمـا منصوص إليه أو مدلول عليه بعقـل لأن القـرآن أصل المصلحة وقطب المنفعة. وعن ابن عباس قال: تفسـير القرآن على أربعة أوجه: تفسـير يعرفه العلماء، وتفسـير يعرفه العرب. وتفسير لايعذر بجهالته أحد

---

(١) روايـة الترمـذى عن ابن عباس عن النبى قال: اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.

(٢) فى مسـند أبى داود عن جندب قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم: «من قال فى القرآن برأيه فأصـاب فقد أخطـأ». وزاد رزين «ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر». وقيل إنه حديث غريب [تفسـير القرطبى ج ١ ص ٣٢].

(٣) سورة عبس ٨٠ / ٣١.

(٤) عن ابن أبى مليكة قال: سـئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تفسـير حرف من القرآن فقال: «أى سمـاء تظلنـى وأى أرض تقلنى وأين أذهب وكيف أصنـع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى» [تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٤].

وهو الحلال والحرام. وتفسير لايعلم تأويله إلا الله، من ادعى علمه فهو كذاب. وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] قال أبو العالية: الحكمة الفهم فى القرآن وقال غيره تفسير القرآن. ورحل مسروق فى آية إلى البصرة فسئل عن الذى يفسرها فأخبر أنه بالشام. فقدم الكوفة فتجيز به ثم وصل إلى الشام حتى سأل عنها ابن عباس قال: «إن هذا القرآن ذو شجون وفنون لاتنقضى عجائبه فمن أوغل فيه بأثر نجا - ويروى من أوغل فيه برفق نجا - ومن أوغل فيه بعنف أو قال رأيه هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ. ومحكم ومتشابه. وظهور وبطون. وظاهره التلاوة وباطنه التأويل فجالسوا به العلماء وجانبوا به السفهاء». قال أبو سعيد المروزى: فمن تكلم فى القرآن من حيث النقل فهو من العلماء، ومن تكلم من حيث الرأى فهو من السفهاء.

(فصل) أبو الأحوص عن عبد الله بن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن. ولكل حد مطلع. والشيخ الزاهد أحمد بن سنان قال: المعنى فى قوله ظهر وبطن يريد ظاهرا وباطنا. فالظاهر ما يعرفه العلماء. والباطن ما يخفى عليهم. فنقول فى ذلك كما أمرنا. ونكل ما لا نعلمه إلى الله عز اسمه. وقال غيره: هو أن يؤمن به ظاهرا وباطنا. ويقال ظهر وبطن فرائضه وأحكامه ومطلعه ثوابه وعقابه وقال أبو عمر لكل حد مطلع أى مأتى منه. وليس لهذا الكلام مطلع غير ما قلت يريد وجهه، وفيه أقوال كثيرة وأحسنها عندى قول من الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله لأن فى القرآن أشياء لاتعرف إلا بالتفسير. وحدودا لا تفهم إلا بالتوفيق فاللفظ ظاهر وما أراد الله باطن يحتاج من أراد علمه إلى الفحص عنه لغة ونقلا والله الموفق، ومن سألنى عن معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[2] فأنا أتكلم فى معنى الآية على ما تكلم فيه السلف لغة ونقلا، فمن رام منى غير ذلك فقد تعدى وأساء، ويجب أن يبين هو ما عنده. كما أبين أنا ما عندى. ثم يتأمل فى التفاسير فإن كان ما قلته وبينته موافقا لأقاويل المفسرين فأنا على الصواب ويلزمه ترك ما تعلق به الشبهة. فإن كان ما قاله موافقا لأقاويلهم دون ما قلته رجعت أنا حينئذ عن قولى فيظهر للناس الحق من الباطل والصواب من الخطأ. فأما من يضرب الطبل تحت الكساء ويتبع الهوى ويروم منى

(١) سورة البقرة ٢ / ٢٦٩.

(٢) سورة الحج ٢٢ / ١٨.

أو من غيرى الاعتماد على الخطأ كان قوله ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[1].

أما الكلام فى الآية من حيث اللغة فإن السجود فى كلام العرب هو الخضوع والانقياد لأمر الآمر، ومن لا يمتنع من أمر الآمر فقد انقاد له. ويقال كان السجود الملائكة لآدم عليه السلام إيماء ولم يضعوا وجوههم بالأرض. ولا ينبغى لأحد أن يضع جبهته بالأرض إلا لله تعالى. ويقال كان سجودهم له خضوعا وإقرارا بفضله لما أنبأهم بالأسماء التى علمه الله تعالى. فيجوز أن يكون السجود بمعنى الانحناء والخضوع. وأما السجود بمعنى الإقرار بالفضل فهو قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[2] ولم يكونوا سجدوا له لكن أقروا بفضله من حيث إنهم أساءوا إليه وأحسن إليهم وهو معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾[3] ويجوز أن يكون آدم كالقبلة وكما أنا أمرنا أن نسجد نحو الكعبة كذلك أمروا أن يسجدوا لله وآدم لهم كالقبلة. وإنما قررت معانى السجود هاهنا لئلا يطول عند الآية التى سئلت عن معناها.

أما الكلام فى قوله تبارك وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[4] فقوله تعالى: «ألم تر» يقول ألم تخبر يا محمد فى الكتاب فتعلم أن الله يسجد له يقول يصلى له وينقاد لأمره من فى السموات من الخلق ومن فى الأرض من الملائكة والجن الذين لاترون سجودهم، فأما من اعترض علىّ فقال لم يعهد فى مكان أن «ألم تعلم» ناب مناب «ألم تر» وأنه إن جاز ذلك أن يقوم ألم تر أيضا مقامه فى كل موضع مما ليس بينه وبين الرؤية مناسبة. فهذا كلام رجل ليس يعرف أن العرب تضع العلم مكان الرؤية وتضع الرؤية مكان العلم. أما العلم مكان الرؤية فمثل قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾[5] «إلى قوله» ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[6] هاهنا العلم بمعنى الرؤية إجماعا. وذاك أن الله تعالى علم قبل أن يفتنهم الصادق من الكاذب.

---

(١) سورة النور الآية ٣٩.

(٢) سورة يوسف ١٢/ ١٠٠.

(٣) سورة يوسف ١٢/ ٩١.

(٤) سورة الحج الآية ١٨.

(٥) سورة العنكبوت الآية ٢.

(٦) سورة العنكبوت ٢٩/ ١ و٣.

وليس يجـوز أن يقال إنه يجـدد له علم بعد أن اختبرهم، بل علم بسـابق علمه ما يكون منهـم. فلمـا ظهر ما كان (في اللوح) من معلومـه رآه كما علمه. وكذلك الملائكة رأوا ذلك حسب ما كان مكتوبا في اللوح فهذا هو الفرق بين المعلوم والمرئي. فإن البارى عالم بالموجود والمعـدوم. وإذا وجـد المعدوم أدركه على ما هـو. وأما الرؤية بمعنى العلـم فكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[1] فليس يصح حمل هذه الرؤية بمعنى النظر إلى الشئ، لأن النبى صلى الله عليه وسـلم ما نظر إلى قوم عاد بل علم بخبر صادق أن الله تعالى أهلكهم فقد دل العقـل على أن الرؤية هاهنا ليس بمعنى النظر فمعنى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تخبر، ألم تعلم، وفي مثل هذا يرجع إلى أهل اللغة ولا منازعة فيها بل الأمر فيه موكول إلى أهلها.

وأمـا قولـه: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾[2]. ومثـل ذلـك قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[3] سـئل على عليه السـلام عن تسبيح الجبال فقال: والله ربنا قادر أن يصنع ذلك وأنا أومن» وقد صح أن ركانة[4] سـأل النبى صلى الله عليه وسـلم معجزة فقال: وما تريد؟ فقال: أريد أن تشـهد تلك الشجرة لك بالنبوة، فأمر النبى صلى الله عليه وسـلم أن يأتيها ويسـتدعيها والقصة معروفة. وتسبيح الحصى في يد النبى صلى الله عليه وسـلم أشـهر من الشـمس حتى قال على عليه السلام سبح في يديه الحصى وشـهد على نبوته. وأقام دلالات لاتحصـى. ومن أنكر هذا فقد أنكر القدرة ودفع المعجـزة، ومنه كلام الذئب وكلام الضب وتسـبيح الحصى وإتيان الشـجرة مع ركانة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بينت أقوال المفسرين فيه وأن الحسن أشار إلى ما أشار إليه على عليه السـلام فقال: الله أعلم بكيفية سـجود الجمادات. قد قيل إنه بمعنى أنها لا تمتنع من إرادة الله تعالى فيها. وليس يكون هذا السجود التكليف الذى يأتى من الحى الناطق. ويثبت أيضا أنه يجوز أن يكون معنى السـجود من الجمادات على معنى أن من نظـر فـى الجمادات أداه صحة النظـر إلى الإقرار بالوحدانية وذلك أن آثـار الصانع فيها ظاهرة فهى تدل على الله سبحانه فهى كالساجدة له من حيث دلت عليه. فدلالتها عليه

---

(١) سورة الفجر ٨٩ / ٦.

(٢) سورة الحج الآية ١٨.

(٣) سورة ص ٣٨ / ١٨.

(٤) فـى الأصـل (أبـا زكان) وركانة هو ابـن عبد يزيد المطلبـى الصحابى الذى صارعـه النبى صلى الله عليه وسلم فصرعه النبى. وله حديثان في أبي داود والترمذى وابن ماجه. أما حديث معجزة الشجرة فقد وردت في الشفاء للقاضى عياض على أوجه متعددة ولم يرد فيها ذكر اسم الأعرابى الذى طلب من النبى هذه الآية.

سجودها له. وهذا مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] يقول إلا يدل على حمده وتوحيده وتبريته من السوء وتنزيهه عنه. والدلالة على صحة ما قلت أمن السجود المتعارف لا يرى من هذه الجمادات. والكذب في قول الله تعالى مستحيل. فيجب أن يحمل السجود على الدلالة. والشاعر يقول:

ففي كل شئ له آية تدل على أنه واحد

فتلك الآية التي عناها هذا القائل عبر الله عنها تارة بالسجود وتارة بالتسبيح.

وأيضا فإن قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾[2] إلى آخر الآية خبر عام وإذا حمل على غير ما قلته أدى إلى أن يكون مخبره بخلاف خبره تعالى الله عن ذلك. لأن من لا يثبت الباري كيف يسجد له. والدليل على ما قلت قوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ فبين أنه وإن حق عليه العذاب فدلالة التوحيد في نفسه ظاهرة. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني أهل الجنة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يقول وجب عليه العذاب في النار ويقال: ويسجد كثير من الناس يعني المؤمنين ويسجد كثير حق عليه العذاب من كفار الإنس والجن وسجودهم في ظلهم وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾[3] يعني غدوة وعشية. فظل الكافر بالغدو عن يمينه يسجد. وعند العشي يكون ظله عن شماله. ويجوز أن يكون السجود هاهنا التسخير وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾[4] وإذا كان كذلك فإن قلت: ألم أقل: أليس الله أمر الشمس أن تسير من المشرق إلى المغرب في منازل معلومة؟ فتقول بل هي تسير كما أمر الله تعالى. فمقول هذا سجودها إذ السجود هو الطاعة. وكذلك القمر والشجر أمرها بإخراج الثمار. والجبال أمرها بإمساك الأرض (وذلك سجودها) والدواب أمرها أن تحمل أثقال الخلق وسخرها لذلك وهي تفعل ما أمرها الله تعالى وتطيعه في ذلك فطاعتها لربها سجودها له والله أعلم.

وأما الكلام فيما تقول في السجود في كل ساعة من كل جنس من الحيوانات فهو فيما روى عن عبد الواحد بن أحمد بن أبي القاسم على سبيل الإجازة عن أبي محمد حاتم

(١) سورة الإسراء ١٧ / ٤٤.
(٢) سورة الحج ٢٢ / ١٨.
(٣) سورة الرعد الآية ١٥.
(٤) سورة الرحمن ٥٥ / ٦.

بن يعقوب عن أبي عباس محمد بن الحسين بن جعفر بن جابر بن عبدالله بن فرحة عن مالك بن سليمان وهو أبو عبدالرحمن السعيدى قال حدثنا رجاء بن مالك عن يزيد عن سعيد عن قتادة فى قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[1] أما المؤمن فيسجد طائعا وأما الكافر فيسجد كارها. قال أبو العباس: حدثنا رجاء بن مالك عن إبراهيم بن محمد عن ربيعة بن عثمان التيمى عن حبى بنت رجاء بن مالك قالت: قلت لأبى هريرة: أسمع ليلتى نقيقا قال ذلك تسبيح الجدار. عن رجاء بن مالك عن الهياج عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم قال كتب سليمان بن أبى سليمان إلى الدرداء بأنه سبحت القصعة بينى وبينك. عن ليث عن مجاهد أنه سمع صرير الباب فقال هذا تسبيحه. وقال الأعمش: ميل الظل تسبيحه. وعن عكرمة قال للرجل قميصك هذا يسبح. وبلغنا عن ابن مسعود أنه قال: لينظر أحدكم لا يلقى الله وقميصه أكثر تسبيحا منه. وعن أبى أخفش الأحوص أنه قال: القأرة تسبح. وفى تفسير مالك بن سليمان وقد ذكرت إسناده أن محمد بن إسحق[2] قال عن بعض أهل العلم فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ... إلخ﴾ الآية. قال لما حضر آدم الوفاة دعى ابنه شيثا فعهد إليه عهده وعلمه ساعات الليل والنهار وأنبأه كيف هى، فالساعة الأولى من النهار حين يسجد بنو آدم من الضحى. والساعة الثانية صلاة الملائكة. والساعة الثالثة صلاة الطير. والساعة الرابعة صلاة الهوام. والساعة الخامسة صلاة الحيوان. والساعة السادسة صلاة المقربين وذلك حين يستغفرون لبنى آدم. والساعة السابعة حين تبرز الملائكة من الحجب. والساعة الثامنة صلاة السموات والأرضين. والساعة التاسعة صلاة الذين حول العرش. والساعة العاشرة حين ينزل الريح على الماء وتفر الجن من حول الماء ولولا ذلك لأفسدت الشياطين

(١) سورة الرعد ١٣ / ١٥.

(٢) رجال الإسناد الذين أشار إليهم لم ترد فى كتب الطبقات، وكذلك لم أجد ذكرا لأكثر هذه الأسماء التى وردت فى هذه الصفحة فى المراجع العامة. ثم نلاحظ هذا الاضطراب الظاهر فى تسلسل رواياتهم فمثلا نرى رجاء بن مالك يروى عن يزيد عن سعيد عن قتادة التابعى المعروف. وفى الوقت نفسه نرى بن مالك يروى عن إبراهيم بن محمد عن ربيعة بن عثمان التيمى (وربيعة هذا هو حفيد ربيعة الرأى التابعى المعروف) وجعل ربيعة بن عثمان يروى عن حبى بنت رجاء بن مالك الذى جعلها تعاصر أبى هريرة الصحابى المعروف. فكيف نوفق بين ذلك؟ ثم ما معنى قوله: كتب سليمان بن أبى سليمان إلى أبى الدرداء بأنه سبحت القصعة بينى وبينك! كل هذا يجعلنى أشك فى صحة الروايات، وأخشى أن يكون المؤيد فى الدين قد وضع هذه الروايات من عنده، أو أن يكون اخترع هذه المناظرة وحشاها بمثل هذه الترهات ليضعفها فتظهر مقدرته وكفايته هو.

الماء على بنو آدم. والساعة الإحدى عشرة حين يعرج أرواح النبيين والصديقين إلى الله. والساعة الاثنتا عشرة عند غروب الشمس وهى زكاة عند الرحمن. والأولى من الليل صلاة الجن ولذلك لا تضر واحدا من بنى آدم حين يقضون صلاتهم، والساعة الثانية صلاة دواب البحر. والساعة الثالثة صلاة من تحت الأرض من الخلق. والساعة الرابعة صلاة الصابرين. والساعة الخامسة صلاة الذين فوق السماء من الخلق كلهم. والساعة السابعة صلاة الغمام، والساعة السابعة حين تثقل العين وتهدأ الخلق كلهم، والساعة الثامنة صلاة البحر والشجر. والساعة التاسعة صلاة الملائكة الذين هم فى السماء. والعاشرة حين تفتح أبواب السماء وتضع الملائكة أجنحتها وتصيح الدجاج فى الأرض وحينئذ من سأل الرحمن شيئا أتاه. والإحدى عشرة حين يخرج ما فى الأرض أهلها. والاثنى عشرة عند صلاة الصبح، فتلك ساعات الليل والنهار أربع وعشرون ساعة. وكذلك كنت أسمع وأبصر يا بنى وأنا فى الجنة من قبل أن أخطئ فلما أخطأت لم أسمع صلاة الملائكة وكانوا يستعجلون بالتسبيح إلى ربهم، وقد كنت أسمع وأنا فى الجنة فلما كتب الوصية مات رحمة الله. وقال الحسن تحريك الديك جناحه ركوعه وسجوده. قال ابن عباس: لم يخلق الله طيرا إلا وهو يركع ويسجد والكافر يسجد ظله وميل الظل سجوده عن يزيد بن مرثد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لايصاد من الحيتان إلا بما يضيع من التسبيح». وبلغنا عن عمر بن الخطاب أنه أتى بأسد فقال: لولا ما ضيعت من تسبيح الله ما أخذت فتب. فخلى عنه سبيله. وأتى أبو بكر بغراب واقر الجناحين والذنب فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما صيد من مصيدة ولا قطعت من وشيجة إلا بما يضيع من تسبيح الله فخلى سبيله». عن عطاء بن دينار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تتخذوا ظهور الدواب كراسى لأحاديثكم فرب راكب مركوبه هو خير منه وأطوع وأكثر ذكرا». هذا الفصل من حيث النقل سمعناه فى تفسير مالك بن سليمان وفيه غنية ومن أراد أن يتكلم فى الآية ويظهر خلاف ما فى التفسير فليس يقبل قوله إلا ببرهان جلى وحجة بالغة والسلام وله الحمد والمنة.

جواب المؤيد

بسم الله الرحمن الرحيم: وقفت على كلام الشيخ. فوجدت الصدق يجلو ما نظمه فيه من آياته وأخباره. وجعلت حسن القبول منى تابعا لآثاره. وأما ما حكاه من قوله سبحانه

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾[1] وقوله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[2] وأشباه ذلك فنعم القدوة والدليل لو تركه أهل الرأى والقياس ولم يوسوسوا بهما فى صدور الناس. وأما الأخبار المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمقبولة وعلى الأحداق محمولة. وأما قوله إنه ليس يجوز لأحد أن يتكلم فى القرآن برأيه وإن كان عارفا باللغة. فلو كان علم القرآن يعرف باللغة لم يكن فى العالم أعرف به من الأعراب، فيا لله لقد آوى فى ذلك ونصر، وأدى الأمانة وما قصر، سوى أنه غير واقع موقع الرضى من أولى الأمر الجدد، وجد مناف لما سلكوه استنجادا برأيهم وقياسهم من الجدد. والسعيد من كفى بغيره، والمشار إليه بهذه النحلة تجمعه وإياه الدار العزيزة وغيرها، وإذا تفضل بالقيام معه بهذا التقرير وملافاته عن فعله بالزجر والنكير كان أمرا لنفسه يمهد وعليه يؤجر ويحمد.

وأما ما رواه عن ابن عباس رضى الله عنه من قوله: «تفسير القرآن على أربعة أوجه»: منه ما يعلمه العلماء. وآخر ما يعرفه العرب، وباقى التقاسيم. وقوله فى موضع آخر: لاتنقضى عجائبه. وقوله: ظاهره التلاوة وباطنه التأويل. فلست أعد ما أورده الشيخ من جميع ذلك إلا لطفا ساقه الله برحمته إلى. وجدد بمكانه حسن عوائده لدى. إذ لو كنت استظهرت بشىء من ذلك على من كنى عن نفسه بأولى الأمر لما وجد إلا مستقبلا بالرد فى الوجه والدفع فى الصدر، والحمد لمن أجرى الحق فيه على لسانه وبوأه مبوأ صدق من إظهاره وإعلانه.

وأما قوله من تكلم فى القرآن من حيث النقل فهو من العلماء، ومن تكلم فيه من حيث الرأى فهو من السفهاء. فإنى مسائله عمن يتكلم فيه جامعا بين النقل والعقل هل هو منظوم فى سلك أهل الفضل أو معدود من أهل الجهل؟ وأما روايته عن النبى صلى الله عليه وسلم نزل القرآن على سبعة أحرف، وقوله لكل آية ظهر وبطن، فلولا أن عقد المناظرة هو لأن يخف على الموقف الأشرف سمعه، ويخلص إلى النفس النفيسة نفعه فيقتضى ذلك أن يقتصر من عشر كلمات على واحدة، ويتجنب كل لفظة على الغرض المقصود زائدة، لاستقصيت عليه فى هذا الخبر تعرفا، وأكثرت فى البحث عما استعجم من معناه تصرفا، لكنى أقتصر على الخطاب عن الآية التى بنيت السؤال عنها فإنها بعد فى غشائها والوقوف موقف التفسير معه فيما عسى أن يكشفها عن غطائها،

---

(١) سورة النجم ٥٣ / ٣.

(١) سورة النساء ٤ / ٨٠.

جوابه عن سؤالي: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ﴾ ..الآية. أنه تكلم فيه ما تكلم السلف لغة ونقلا، فإنني أكلفه أن يتكلم فيه لغة ونقلا وعقلا. فلو كان النقل المجرد ينفعني لكان نص كتاب الله المنزل على نبيه المرسل يقنعني ولكان.

«في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل»

لاحاجة بي مع تلاوة القرآن أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجد إلى قوله حدثنا فلان عن فلان أن القميص يسبح والعمامة تركع وتسجد، فإذا به ما زاد القصة فيما سألت عنه إلا تطويلا ولم يؤيد قوله سبحانه وتعالى ومن أصدق من الله قيلا: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1]. وكان الغرض أن يمهد أحوال البشر ويبين فضلها على الشوك والشجر فلم يفعل. وكنت جعلت عمدة اعتراضي عليه في الأول كلاما، فصرف عن جوابه مع بسطه فيما لم يقم مقامه اهتماما ولم يعتمد به إلماما. وها أنا ذا معيده وهو عمدة مرادي وعميده. قلت: إن السجود لايصح إلا عن حي ناطق أخذا عن مؤيد من الأنبياء صادق. نزل ذلك عليه وحيا وإرشادا من ربه وهديا، وأنه إذا كانت الدواب والأشجار منبعثة من تلقاء نفسها لسجودها، عارفة حق المعرفة لمعبودها، كان فضلها على الأنبياء فضلا عن التابعين مشهورا. ولم يكن البشر بالقياس إليها شيئا مذكورا، ووجدت هذا الفصل طوى طي السجل للكتاب. وحذف من جملة ما يستوجب شيئا من الجواب. فإن كان ها هنا جواب فهلم لتهدي العمى وتسمع الصم، وإلا فدعني من القصص الطويل والتوسع في ميدان القال والقيل.

وأما قوله من لم يرض بما يورده تعين عليه الإفصاح بما يعتقده. فإن ذلك حكم والحكم إلا على من تملكه ظلم. وأما التعريض بمن يضرب الطبل تحت الكساء فلو سلم خطابه من هذه اللدغة على طوله لكان مهذبا في مقاطعه وفروعه وأصوله. لكني أحتمل عنه ما ساء لما سر. وأصبر لما نفع من كلامه على ما يضر.

وأما تقسيمه والسجود على وجوه فرارا من زحف الإلزام. وضيق خناق الكلام، فلئن كان السجود يتصرف على المعاني التي ذكرها من سجود وخضوع فليس يعدو أن يكون

(١) سورة الإسراء ١٧ / ٧٠.

صادرا عن حي قادر، وإذا ثبت عن الحي القادر فسواء خضع أو سجد أو قام أو قعد. وأصل اعتراضي ثابت لايتخلخل وموطد لايتزلزل.

وأما إنكاره على اعتراضي عليه في «ألم تر» أن يفسره بما ألم تخبر فتعلم، وقوله إن ذلك اعتراض من لم يعرف أن العرب تضع العلم مكان الرؤية، واستشهاده بقول الله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1] وقوله إن العلم يراد به ها هنا الرؤية. وذلك أن الله تعالى علم قبل أن يفتنهم الصادق من الكاذب، وأنه ليس يجوز أن يتجدد له علم لم يكن في السابق، فأقول في جوابه وبالله التوفيق: أي القولين أحق بأن يكون متبوعا: قول الله سبحانه الذي لايتعرف إلا على جهة الحقيقة والصدق، أم قول العرب الذي يتصرف على جهة المجاز والكذب. أم ترى يلزم الله سبحانه أن يقتدي بالعرب من جهة كذبهم ومجازهم ويحدث النقيض في كلامه تشبها بهم وتأدبا بآدابهم من حيث لايضيق عليه الصدق ولا تعوزه الحقيقة. وإنما العرب تفضي إلى استعاراتها ومجازاتها إذا ضاق بها شيء ميدان الصدق والحقيقة، فالله سبحانه الذي لا يضيق عليه شيء من ذلك لم يقل مجازا وكذبا، هذا خلف من القول. واستشهاده بقوله ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2]. وقوله يمتنع أن يتجدد له علم ولم يكن في السابق.

ثان قد أغناه الله عنهما مع خبطه فيما تقدم، ولا تكاد الشبهة تحل بالشبهة، فإنه إن امتنع أن يتجدد له علم ولم يكن سابقا امتنع أيضا أن تتجدد له رؤية لم تكن سابقة. فإن الحوادث عنه منفية، وأعلام قدرته ظاهرة جلية.

وأما استشهاده أيضا بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[3] فهو كمثل ذلك شبهة لاتحل بشبهة، وإلى أن يتقرر بينه وبين الخصم تفسير الآية فلا سبيل إلى الاحتجاج.

وأما سوقه كلامه في سجود الشجر والدواب إلى ذكره معجزة الأنبياء عليهم السلام وأن المنكر لذلك ناف لإعجازهم، ومنكر لقدرة ربهم، فقد وجدته قصد بهذا من التشنيع بابا، وعمد لأن كشف فيه حجابا، وبين هذا وبين ذلك أمد بعيد، إذ كان انبعاثها عابدة لربها ساجدة غير ما يظهر الله سبحانه فيها من أعلام النبوة لعصبة كانت لها منكرة وبها جاحدة. وأما قوله يجوز أن يكون معنى السجود من الجمادات أن من نظر اليها أداه إلى السجود.

(١) سورة العنكبوت ٢٩ /٣.

(١) سورة العنكبوت ٢٩ /٣.

(١) سورة الفجر ٨٩ / ٥.

فقد كنت سبقت فيما تقدم إلى الجواب أن الناظر إليها ساجد لا لاهى. وكلام الله سبحانه فى الإبانة عن سجودها بلا حقيقة بقى. وأما قوله قطعا على أن السجود المتعارف لا يرى من هذه الجمادات، وأن الكذب على الله سبحانه مستحيل فيجب أن يحمل السجود على الدلالة، فأقول الله أكبر! رجع الشيخ بهذا القول عن معتقده وأبطل سائر مورده وأجمل فيه ما نقص جميع تفصيله. ودمر على كثيره وقليله، فكفانى فى التكلم على ما بقى من الأخبار التى أوردها مؤنة وأولانى تخفيفا ومعونة، أين ما أفتى به أولا وهو قوله فى جواب السؤال عن الآية لأن المخلوقات لايعصين الله ولا يكفرن بوحدانيته ومن الناس من يعصى ويكفر، وأن ما قاله فى هذه النوبة ثانيا أن الله أمر الشمس أن تسير من المشرق إلى المغرب وذلك سجودها، والقمر بمثله وذلك سجوده، والشجر بإخراج الثمار وذلك سجودها، والجبال بإمساك الأرض وذلك سجودها، الدواب بحمل أثقال الخلق وهى تفعل ما أمرها وذلك سجودها، ألم يستوجب على اللوم على البدء، ألم يبسط فيه إلى لسانا ويدا، ألم يستقبل حكم الآية التى عليها مبنى المناظرة فى سجود الشجر والدواب بالدفع ألم يضع فى جميع ذلك الأخبار الموجبة الشاهدة به ما تقدم من الصنع، فأما وقد رجع عن ذلك إلى ما قاله آخر فإن الأمر ينقسم إلى ثلاثة أقسام أنصف منها فى اثنين وجار فى الثالث. وأما كون السجود المتعارف لا يرى منها، فله أن يقول إذ لو كان لكان تحت الحواس من السمع والبصر واقعا. ولو احتجب عنها لكان صنع الله سبحانه فى إنشائها لمعرفة الخلق والألوان والأصوات ضائعا. وأما استحالة الكذب على الله سبحانه فهو الأصل المعتمد والكذب قبيح لنفسه، تعالى إنه الواحد الأحد.

وأما قوله فيجب أن يحمل السجود على الدلالة فالكلام ها هنا منحل. واعتقاد معتقده مختل. فما يدريه ما الذى أراد الله سبحانه بقوله وعنى، وعماذا عبر وكنى، وإنما يصح منه على كلامه الحكم إذا حق به منه العلم، فأما من بنى على ما لا علم له به فإنما يبنى على شفا جرف هار، وحقيق أن يتبوأ مقعده من النار. وقد كان بلغ الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أن أحدا من الناس يرد على القرآن ويرميه بالثلب والنقصان، فقال عليه السلام لأحد أصحابه: «قولوا لهذا الراد أبلغت قصرى ما يشتمل عليه ظاهر لفظه من المراد فعنده يحق الرد ويصدق نحوه القصد» فبلغ الرجل ذلك فأصبح واجما، وارتد عن فعله نادما سادما، وتلك سبيل حكم من حكم بما لا يعلم عليه، ونظر من هو فاسد النظر إليه. والذى أختم القول به أننى أعد الشيخ معد العقلاء وأرمقه بعين الحصفاء. فلا أرضى له أن يعد دوى الريح وخرير الماء عبادة وحفيف الشجر طاعة، فإنه إذا أثبت

ذلك ثبت بثبوته كل سخف ولغو. ووجد بوجوده كل هذر وحشو، فما تنكر على من يقول إدارة الحبل لما يديره طاعته. وذرق الطير عبادة. وفي أمثال ذلك فساد الأصول واختلال العقول، حاشا لله إن الدين أبسق فرعا وأرسخ أصلا وأجمع للمحاسن كلها قولا وفعلا ومعنى جزلا من أن يزيف بهذه القاذورات التي تنفر عنها ذوى العقول السليمة وتشرد عن التمسك بعروته أهل الرأى والعزيمة وفيما أوردته كفاية لمن أنصف واعترف من الحق بما عرف. والسلام وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله الطاهرين وسلم تسليما.

أبو كاليجار يعتنق الدعوة الفاطمية

ولما جرت المناظرة المذكورة مكاتبة لا مشافهة لأنى تحرجت من المشافهة صونا للعرض مما يخلط بالمشافهة في المناظرة من سوء الأدب. ثم أنى قصدت أن يكون ما يدور بيننا من الكلام يتجسم بالكتابة لتبقى فائدته لمتأمله، فسكن جأش الملك واطمأن قلبه وقال: إنى أسلمت نفسى ودينى إليك وإننى راض بجملة ما أنت عليه. فاستقر الأمر على أن أجتمع به كل ليلة جمعة للمذاكرة والمفاتحة[1] فكنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضى هزيع من الليل، وهو يسألنى عن جميع ما يهجس فى نفسه. وكنت أجيب عنه جوابا يظهر أكثره تباشير الفرح فى وجهه. وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك. فربما حرك رأسه يعنى أنه جيد. فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل فى مسامعه مثله. قصدا منى لتندمه على فرطاته وإقامة الحجة عليه بكون الحق فيما كان يحسبه ضلالا. والرشد فيما كان يظنه غيا. وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يبتدىء بقراءة شيء من قوارع القرآن. ويثنى بباب من كتاب الدعائم، ويثلث بأن يسأل عما يريده فأجيبه عنه. وأختم بالتحميد والخطبة لمولانا الإمام خلد الله ملكه وله من بعده، ثم أنصرف إلى منزلى. ومن جملة ما كنت قررته معه أننى غير ناهية من استماع ما يريد استماعه من أى لسان كان من أى مذهب كان. ولكن يرجع به إلىّ. ويسألنى عما عندى فيه. فإن وجد الرجحان فيما عندى لزمة أن يرفض أقوالهم ويعمل بما هو أنجى له وأرجى لخلاصه معه. فكان الأمر مستمرا على هذه السيرة. يزداد فى كل يوم إعجابا بى ومحبة لى ومغالاة فى وصفى. حتى كان يفيض يوما فى ذكرى عند وزيره بهرام بن ماقية العادل المقدم ذكره رحمة الله تعالى: ويشتد فى مدحى فقال له الوزير: سبحان الله بينما

(١) نلاحظ أن الفاطميين ومن تبعهم لهم طرق خاصة فى التعليم فمبادئ الشريعة هى أول العلوم التى يلقيها الداعى للمستجيب وهى المقصود بها فى اصطلاح الفاطميين (المفاتحة).

كنت تبغض هذا الرجل البغض الذى يضيق عنه جلدك حتى صرت تحبه هذه المحبة التى يقصر دونها وصفك. إن هذه السعادة لا تنكر مثلها من سعادات أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام. فمن سعاداته أن حصل من القبول عندك ما انتهى إلى هذا الحد. فأجابه الملك بقوله: إننا أصحاب أذن ومهما وجدنا الناس مجتمعين على القدح فى إنسان ونسبه إلى الكفر والضلال فلا لوم علينا أن نصدقهم ونقبل منهم. ونحن نحمد الله الذى أيقظنا من سنة الغفلة. وردنا من الإقدام على الشبهة وصور فى نفوسنا أن القوم كانوا كاذبين مبطلين».

الندماء يكيدون للمؤيد

ثم أنى كنت أخذت معه فى تهجين الشرب والخلاعة إليه وتحسين ما يضادهما عنده. فكان ذلك غير واقع موقع الرضا من قوم كانوا ينادمونه ويجتمعون معه على هذه الضلالات، وكانوا يسرون النجوى فيما بينهم أن هذا الإنسان - يعنوننى - يريد أن يستأثر بالسلطان دوننا، ويأخذ به إلى أن ينحيه عنا، ويمنعه من الاختلاط بنا. وكانوا مشمئزين من هذه الحال، متقطعين من الغيظ والحسد والعداوة، وفيهم واحد عطل من الدين، عيبه للعيوب، متوسع فى الغش والدغل والخيانة. وكان هذا الإنسان ممن دخل فى الدعوة لا لله ولا عن عقيدة صالحة، فلما رأى الحالة فى اشتداد غضب الملك وقصده من قبل مصالحته لى وانفتاح الطريق بينى وبينه أراد أن يتقرب إلى قلبه بأن قال: إنى كنت من جملة من دخل فى أمرهم فلما رأيته كفرا وضلالا رجعت عنه، قول من يئس من كون الزمان بيننا قط جامعا ومؤلفا، أو أن يرانى على ذلك مبكتا وموقفا. فلما أخلف الله تعالى فى ذلك ظنه واجتمعنا قال لى الملك يوما يطرفنى: إن فلانا - يعنى ذلك الإنسان - أحد من قال إن مقالتكم كفر وزندقة. وأنه لما دخل فيها ووجدها على هذه السبيل مرق منها. فوقعت بين خطتين مظلمتين أحدهما الانتداب لموافقة الرجل على ما قرفنا به، وتكذيب وتنزيه عقيدتنا عما دنسها به، فأكون قد استخصمت منه شيطانا ملعونا لا يعقد به شيء من الغيلة والفساد، ولا آمن مما يفتحه على من كمين غدر لا ثبات على مثله مع كونه قريبا من السلطان، متمكنا منه مقبول القول عنده والأخرى التغاضى عنه والتغافل عن تبكيته، فكأنى اعترفت بذنبى ولبست على شبهة ثوبى وقررت فى نفس الملك أن الذى قاله أو بعضه صحيح، فاخترت من البابين كشف القناع معه المانع من أن يدخل على قلب الملك عاجل شبهة، وقلت أكفى

نفسي هذه المعرة عاجلا، ثم أتهدف لما يكون أجلا. فقمت بموافقته وأقمت البرهان على زورة وكذبة لكنني دست منه ذنب الثعبان برجلي، وفتحت باب الفساد على نفسي. فجعل يتعقبه فيّ بكل حيلة ويلقاني بكل مكيدة. ويقول إن الذي لزمه (يعنيني) من باب التقشف والتظاهر بالستر والسداد تدليس على الناس وخديعة، والدليل على هذا أن صاحبه الذي ينتمي إليه بمصر وهو متجاهر بكذا وكذا وأنه يركب في العشاريات ويعلن بفعله على رؤوس الأشهاد. وجعل يحضر واحدا واحدا من الغرباء الذين سافروا إلى مصر فيسألهم عن هذه الحالة فيشهدون كل ذلك تغييرا لقلب الملك وتوهينا لرأيه وردا عما هو بصدده، وكنت أقوم بالمحاجة عن ذلك والدفع بما هو أحسن، على أني كنت أعلم أن سماعه مما يدخل حيرة في قلب الملك وضعفا في عزيمته.

وجرى بيني وبين الملك يوما فصل عجيب وقلت: إني أرى قوما تعاونوا على فساد حالي عندك، وأطمعتهم نفوسهم أنهم بتسوقهم يبلغون المبلغ الذي يريدون فيما يجعل حظي عندك منقوصا وعقد أمري محلولا. ويريدون الحال في الوحشة جزعا، والأمر الذي يشرعون فيه هو باب الممتنع. وضربت له مثلا وقلت: ينبغي في الأمثال السائرة أن رجلا كانت صنعته كسر الحطب من الصحاري ونقله إلى المدينة وبيعه، وكان ذلك معاشه وكان يخلو من شظف عيش ومقاساة ضر. وأنه أتى عليه في خلل الشتاء يوم في غاية البرودة وكلما هم بالتوجه لطلب معاشه ثنت وجهه وصدته البرودة، ولم يجد في بيته مع ذلك ما يقتاته ويقتات أطفاله. فأجهدهم الجوع وقالوا يارجل نحن مضرورون بالجوع فجالدنفسك وأبلغ طرف صحراء المدينة ولا تبعد عسى أن تظفر بشجرة تكسر منها مقدار ما يشترى بثمنه لنا طعاما نطعمه. فقام الرجل ولم يبعد حتى لحق مثل ما وصفوه من شجرة فزحف إليها بفأسه للقطع، فنودى منها لا تقطع وانظر كم يحصل لك في كل يوم من كسبك هذا فاحضر كل غداة وخذه هنيا مهنئا قارا وادعا قد كفيت التعب والنصب. فقال الرجل: محصول كدي وكسبي في اليوم درهمان أو ثلاثة. قالوا: قد حصل لك ذلك من غير تعب. قيل فكان الرجل يباكر الموضع في كل يوم ويأخذ القدر الميسر له فينفق البعض ويدخر البعض حتى صلحت حالة واستقام أمره. وحملته الجدة على مركب البطر وقال في نفسه: ما لي أغدو كل يوم إلى هذه الشجرة فأخذ منها درهمين أو ثلاثة على سنة الكدية، وما أظن إلا أن تحت الشجرة كنزا مكنوزا وقد تسلط عليه جني أو شيطان يمانعني عنه. ولو توصلت إلى قطع الشجرة واستخلاص المال من تحتها وتحصيله في منزلي مكان التوجيه، كل صبحة

لدرهم ودرهم آخذه فجعل فى نفسه أنه يأخذ فأسه غداة غد ويمضى إليها ويخرج الكنز من تحتها. فلما كان بالغداة تجهز على هذه النية فعَلا الشجرة بفأسه كى يقطعها. فقيل له: يا إنسان شجرة أفضت بك من المسكنة والمجاعة إلى الثروة والحال الحسنة لم تكافئها بالقطع؟ ولم تعلوها بالفأس؟ فقال: اغربوا عنكم هذا الكلام إنه لابد لى من قطعها لاستخراج ما تحتها. فقيل: إذا كان لابد من ذلك فدونك وإياها. فلما رفع يده بالفأس ليهوى بها فى الشجرة جفت يده فى الهواء والفأس فيهاوبقيت لا تنزل ولا تضم، فقيل: يا جاهل إنما كان لك على قطعها السبيل حين لم تعارفها ولم تعرف الخاصية التى فيها. وبعد معرفتك بها فلا سبيل لك عليها. وكذا أنت أيها الملك فلا سبيل لك علىّ بعد أن عرفتنى وعرفت خاصيتى.

وجرت بينى وبينه فى حال القوم الذين تساعدوا على إيذائى منافرة فى وقت آخر وقلت: ما ينجينى منك لا سخط ولا رضى. فلقد كنت علىّ إلبا قبل المعرفة قاصدا لروحى بلا بصيرة ولا بينه، وكان يتجافى جنبى عن المضجع رهبة من بغتاتك وخوفا من سطواتك. فلما سهل الله تعالى وأيقظك من رقدتك وجمع بينى وبينك ففعلت بك ما لم يفعل بك والدك – أعنى من طريق الإرشاد والأخذ به من الاختلال فى دينه إلى السداد – صرت لا أتخلص من أذى من هم حولك ونصبهم لى أشراك الغوائل ولقائهم إياى بالخدع والمخاتل. فاستلب هذه اللفظة التى هى قولى «ففعلت بك ما لم يفعل أبوك» مستلبهم وقبحها مقبحهم. وهولوا القصة فى نفسه وقالوا: هذه لفظة ما لقى بمثلها أحد سلطانا ولا أدار بها يشبهها لسانا. وانتهت الحال به إلى إظهار موجدة ونكير زال بهما رسم الاجتماع فى ليالى الجمعات وتغير مدة ثم رجع. ولما عوتبت على بشاعة الكلمة المقدمه ذكرها استظهرت فى الجواب بعذر بلغنى عن ابن الاسكندر فأتيت به مثلا. وقلت بلغنى أنه كان للاسكندر ابن يعزه ويكرمه ويرى الدنيا بعينه. فلما انتهى به العمر إلى حد التعلم والتفهم اختار له أفضل الناس وأعلمهم، فجعل يعمله من كل شىء ويلقى إليه كل حكمة. فلما شب الصبى حوى من العلوم والحكم الشطر الأوفى جعل يتقاعد بأبيه ولا يرى له الرأى الذى يجب، وكان توفره على إجلال معلمه وتوقيره من دون أبيه حتى كان لا يقوم لأبيه إذا حضر قائما ويقول لمعلمه مكرما له ومعظما. فنقم الإسكندر هذه الحالة من فعله ونسبه إلى سوء الأدب. واستدعى المعلم ليعتب عليه ويقبح إليه فعل ولده فقال المعلم: أيها الملك ليس ولدك بالمخزى فى عقله ولا الناقص فى فضله ولا القاصر عن القيام بعذر فعله. فله

عن مقتضى ذلك فعسى أن يصدر منه جواب يغنيك عما تسألنى عنه فقال: لا بأس بذلك. فاستدعى الغلام وقال: يابنى إنما أنت بى وقد عرفت ما أوجبه الله تعالى عليك من حقى فلم تتهاون بخدمتى وتخدم معلمك أكثر مما تخدمنى فقال: أيها الملك ما كان قصدك بالفعل الذى اقتضى وجودى فى هذه الدار المحفوفة بالآفات والعاهات إلا لذة تقضيها. فتلذذك فى هذه البئر أوقعنى وإلى فخها دفعنى. وإننى لأرجو الخلاص مما أوقعتنى فيه على يد معلمى فمن أجل ذلك انخضع لمن أرجو خلاصى على يديه دون من دفعنى إلى ما أنا مدفوع إليه[1] وكذلك فأقول أيها الملك إننى لك بمنزلة ذلك المعلم من ابن الإسكندر. وما قلت الذى قلته إلا على هذه الجهة. فإن وجدت مجالا لقبول العذر فيه من حيث العقل قبلت. وإلا نسبته عنى إلى حشف أدمغة المعلمين الذين هم باختلال العقل مشهورون وفيه معذورون. وعند ذلك عملت قصيدة مسمطة ضمنتها هذا الذكر. وذكرت ما كنت ألحف عليه بالسؤال فيه والمطالبة به من مكاتبة الحضرة النبوية بمصر وكانوا يتشققون من الغيظ لأجله ويذكرون أن قصدى به الإشاعة بكونه خادما لجهة ومطيعا لجهة من حيث لا حاجة به إلى أن يكون بعد كونه مالكا يصير مملوكا وعقب كونه متبوعا يصير تابعا. وأن غرضى تهجينه والوضع منه والرفع من صاحبى. ثم أن أبغض إليه الرعية بأجمعها وأزهدها فيه وفى أيامه وأوجس منه الخليفة ببغداد الجارية سنته آبائه أن يكونوا إليه بوجوههم متوجهين ولذكره فى الخطبة مقدمين. وأن كل ذلك مما يشوش عليه ملكه ولا يضمن شيئا من صلاح شأنه. وضمنتها أيضا ذكر ما كان المارق المقدم ذكره ألقاه إليه ووسوس به صدره أن الذى يستحليه من كلامى فى العقليات إنما هو استراق من الفلاسفة. والقصيدة المسمطة المذكورة هى ما أثبته وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت:

باسمك يالله يا رحمن ... ويا رحيم يبدأ اللسان
ثم يثنى بعده بالحمد لك ... يا عادلا فى حكمة ما أعدلك

---

(١) شبيه بهذه القصة ما جاء فى نزهة الألباء ص ١٣٠ أن المأمون وكل الفراء ليلقن ابنيه النحو: ففى ذات يوم أراد الفراء أن ينهض إلى حوائجه. فابتدرا إلى نعل الفراء ليقدماها له فتنازعا. أيهما يقدمها له، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة. وكان للمأمون وكيل على كل شىء خاص، فرفع ذلك إليه فى الخبر. فوجه إلى الفراء واستدعاه، فلما دخل عليه. قال له: من أعز الناس؟ فقال: لا أعرف أحد أعز من أمير المؤمنين. فقال: بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين، حتى يرضى كل واحد منهما أن يقدم له فردا. فقال: يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك. ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها. أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها.

وبالصلاة دائما على النبى ... مثلث الطهر الهمام العربى
محمد أشرف من ضم حشا ... وخير مخلوق على الأرض مشى
وبعده على البطين الأنزع ... نجل أبى طالب السميذع
زلزلة الساعة مولاى (على) ... ومن به الدين برهان جلى
طود الهدى ومنبع السعادة ... ومن له لو ثنيت وسادة
قضى من التوراة فى أهليها ... فصلا يزيل اللبس والتمويها
كما من الانجيل فى أهليه ... كشف عنهم عشوات التيه
واستخلص المستور من مسطور ... مترجما عن صحف الزبور
وبالقرآن الحق فى الناس نطق ... نطقا يجلى صبحه كل غسق[1]
كذاك قال المرتضى والمنبر ... من نوره لما علاه أنور
من ذا على ما قاله يعترض ... إلا الذى فى القلب منه مرض
صلى عليه وعلى أبنائه ... رب هم صفوة أوليائه
قوم هم لله فينا نعم ... جاحدهم أفضل منه نعم
وإذ مضى هذا (فأما بعد) ... فإننى لآل طه عبد
مشتهر فى حبهم إخلاصى ... مجردا أرجو به خلاصى
كم قد دهتنى فيهم من داهية ... وحدقت فىّ قلوب قاسية
فكلما للحرب نارا أوقدوا ... أطفأها ربى، فربى أحمد
وأكثر الشيعة أهل الدعوى ... لم يهو غيرى منهم فى مهوى
ما أحد فى آل طه قصدا ... غيرى ولا من أرضه قد طردا
ما فيهم من لحقته ضغطه ... يوما ويوما عارضته خطة
وإنهم على اختلاف الفرق ... وقلة الثبات عند الفرق
لا يجدون قدوة من عُلمًا ... قد نصبوا لآل طه علما
بين قرون عصبة النصاب ... فى دولة الأزلام والأنصاب

---

(١) جاء فى كتاب الفترات والقرانات لجعفر بن منصور ص ٥٧ (نسخة خطية بمكتبتى): قال عالم الأمة وربانيها صلوات الله عليه: «لو ثنيت لى وساد وجلست عليها لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم ولولا أن يقال إن ابن أبى طالب ساحر لأخبرتهم بما كان وبما هو كائن إلى يوم القيامة مما علمنى رسول الله.

أجل فكل بى قد استجنا ... إذا رأى ليل اغتساق جنا
أعرب فى الخوف إذا ما أعجموا ... وأصدق الإقدام حين أحجموا
ثم إذا ما الخوف يوما ذهبا ... اتخذوا ثلى وسبى مذهبا
وسلقوا بألسن حداد ... أثبتهم جأشا لدى الجلاد
لو أننى تركت بالكفاف ... عددته من أكبر الإنصاف
ما إن أرى الزمان لى بالمنصف ... والموقف الأشرف بى لم يعطف
ولم يعد لى النظر الشريف ... كما بدأ والكرم المألوف
ولم تعد لعيشتى الحلاوة ... بعود ذاك البر والحفاوة
يا مالكا فى الجسم والنفس ملك ... إنك أنت الشمس والملك الفلك
يا طلعة الخير ويا شخص الكرم ... وطالع السعد ومصباح الظلم
من ذا رأى طلعتك الميمونة ... فلم ير السبع الطباق دونه
عماد دين الله أنت المنتهى ... فى كل ما باهى به ذوو النهى
خلْقا وخُلُقا تبعا أسنى الحسب ... كالدر ما بين اللجين والذهب
جعلت شاهنشاها المعظما ... من نائبات الدهر لى معتصما
يا كاليجار فالإله جاره ... وفى ذراه وحماه داره
المرزبان والزمان عبده ... كما الكرام الكاتبون جنده
والمصطفى وآله عماده ... حقا كما ولاؤهم عتاده
يا ملكا مطهر الأخلاق ... مشتهرا بالفخر فى الآفاق
يا غاية السؤدد والنفاسه ... انظر فأنت صادق الفراسة
هلا ترانى فيك إلا غاليا ... يفرط فى حبك لا موالیا
فما لحقى عندكم يُضَيَّع ... وما لقولى صار ليس يسمع
أخادم مثلى يضاع هكذا ... كما يطول نحوه باع الأذى
لقد نبا بى مقعدى إرجافا ... يجحف بى طول المدى إجحافا
من قائل يقول كيف شانه ... أما علا. فلم هوى مكانه
وقائل يقول قد تنكر ... سلطانه لكفره إذ ظهرا
وقائل يقول قوم ما رضُوا ... فعللوا قصته وأمرضوا
كل بنا من حيث يهوى يشمت ... فبعضهم يمحو وبعض يثبت

هذا الذى يلسعنى من خارج ... من ناصى كاشح وخارجى
وإن لى من داخل البيت ضنى ... يسأل عنى البعض بعضا ماجنى
ياليت شعرى ما الذى منه بدر ... من خلل نَفّر عنه من نفر
ألم يكن حسن القبول قابله ... فما الذى قد قطع المعاملة
إنى لفى أمثال هذا مرتبك ... فنجنى إنى بالله وبك
يا ملك الآفاق عطفا عطفا ... تثنى به عنى الأعادى عطفا
إن كنت أذنبت فأنت تعرف ... وليس ما تعرف عنه مصرف
إن كان ذنبى ما جرى ببسا ... ألم أقم عذرى فطبت نفسا
خلال أيام لنا بالعسكر ... فى المجلس الشاطىء فوق المنظر
والمثل المضروب بالإسكندر ... وبابنه علامة فادكر
إذ قلت ما جاوزت فيه واجبا ... فلا تكن من واجب مغاضبا
وإنه إن كنت ترضى المعذرة ... وتقتضى لما نقمت المغفرة
فاغفر، وإلا فاعذر المعلما ... إذا رأيت عقل منثلما
وإننى كما ترى معلم ... وهاكم فى العقل منى لمم
وإن تكن إذ قلت كاتب مصرا ... تحمل من ذاك علىّ إصرا
فعدلك الشامل حسبى من حكم ... وليس لى إلا الرضا بما حكم
أكان قولا منكرا أو زورا ... أم كان حجرا ذاكم محجورا
أم كان لى غير الصلاح من غرض ... أم لسوى رضاك فيه معترض
إذ قلت كاتب حضره ابن فاطم ... واسلك بما فيها سبيل الهاشمى
فليس مثل المرتضى عباس ... ولا ابنه إلى ابنه يقاس
وإن آباءك أيضا كتبوا ... وأظهروا الود له واقتربوا
لا سيما وربعه قد أشرقا ... بخبر منى إلى مصر ارتقى
فيما له الرأى العلى وفقا ... دام نظام سعده متسقا
وهو الذى أرسلت فيه رسلا ... من بلد الأهواز عاما أولا
وجئت فى بابهم مستأمرا ... فقلت دمت ناهيا وآمرا
ووجهك الميمون ذو تهليل ... ما تكتب الآن خلاف الأول
فقلت فضلا من إله مفضل ... ويمن جد لمليك مقبل

وقلت إن بعد هذا نكتب ... بما به للود يقوى السبب
وإننى الآن على انتظار ... لعودهم بمنتهى الإيثار
وبالجواب بالدعاء الصالح ... وشكر مجدود من المنائح
لآل طه فى أجل ناصر ... لهم ووجه للزمان ناضر
الملك الصاعد نجم الديلم ... بملكة فى الأفق فوق الأنجم
فإن عددت هذه الجناية ... فقد بلغت فى العقاب الغاية
أرى نزولا عرضا على ارتقاء ... لا البشر ذاك البشر بى ولا اللقاء
ولا الكلام ذلك الكلام ... ولا المقام ذلك المقام
وأن ما أسلفته من خدمى ... وخلتنى قدمت فيه قدمى
أصبح نسيا كله منسيا ... حتى كأنا ما صنعنا شيا
وليس ذاك بالذى يضاع ... فمثله فى السوق لا يباع
مصدره عن مشفق نصوح ... جاد به وهو شقيق الروح
لا منعه تمنع حين يمنع ... ولا غنى ينفع يوم ينفع
فما لأعمالى غدت مختلة ... من أجل أن ساءتك منها خله
وحسناتى قد عفت آثارها ... لخصلة منها يرى إنكارها
ألم أكن أنطق بالبيان ... فى الجمع بين العقل والقرآن
ألم أكن جلاء كل ظلمة ... من مشكلات الدين مدلهمة
ألم أكن أحل كل رمز ... عنه الدهاة تنثنى بعجز
أغذى العقول بالعلوم الشافية ... لكى تنال فى المعاد العافية
فلم منعت عقلك الشريفا ... يا ذا النهى غذاءه اللطيفا
هلا منعت ما اشتهاد الجسم ... فمنعك العقل الغذاء ظلم
أصرت تأبى نفعه لضرى ... تمنعه الخير لقصد شرى
كم قد جمعت للهوى من عدة ... ومن عتاد بامتداد المدة
فمن ترى لعقلك المجرد ... من مرشد هاد له مسدد
يكسبه عزا من القرآن ... يفنى الزمان وهو غير فإن
ويعقد المجد له مؤبدا ... إذا مضى المجد شعاعا بددا
لا تطرحنى إننى ذاك الرجل ... سابق آثارى على هذا يدل

ولا تبع تحقيق شيء يعرف ... بشبهة يأتى بها محرف
يا ملك الملوك يازين الزمن ... لا تطرحنى إننى غالى الثمن
أنا الذى من فضل آل أحمد ... فى العلم تعلو كل ذى يد يدى
أطبّ فى مصباح المعاد ... ما طب جالينوس للأجساد
قد شيبت منى العذار العفة ... مازالت من ميزانها فى الكفة
ما شاق قلبى وتر أو رمز ... ولم تدب فى عروقى خمر
عبادتى طول الزمان عادتى ... ما ملكت يد الهوى مقادتى
أعاند الحرص الخبيث والطمع ... ما لهما طبعى مذ كان انطبع
فلا يغرنك قول الحسد ... من كل أفاك أثيم معتد
وقول من يقول من أهل السفه ... إنا نقول قول أهل الفلسفة
وها هم فسلهم لتعلما ... هل ينصبون فى القُرَان سلما
لقصة واحدة أو دونها ... بموجبها العقل يوردونها
فكيف ما لم يعلموه علموا ... جار الأولى أفتوا بما لم يعلموا
يا ضعف ما بالجهل أسوه ... أعلمونا وهم نسوه
إن القرآن عندنا أسنى نسب ... والفلسفى ما له فيه نشب
نجمع بين فضله والعقل ... ونقمع الجور بسيف العدل
يا أيها الهمام هذى قصة ... مما يضم الصدر لى من غصة
رفعتها تلبس لبس النظم ... والغرض المقصود فيه همى
تكفير سيئاتها بطولها ... وبعث حسن الرأى فى قبولها
فاسمع وانصف والزمان الصفا ... لك الورى ومن قذاه قد صفا
إنك إن فتحت لى عين الرضا ... لم تلف إلا خدمة لى غرضا
يقصر عنه شأو من دونى عسى ... تميز اليقظان ممن نعسا
ولم تجدنى فى وجوه الخدمة ... من غير ذا إلا وكيد الحرمة
حاشية فى زمر الحواشى ... لا أستحى فيهم ولا أحاشى
كويتب ما إن أقول كاتب ... فإن قدر كتبْتى مقارب
وخاطب إن ذكر الخطاب ... من خطبى لا يأنف المحراب
وإن أدلّ واحد بباسه ... فى شدة وعدة من ناسه
فجدك الميمون مضمون له ... طول الزمان النصر من عند الله

وبأسنا محصوله قليل ... منه لسان فخرنا كليل
وإن يكن مع ذا يحق الفخر ... به فإنى فى الظلام الفجر
فعنده لا شك ناسى أكثر ... لطفا من الله وبأسى أقهر
هذا كذا وإننى إلى ورى ... حرمت بين النظراء النظرا
من غير ما ذنب قد اقترفته ... ودون عيب هو لى عرفته
يازمنى لو لم تكن خوانا ... ما كنت أغلو هكذا مجانا
ويشتوى بالجمر يا شر الزمن ... من فيهم أزرى بمن إذ قلت من
فالغير فى جانب بر يسلم ... وأنا فى وادى الجفاء أسقم
يا مالك الأرض لسان رن ... عن واصب بقلبه إذ أن
ثم إليك هاجرا واستأمنا ... أبلغهما من القبول المأمنا
آمنك الرحمن مما تحذر ... ودام وجه الأرض منك يزهر
والعدل فيك مشرقا آفاقه ... والتاج منك دائما إشراقه
والملك فيك عاليا مناره ... والدين منك لامعا أنواره
ودام لى ظلك ذخرا باقيا ... كما دعائى لك حرزا واقيا
والحمد لله ولىّ الحمد ... ذى الطول عز جاره والمجد
والصلوات الطيبات أجمعا ... على الأولى قدرهم قد رفعا
محمد وآله الأبرار ... والأكرمين الصفوة الأطهار
أئمة العدل هداة الخلق ... معادن الفضل شموس الحق
منابع العلم مفاتيح الحجى ... مرابع الفهم مصابيح الدجى

نجزت والحمد لله والمنة وصلوات على محمد وآله وسلامه.

واتفق فى خلال هذه الأحوال موت الوزير العادل المقدم ذكره رحمه الله تعالى وانتقال الأمر إلى من كان يعضد الحسدة والمتظاهرين كانوا علىّ لكونه ناقصا فى نفسه خائفا منى لتمكنى من السلطان[1] ظانا أننى من جملة من شره نفسه والعياذ بالله لطلب رتبته ومكانه والله تعالى يعلم أننى ما كنت من هذا ولا إليه. فصاروا يدا واحدة فيما كانوا عليه وكنت لا أفكر بهم اشتدادا منى بمعونة الله تعالى إذ كنت مجاهدا فى سبيله، وقائما بنصرة

(١) الذى ولى الوزارة بعد الوزير العادل هو مهذب الدولة أبو منصور هبة الله بن أحمد الفسوى (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤٤ طبعة أبريل سنة ١٨٦٣).

آل رسوله صلى الله عليه وسلم لا يستفزني حرص ولا طمع وإنني عما تبسطوا له فيه من طلب دنياهم متجمع.

حادث مسجد الأهواز

فقضى من القضاء أنني توجهت إلى الأهواز وكنت قد احتويت على مسجد شعث بها كان تأويه الصوفية وأهل النصب احتواء على نصبة عجيبة لها قصة مفردة. فعكفت على عمارته إلى أن جعلته بهجة للنواظر. وكتبت على دور محرابه أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين والحسن والحسين فصاعدا إلى جعفر بن محمد وإسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل عليهم السلام ووصلتها باسم المهدى والقائم والمنصور فصاعدا إلى مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين عليهم السلام[1] ذهبا على ألواح ساج يكاد يخطف الأبصار من لألائه وحسنه من المدى البعيد. فرأى أهل تلك المدينة من ذلك ما لم يعهدوه. وشاهدوا منه ما كادوا يكذبون عيانهم فيه. ثم لم أكتف بذلك حتى أقمت الأذان «بحيّ على خير العمل» من فوق سطحه فبلغت القلوب الحناجر وصادفت فيها مثل وقع الخناجر. فوقفت وتركت مديدة ثم قلت في نفسي ما قال القائل:

انتهز الفرصة إما مرت ... فربما طلبتها فأعيت

وقلت لمن كان يحضرني من الديلم إني أريد إقامة صلاة الجمعات في هذا المسجد مشفوعة لمولانا أمير المؤمنين المستنصر بالله صلوات عليه فهل لكم من مساعدة عليه. فقالوا: «افعل ما ترى». فلما كان يوم الجمعة أمرت عشرين نقيبا يصعدون إلى سطح المسجد ويؤذنون «بحي على خير العمل» فقامت ضجة في المدينة شغلت الناس عن المسجد الجامع، وفاض الديلم عن الموضع فيضا حتى ضاقت المنافذ والمسالك بدوابهم ونجائبهم وغلمانهم. وكان الأمر جاريا على هذه المثالة في كل جمعة والدنيا تموج بأهلها خوضا وكلاما. كيف كان سبب هذا؟ وما يجري هذا المجرى. وكان بالأهواز قاض يعرف بابن المشترى[2] كان أبو كاليجار أرسله إلى الخليفة

---

(١) نلاحظ أن المؤيد أغفل ذكر الأئمة المستورين الذين جاءوا بعد محمد بن إسماعيل وقبل عبيد الله المهدى. ولعل عدم ورود أسماء الأئمة المستورين في كتب الدعاة مما قوى الشبه ضد نسب الفاطميين. ولا سيما عند المؤرخين الذين ينكرون نسبهم إلى الرسول. وقد اختلف المؤرخون في أسماء المستورين. ولكن أكثر المؤرخين الإسماعيلية قالوا أنهم عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل. فأحمد الوفي بن عبد الله. فالحسين الزكي بن أحمد.

(٢) هو أبو الحسن عبد الوهاب بن منصور بن المشترى قاضي خوزستان وفارس. وكان شافعي المذهب توفي سنة ٤٣٦ هـ (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦).

ببغـداد فحمل على يديه اللواء واللقب، فوقـع فى الحريق من هذه الأحوال وكتب إلى بغداد كتابا ينعى فيه خلافة بنى العباس ويذكر دثور ذكرهم فى الرسـوم الدائرة، ويشـير عليه أن يتلافى نفسـه قبل فوت التلافى، وأن يرسـل إلى أبى كاليجار رسولا، وأن يصانعه على يديه بأنفس ما يجد إليه سـبيلا، وأن يقترح عليه بتسـليمى فى يد رسوله بالحديد مكبولا ويجعله على ثقة بأنه إن قعد عن الإجابة إلى ملتمسـه دعته الضرورة إلى مكاشفته واستنفار التركمانية عليه واغرائهم بحيازة ملكه ومملكته. وقال إن أبا كاليجار تشف إلى الدنية نفسه عند الرعب. ويرتاع عن غير روع قلبه عند الرهب، فما كان إلا قليلا حتى سمعت بحصول ابن المسـلمة[1] بالبصرة رسولا للخليفة كان فى ذلك الوقت، وهو وزيره فى هذا الوقت لما نجح سعيه باقتلاعى من تلك الديار وقصدى بالتشرد منها والانتشار، والذى تصدى لمكاتبة الصنهاجى[2] ومهاداته والتحريك من ساكنه. والذى شرع شروعه فى نبش قبر موسى بن جعفر ومقابر قريش[3] وكل ما يعزى به إلى الخليفة من سـوء الأفعال فإنه سـهم من كنانته وقائم من تحت رأسـه، ولما حصل بالبصرة نزل على واليها وهو ضد شـاق، فشفع طاعون دبيلة وأشفق من دخول الأهواز وأنـا مقيم بها (حذرا على نفسـه من الديلم أن يفتكوا بـه) والأمر الذى ورد من أجله تتداوله الألسن فى الأسواق والمساجد، فنزع أن تبدر نحوى بادرة منه وراسلنى من البصرة على لسان بعض الرؤسـاء رحمة الله معتذرا ومتنصلا يقول: إنه بلغنى تكاثر الأراجيف على بكونىٌ فى شـىء مما يتعلق بك بك واردا، ونحو مضرتك قاصدا، وإننى علم الله برىء عما أنسـب إليه فإنـى أعلم إنك لجمهور الديلم يد ولسـان. وما كنت من قلـة العقل بحيث أتصدى لمزاحمة الديلم جميعا بمنكبى. وأجعل سـبيل مباغضتهم سبيلى ومذهبى، ولو أن مرسـلى كلفنى ذلك لما تكلفته واسـتعفيت منه، ولكنى وردت لتعهد اقطاعـه بالبصرة ومراعاة خصائصه. فعلمت أنه كاذب آفك وأن الذى بالبصرة له على ما هو بصدده مشارك، وأنه يهديه لما يدل به على

---

(١) هو رئيس الرؤساء على بن الحسين بن أحمد بن محمد وزير القائم العباسى. ولد سنة ٣٩٩ واستوزر سنة ٤٣٧ وقتله البساسيرى سـنة ٤٥٠هـ وقد كان هذا الوزير من ألد أعداء المؤيد صاحب هذه السـيرة فكثيرا ما سبه وهجاه فى شعره ونعته بابن دمنه لخبثه ومكره (النجوم الزاهرة ج وابن الأثير ج ٩).

(٢) هو المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الحميرى الصنهاجى ولاه الحاكم بأمر الله سـنة ٤٠٧ وتوفى سنة ٤٥٤هـ وقد خلع طاعة الفاطميين سنة ٤٣٥هـ وحمل أهل مملكته على الاشتغال بمذهب مالك وترك مادونه من المذاهب. وقال ابن الأثير إن ذلك إنما كان سنة ٤٤٠هـ.

(٣) كان هـذا الحـادث فـى صفـر عام ٤٤٣هـ وتجـد تفصيلها فى (ابـن الأثـير ٩ ص ٣٩٤ طبعة بريل سنة ١٨٦٣. والنجوم الزاهرة ومرآة الزمان).

مقتلى سهمه. ويشده فى مكاتبة أبى كاليجار بما ينفذ فى سمه. وأن القوم الذين بحضرته خصوصا المارق المقدم ذكره يجتهدون فى التحطيب على، وينتهزون الفرصة فى القدح فىّ. فقمت متوجها إلى حضرته بشيراز وإذ الأمور أبرمت، وعقدة الفساد أحكمت. وسمعت أن الكتاب نفذ إلى جماعة الديلم بالأهواز يؤمرون فيه بالتطريق لابن المسلمة فى دخولها وترك معارضته فى العبور بها. إذ كان يرد فى مهم من مهمات الخليفة لا يتعلق بأحد سواه.

مناظرة المؤيد مع العلوى الزيدى

فاجتمع بأرباب المناصب فقالوا: ها ذاك فلان - يعنونى- ورد. ورسول الخليفة على الأثر، فكيف الحيلة عليه فى أن نخفض منه. وما نتعلق عليه بحجة جناية جناها ولا جريمة اجترمها، فما الذى نلقاه به وما الذى نقول له ؟ إن هذه والله حيرة ودهشة وشىء لا ندرى كيف يكون عقباه. وكيف يكون تخلصنا عند الله منه. فقال المارق: أنا أحتال عليه حيلة لطيفة بباطل نجهزه إليه فى لباس حق. قال: وما ذاك؟ قال: فلان العلوى القائم الليل، الصائم النهار، الذى هو زيدى المذهب يختلط بالصوفية والقصاص وأصحاب الحديث نكلفه أن يطلب مناظرته بين يدى الملك على مذهبه، وتجزم أنت أيها الملك عليه بمناظرته. ونقيم فى الوسط قوما يعدون عليه فى نوبته ويقطعون خاطره. ويفجرونه وهو على ما تعرفه قوى المنة. عزيز النفس، لا يراقب أحدا. فيحمله الغيظ على الاشتطاط فى كلامه، والخروج به من آداب المناظرة، فنجعله حجة عليه فى تبكيته. والوضع منه. ونسلم من كلام الديلم أيضا وتشنيعهم علينا، إذ كان المناظر له علويا مشهورا بالسداد والستر لا عاميا ولا وضيعا. فاجمعوا أسرهم على هذا. فأتتنى رسالة الملك بعد هذا التقرير بيوم أو يومين بأن فلانا العلوى يدعوك للبراز فى مناظرته على مذهبك. وأننى مؤثر لاجتماعكما عندى على ذلك. ومريد لسماع ما يجرى بينكما فى كل نوبة. فقلت سبحان الله، لا تعرب بعد هجرة. ولا مزيد على ما دار بينى وبين خصومى من مناظرة وقف الملك على مسطورها وعرف تقواها من فجورها. ولكن هذا عنوان رأى فاسد وسوء لا محالة علىّ وارد وأفوض أمرى إلى الله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت.

فوقع التعيين على ليلة من الليالى للاجتماع بحضرته والمناظرة. وكان ذلك فى أوائل شهر رمضان. فحضرت وحضر العلوى بعدى، فقلت له: «أيها الشريف إنى أريد أن أحدثك بحديث فى نفسى قبل المناظرة». قال: «وما هو؟» قلت: «بلغنى أن علوى غزا فى

جملة الغزاة الروم. فأحيط بهم وملكوا وفى الحبوس والمطامير زموا فلما كان يوم من مشاهير أيامهم التى يعظمونها ويقربون القربان عندها. أخرجوهم فأطلقوا الأسرى إلا العلوى فإنه ضرب ضربا وجيعا. ورد إلى محبسه. حتى حال الحول. ورجع مثل ذلك اليوم فأطلق أسارى وعملت به العادة فى إيجاعه ضربا ورده إلى الحبس. وكان تأله من اشتباه وجه ذلك عليه وموجب فعله به أشد من ألم الضرب والمكروه الذى كان يناله. وتمادى به الأمر إلى اليوم الثالث من السنة الثالثة. فحين رأى المثالة فيه محفوظة والسنة بضربه ورده فى الحافرة قائمة استغاث. قال: «يا قوم دلونى على وجه اختصاصى بهذه العقوبة من بين قوم كانت قصتى وقصتهم واحدة فأولئك مُنَّ عليهم بالإطلاق وأنا باق يجدد علىّ العذاب فى مثل كل يوم أطلقوا فيه من الوثائق. ثم اضربوا رقبتى بعد أن تشعرونى مقتضى قصتى. فحمل إلى الملك أو بعض أصحابه وسأله: مَنْ الرجل؟ فقال: علوى.قال: فما معنى قولك علوى؟ قال: المعنى فيه أننى أنسب إلى على بن أبى طالب. قال: ومن على بن أبى طالب؟ قال: أخو محمد الذى هو رسول الله وهو وصية. قال الرومى: فكيف جرى حال علىّ هذا بعد موت محمد؟ قال: قتل. قال الرومى: قتلناه نحن؟ قال: لا. قال: فمن؟ قال: المسلمون. قال الرومى: أو كان له أولاد وذرية؟ قال: نعم وأجلهم الحسن والحسين اللذان كانا ابنى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الرومى: فما قصتهما؟ قال: سمّ الحسن وقتل الحسين وسبى أهله وذريته. قال الرومى: أنحن الفاعلون ذلك بهم؟ قال: لا. قال: فمن! قال: المسلمون. فقال الرومى: فأنت يا إنسان. طوائلك فى المسلمين وأبوك وأهلك من قتلاهم. وأتيت تغزو الروم الذين لا جناية لهم عليك. لأى معنى؟ فهذا وجه معاقبتك التى سألت عنها وتحيرت لاشتباه وجه موجبها. وكذلك أنت يا شريف وطوائلك مع القصاص الحشو الذين يحشوهم المسجد الجامع. الهادمون لمجدك والمنتقصون لأبيك وجدك. وأنت تزرع المحبة فى تربتهم. وتميل إلى جهتهم. وتزحف بسلاحك وعدتك إلى قتالى. وتجمع حولك وقوتك إلى نزالى. وأنا غصة فى حلقوم القوم. وشرقة لاشتهارى بنشر فضائل أهل بيتك. وإقامة عمد مجد قومك. فما هذه لك بعلامة خير. فاصفر وجهه وتلجلج لسانه ولم يدر كيف يقوم ويقع. فقال الملك: أغربوا هذا التوبيخ والتقريع واثبتوا على مسألة تتكلمون عليها. فقلت: أيها الملك معلوم عند هذا الشريف وعند أمثالى أننى لا أصلح أن أكون مسئولا. لأنه لا يمكننى أن أبوح بحقيقة ما أسأل عنه. فإننى بزعمهم باطنى. واعترافهم بكونى باطنيا يمنع من مطالبتهم بحقيقة ما أعرفه فيجعلونى بالكشف عنها مثلهم ظاهريا.

وإنما أصلح أن أكون سائلا فيردون الجواب الذى لا منعة دونه عندهم ولاحجاب. قال العلوى: أو ما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سئل عن علم عنده فكتمه ألْجَمَهُ الله تعالى بلجام من نار. قلت: الله أكبر قد حصل ما نتكلم عليه إن الله تعالى أعطانا من حيث العقل بصيرة بها نستبصر، كما أعطانا من حيث المشاهد بصرا به نبصر، وقد عرفنا من شأن النار أنها تفرق الأجزاء وتحل الأجسام المجتمعة، واللجام من النار الذى هو مجموع من جوهر منها يفرق أجزاء ما تسلط عليه، ويحللها ليس يكاد يتمعنى لى ولا لمن له عقل. وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق الذى لا يشوبه باطل، وعسى أن يكون ضرب فيه مثلا يحتاج الشريف أن يستصحه ويعرف المعنى الذى تقوم عليه بنية العقل منه. فأما مقتضى تصويره فيه لا يصلح. فقال: أما تؤمن بقدرة الله جل جلاله؟ فقلت: كيف لا أومن بقدرة الله سبحانه وهذه السموات المبنية المرفوعة السمك والأرض المدحوة الوسيعة العرض وما بينهما جميعا من صنائع حكمته وقدرته. غير أنه لما لم أجد فيها اللجام من النار تعجبت مما قال الشريف فيه وطفقت أطالبه البينة عليه.

وأخذ الشريف لا يمر ولا يجىء فى الجواب، وتقطعت به الأسباب، حتى صار القوم الوقوف من الحاشية والأستاذين يتضاحكون منه ويستهزءون به، والقوم المدسوسون لتذليقى والكلام فى نوبتى والقصد لإحماء صدرى حاضرون يغيمون فى كل واد. وأنا لا أعبأ بهم ولا أنصب لهم، معرفة منى بكونهم مدسوسين، وعلى تذليقى محمولين، فقال الملك: دعوا هذا الباب وتكلموا فى أمر الصيام ووجوبه على الرؤية أو غير الرؤية. فقال العلوى: يحكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جمع أصابعه الخمس وقال: نحن قوم أميون لا نعرف الحساب، الصوم مرة هكذا حتى استوفى العدة ثلاثين فى ست مرات، وأنه جمع الأصابع ثانية فلما انتهى إلى الآخر نَقَص واحد من الأصابع ثم قال ومرة هكذا.

فقلت: حاشا لله أن النبى صلى الله عليه وسلم الذى شرفه الله بالمعرج، وأراه ما وراء الحجاب يكون به من العى واللكن وإن كان أميًّا أن لا يفضل ثلاثين من تسعة وعشرين بلسانه فيغنى عن جمع الأصابع وتحريك اليد هذه الدفعات الكثيرة مما يقوم به راعى البقر والغنم. ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إنى بطرقات السماء أعرف منكم بطرقات الأرض، فلو أنه صلى الله عليه وسلم. على كون هذا الكلام العظيم محصورا عليه مثبتا. يتكشف السماء فى طلب رؤية الهلال لقام الناس لموافقته يقولون هذا من دعواك بالأمس إنك بطرقات السماء أعرف منا بطرقات الأرض، وسوى هذا فلو كان الهلال شيئا يتعين

وجوبه ولزومه لكان ذلك لنا خاصة ولكان هو عليه السلام بالغنى عنه لكون جبرائيل يعتاده بالوحى ينزل عليه، ولكان سؤال جبرائيل هَلْ أهَلّ الهلال أولى به من التكشف للسماء لطلبة، وفى مضمار التشكيك فى أمر نفسه وتعطيل نزول الوحى عليه. ولو وجد واحد منا السبيل إلى ملك من الملائكة يستفتيه ويستخبره عن مغيبات الأمور أكان يتكل على نفسه فى الطلب والاجتهاد؟ هذا ما لا يقوله عليه دليل ولا برهان، فخزى العلوى من هذا الجواب خزيا وقام وهو يتعثر بذيوله حتى صار القوم الوقوف من الحاشية والأستاذين يتضاحكون منه ويستهزئون به وانصرف كل منا إلى داره.

وشايات النديم

وغشى الملك من غواشى الحيرة والحشمة، إن غدر بى وشرانى بثمن بخس ما لم يسعه جَلده فيه وأتبعنى نصف الليل بأستاذ من حضرته محتشم صعد وصوب فى الاعتذار عنه وتقطيع الخجل مترسلا منه، وقامت قيامة المارق الذى دس العلوم وأنشأه لهذا المقام وجعل يتقطع فى جلده. ويخلق لى ذنوبا وينسبنى إلى أننى أغرى الديلم جميعا به، وأبعثهم على ذكره بالتقبيح فى مواسمهم ومجامعهم، وأغريهم بالبطش به والتجمع على هلاكه وكان يلقى الملك كل يوم بصحيفة من الشكوى وينشرها مواضعه فيما بينهم على إتمام الضربة وبلوغ منتهى المكيدة، على كون الملك يقدم رجلا ويؤخر أخرى مؤثرا لبلوغه الخليفة بعض مراده بعد مصانعته له بما صانعه به. ومحتجزا عما يوعده به أنه يستنصر التركمانية عليه ويصير فى شعبهم إن لزم الطريقة التى نقمها منه، وقاصدا نسخ معلومات الناس أنه صار فى شعبى وتمذهب بمذهبى. فيكون يألف به فى قلوب العوام. وهو مع هذا كله يخاف الله سبحانه فئ ويحتشم من فعله بى بلا ذنب أذنبته ولا جرم ارتكبته ومن بعد ما عاهد الله عليه. وأخذت صفقته فيه من حفظى والمانعة عنى وما انغرس فى قلبه من كلامى الذى لم أزل آخذ إقراره به أنه ما مر مثله على مسامعه. غير أن كفة الهوى كانت أرجح من كفة العقل. وكان الزمان بإنجاده للخلفية ردءا من التركمانية لم يكونوا من قبل. مال على كل الميل. فلما كان ذات يوم وقد اجتمع إلى جمع كثيف من الديلم فى مجلس يوم الثلاثاء وكان انتسج فيه من ذكر العلوى ومناظرته وذكر من دسه، تكلم الحاضرون بما يتكلم فى مثله. وكان يحضر الموضع عيون. فأعادوا على المارق ذكر ما جرى. فقصد وجها واحدا حضرة الملك. وأعاد من كل كلمة عشرا. وأذكى النائرة بجهده. وعقد عزمه على المكاشفة، وتمزيق

ستر المساترة. وبعث الملك إلى بالرسالة أستاذا من خواصه حظيا عنده يقول: إن فلانا يعنى المارق حضر فى مجلسه وقال دارت عليه اليوم عندك سوق[1] وتَمَضْغَتْه بكل قذع وسفه ألسن. وتوعده الديلم بالفتك به والقتل وأسباب لا توجب السياسة مثلها. وكان الأولى أن تمنع من جرى مثل ذلك بين يديك. وتبت أرسان القال فيه والقيل وما جرى هذا المجرى. فأجبت بالاعتذار وقلت: إنى زام للسانى عن ذكره ومسلمه إلى رب العالمين الذى هو ولى مكافأته عن فعله. فأما ألسنة الناس فلست بمتملكها. وشىء شاع وذاع واشتهر فى كل مكان من فعله لا قبل لى بأن أرده فى مطاوى الخفاء.

وسمعت أن الملك لما بعث الرسول أظهر الاشفاق من حضورى بنفسى معه لإقامة العذر، علما منه بما يعتقد حجب المجاملة معى وقال: أرجو أن يعقد مكانه ويرد جواب الرسالة ولا يأتى بنفسه. فقال المارق: هو أجمل من أن يفعل ذلك، أو ما يشبه ذلك من كلام جفاء. ولما أدّى الأستاذ الرسالة أحست نفسى بالشر، ورأيت الصواب أن لا أمر وأقتصر على ما يبلغه الأستاذ عنى فى الجواب. وامتنع الأستاذ إلا أن يأخذنى إليه لأكون المبرهن عن نفسى، قصدا منه للخير، وقد كان رحمه الله ممن يؤثر الخير لى ويحبنى. وتوخى به أنى ألحن بحجتى وأقوم بالعبارة عن نفسى. فلزمنى إلى أن حملنى معه. وسمعت أن الملك لما لمحنى من بعيد أظهر تغمما من مجيئ. وقال: بئس الشىء. فتقدمت إلى حضرة الملك وخدمت وجلست. وقال الأستاذ: يا شاهنشاه قد أبلغته الرسالة فاعتذر وقال كذا على كذا، ثم أخذت الكلام من فيه ووصلته بقولى. فقال المارق: إنك تجاوزت حدك وبسطت لسانك فىّ. وفى هذا الشريف الزكى الطاهر الذى هو خير منك ومن إمامك ومن بنى القداح كلهم. وهو إمامى وقدوتى فى دينى وعدتى لآخرتى. فقلت: صان الله هذا الموقف الشريف وحضرة الملك العظيم أن تجرى فيها هذه السفاهة وذكر قوم ليسوا بأمثالك وأمثالى. ولا عندهم خبر من وجودك ولا عدمك. ولئن كان هذا العلوى إمامك على ما تذكره وعدة دينك. فلم جعلته مشرف دارك واستحفظته ختوم مخازنك؟ أرأيت من اتخذ إمامه وكيل داره والمشرف على انباره - وكان العلوى يتولى القيام بذلك كله له- فهام ذلك النذل فى وادى النذالة والأقوال الخارجية مما يجرى فى مجالس الملوك، ويقتضى جواباً. وقال فى خلال خباطة: إن الذى اتخذته جنتك من حديث العلم والدين هو تمويه وتدليس لأن همك الوزارة ومشاركة وإيثارا إلى الملك فى المملكة. وكان قصده بهذا القول خاصة أن يبلغ الوزير

---

(١) سوق: جمع ساق بمعنى شدة ومنه قوله تعالى: يوم يكشف عن ساق.

فيلهبه ويجعله على المقالى فقلت: لا حاجة لى إلى إقامة البرهان على كذب هذا القول مع حضور الملك وسماعه فإن ذلك كما قال الله سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾[1] وكذلك الوزارة إن كنت من خطابها وطلابها فمنه طلبت. وهو حاضر يسمع النجوى ويميز من اتخذ الصدق مذهبا ممن افترى على الله كذبا.

ولما جرت هذه المكاشفة القبيحة، قام الملك من موضعه حذرا من الخجل. وقمت مدهوشا مما تحزب على من الشر وفتح كمين الغدر. ومضيت أجر رجلى إلى بيتى، وبت ليلة يا لها من ليلة. وصارت بشيراز صيحة واحدة بحديثى وذكرى فى البيوت والمساجد والمجامع. وتباشر المخالفون فى كل بقعة وكل مكان. ونفذت الكتب إلى البلدان الشاسعة بالتهانى أن الملك رجع عما كان عليه من الضلالة، وقتل فلانا وجعله قطعة قطعة. وسمعت واحدا يتباشر واحدا أن فلانا فعل به كذا حتى قطعت البغلة التى كان يركبها قطعة قطعة فقال المبشر: ناولنى يدك أبوسها. قال المبشر: بل هات صدرك فامسحه على صدرى لتسر قلوبنا التى فى الصدور بانكشاف هذه الغمة عن الإسلام والمسلمين. وكانت هذه المكاشفة جرت فى يوم الثلاثاء الباقى بينه وبين يوم الجمعة يومان، وكانت جرت عادة الملك بأن يحضر المسجد الجامع فى كل جمعة من شهر رمضان، فعمد المارق على الاجتماع بقاضى قضاة فارس ورءوس الضلالة ثم أهل البلد وامْتَنَّ عليهم بفعله بى، وأننى ما غضبت إلا لله ولدين رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما آثرت إلا تطميس أثر الضلال. وبقيت خصلة واحدة إن وقعت المساعدة منكم عليها، أفلحتم وأفلحنا، وإن تكن الأخرى فسدت الحال فى أيدينا، إذ كان الملك قد أشرب فى قلبه حب هذا الإنسان. وإنما نحن كالمعنفين عليه فيما يفعله والمخوفين له من عقبى ميله إليه ومحاماته عليه، فقالوا: وما ذاك الخصلة؟ قال: هى أن يفرق كل واحد منكم تبعه وأصحابه فى الأسواق والمحال ويحْشد الحشد العظيم من العامة والرعاع ليصطفوا يوم الجمعة من باب دار الملك إلى المسجد الجامع، ويضجوا بالشكر والدعاء على ما كفى الإسلام من عادية هذا الإنسان بلسان واحد ضجيجا لا تكون نفخة الصور مثله، حتى يرتجف قلب الملك من لقيا هول تلك الجموع، ويحسّ فى نفسه فعلا من أجله صاروا له محبين بعد أن كانوا مبغضين، وشاكرين عقب أن كانوا شاكين، فيستحكم ما فعلناه ويستقر ولا يتحلحل[2] وكان قصده لعنة الله أن يستجمع القاضى

(١) سورة المائدة الآية ١١٦.

(٢) أى لا يتحرك.

والمشايخ الجموع. فإذا اجتمعوا تفاقم الأمر فلم يقفوا عند أمثلتهم فى الاقتصار على الشكر، بل يتجاوز إلى بسط أيديهم بالقتل والحرق وإيقاظ عين الفتنة ليبلغ هو مراده بأيدى غيره. فلما كان يوم الجمعة سمعت فى منزلى ما لم أشبهه إلا بنفخ الصور حقيقة، وما حسبت إلا أن السيوف تأخذنى من أقطارى. والنار تحرق إلى جوانب دارى. وقعدت مستسلما لأمر الله سبحانه وحكمه، وجائدا بنفسى على أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم، فطمس الله على أعين القوم فضلا منه ورحمة. وجعل على قلوبهم من فهم ما قصد بجمعهم له أكنة، وتفرقوا. فلو لم أقاس من الشدائد غير تلك الساعات لكان كثيرا.

غدر أبى كاليجار بالمؤيد

فلما انفض القوم أتتنى رسالة الملك على لسان أستاذين من خواصه يقول لا شك أن هذه الضجة التى كادت تخرق الأرض وتشق الجبال وقعت فى مسامعك، وعلمت أن هذه الأمم لا يحصيها إلا الله سبحانه أعداؤك وخصماؤك، وكانوا أعداءنا فيك أيام كنا نقربك وندنيك، وينبغى الآن أن تأخذ لنفسك وتبتغى سبيل نجاتك، وتفرغ هذه الممالك ثم تأخذ أى صوب شئت. فقلت لهما: قولا للملك خفْ ربًّا إليه إيابك وعليه حسابك، واذكر أيامى عندك ومعك، فإنك لا ترى فيها شيئا تذمه وتنكره. ولى فى رقبتك من أمانة الله تعالى ما هو لازم لها لزوم القلائد، فلا يخلصك أحد من عهدته ولا ينجيك شىء من تبعته. وأما النفى فليس ذلك مما ترعبنى به، إذ كانت هذه النعم التى أتقلب فيها من ابتداء أيام مملكتك إلى هذه الغاية قصدا بالروح والمهجة وسَوْما بسوء العذاب فى كل حين وساعة ليست مما يضيق على الإنسان أن يوليها ظهرا، ويملك عنها صبرا، والسمع والطاعة لأمرك. ولما كان فى اليوم الثانى أو الثالث أرسل إلىَّ قوما مِنْ أجلِّ مَنْ بحضرته يتحملون معذرة وقولا أنه يعز عليه ما يكلفنى إياه من الصعوبة. وإن كتاب الخليفة ورد بالعظائم فى بابى، والتوعد بطغرلبك التركمانى، وأنفذ الكتاب مع القوم لأقف عليه، وذكر أن رسوله لا حق فى أثره، وجعلوا الكتاب فى يدى، فنفضته عنى ورميته وقلت: لا أعرف خليفة غير المستنصر بالله، وهذا الكتاب ما لى حاجة إلى قراءته. إلا أنهم عرفونى أن مضمونه الوقوع فى موالينا عليهم السلام، وتنقيصهم والقدح فى أنسابهم. والكناية عنهم بالمغاربة الفعلة الصنعة. والقول إنه إن كانت دعوى تعزى إليهم فى الأيام المتقدمة، فلقد كانت فى الخفاء والستر. مثل خبيات الصدور، ومكنونات القلوب، وإن أحدا ما جسر عليه هذا الرجل الفاعل الصانع من

الوقـوف في بعض مواقف إظباره وإشـهاره. والتجرد لدفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة وإزالة أسـامينا بالكلية، وإنه إذا سـومح في بابه. وأهمل الاسـتيثاق منه وتسـليمه في يد صاحبنا فقد أخرجتمونا من عهدة الإيمان والعهود بيننا وبينكم. وأحوجتمونا إلى اسـتنصار مـن ينصرنا عليكم – يعني التركمانية – وقلت في جواب توعده بالتركمانية: أما التركمانية فليس قصدهم هذه الديار نصرة للخليفة ولا مظاهرة له إلا في طلب الملك. ولو قتل مثلي ألف ما ارتدوا على أعقابهم إلا أن يردهم الله سبحانه؛ فقولوا للملك ليشتد عليهم بعد معونة الله سبحانه بعضده واستنزال أمواله التي أعدها في قلعته وتفرقتها في أعوانه وأنصاره ليشمروا عن سـاق الجد في الممانعة عن ملكه. فما الأحدوثات وأسمار الليل فما يجيء منها شـيء، وأما ما يسومني من الخروج فإني على ذلك، ومجمع له أمري. وعاقد عليه عزمي. فرجعوا بجواب الرسالة إليه. وكنت فرحان بإيجاده لي السبيل إلى النزوح حذرا من مكيدة تتم عليّ بالقتل، وأن يصل رسـول الخليفة فربما سلمت في يديه، فدخل المارق لحاه الله في رأيه. ورده عن فسحته لي في المسير، وأشار عليه بأن يجعل حبسي داري. وذكر أنه إذا أطلقني في التوجه لم يأمن استثارة الديلم في عصبيتي. وربما تأدى الأمر إلى فساد كلي لايتلافى. فرجع إلى الرسـل وقالوا: سـومحت بالمرور. فالزم دارك. وأغلق في وجهك بابك. إلى أن يبلـغ الكتـاب أجله. ويرى الملك في رأيه. فهالني ذلـك وراعني، وجهدت كل الجهد في التملس فلم أجد رخصته فيه. ولما كان بعد أيام قليلة دخل بن المسلمة رسول الخليفة وتلقوه ببعض الحاشية الكبار في ضميمة إليهم من الأتراك ولم يستصحبوا من الديلم واحدا ودخلوا به إلى الملك، وسـلّم ما كان في صحبته من الهدية المشـتملة على ثياب السـلطان الرفيعة والاسـتعمالات البغدادية. وتماثيل الكافور الحسنة– على ما بلغني– الطائلة. فأنزلوه على طلبة نجيحه. وحاجات من قبل دخوله مقضية إلا ما اقترحه من تسليمي في يده. فإن الله تعالى بفضله أحسـن الدفاع في ذلك. ولما كان ذات يوم جاءني رسـول من عند ابن المسـلمة صاحـب الخليفة وذكـر أنه يتعرف خبرك، ويتغمم لما جرى عليك. ويذكر أنه اسـتقر في نفسي ذكر فضلك في نفسك وعلمك ورجاحتك. غير أن تجاهرك بأمر تستنفر به العالم على نفسـك، وتقيمهم على ساق في معاداتك، وتستخصم معه الخليفة. لإنسان بمصر لا يضرك ولا ينفعك، مما ليس له مدخل في العقل. ولا يليق صدور مثله من العقلاء والفهماء. وينبغي أن تنزع عن هذا الرأي وتعدل عنه. لأكاتب مجلس الخلافة في بابك وأترضاه. وأسـتدعي كتابـه إلى حضـرة الملك بما يصلح شـأنك، ويردك إلى المعهود من قربـه وخدمته. فأجبت

وقلت: إنك المشكور على حسن هذا الاهتمام، غير أن الأمر الذى أنا بصدده أمر دعانى إليه التدين به. واعتقاد اكتساب مرضاة الله فيه، وليس اعتقادى فى هذا الإنسان الذى هو بمصر وقلت إنه لا يضرنى ولا ينفعنى. كاعتقادك فى مرسلك، ولست بالذى يقف موقف المعتذر إليه. ولو قتلت ألف قتلة، ولم يكن لى فى خدمة الملك فائدة فيصبو قلبى إلى الرجوع إلى تلك الفائدة. ثم إن ابن المسلمة سار، وكنت إلى حين انصرافه لا أعد نفسى فى غمار الأحياء خوفاً من تسليمى فى يده، ومن بعد مسيره أيضا ما كنت آمن المكائد والمناصيب التى لم يزل المارق المقدم ذكره والخصوم عاكفين عليها بحضرة الملك. فكنت إذا أصبحت لا أرجو أن أمسى. وإذا أمسيت لا أرجو أن أصبح. لما كنت بصدده من قصد العوام وبغتاتهم وكبساتهم فى الليالى والأوقات الغامضة، لا سيما وقد ثبت فى نفوسهم أن السلطان خصمى، وإنما تنكف عوادى العامة عن أمثالى مخيفة السلطان. فإذا كان السلطان سالكا فى شعبهم فى المضادة والمشارة فما الذى يمنعهم. لولا تفضل الله سبحانه، وأخذه بالنواصى والأقدام منهم، وكان يبلغنى كل يوم من البلاغات فيما يقع من التظاهر علىّ والإغراء بى ما ترجف الأرض من بعضه.

واتفق فى أثناء ما كنت بصدده من هذا الروع والفزع ومهاجرة الدعة والطمأنينة أن إنسانا من الحاشية - لا خلطة بينى وبينه ولا معرفة إلا طرفية - رأى فى منامه كما يرى النائم كأن أهل شيراز يسعون إلى مصلاهم على سنة الأعياد، وأنه سأل عن موجب سعيهم وليس بيوم عيد، فقال قائل إن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب (عليه السلام) هو فى المصلى يخطب الناس. قال الرجل: فأسرعت فى جملة المسرعين، فإذا هو عليه السلام على كثيب من الرمل، وهو يخطب خطبة معروفة عند من رأى الرؤيا على ما قاله، فلما استتمها بسط يديه ورفعهما إلى السماء، وبسط الناس أيديهم ببسطه لهما، وقال: اللهم أهلك من يؤذى فلانا - يعنينى به - إلا أنه اشتبه عليه نص حكايته عنه عليه السلام لفظه أهلك بعينها. أو لفظه تشبهها فى معنى الهلاك، قال الرجل: فانتبهت وأنا مذعور من هذه الرؤيا خائف. وقلت فى نفسى إن القوم لعلى ضلال فىّ قصد هذا الإنسان بالسوء، وتناوله بالمكروه وإن فلانا - عنى واحدا سماه - الذى هو من خلطاء الملك والمقربين منه هو صديقى. والنصح له يتعين على ليكف بأسه عن هذا الإنسان، ويعتزل الظالمين له والواقعين فيه. ولئلا يصطلى بنارهم؛ فمضى الرجل إليه وأفرشه القصة فيما رأى فى منامه. فتوجه ذلك الإنسان إلى حضرة الملك وقص عليه رؤيا الرجل. فملئ الملك رعبا منهاوقال: لعل ذلك اختلاق ومواضعة. فاستحضره ولم يبق من الأيمان المغلظة بالله سبحانه ورسوله وملائكته

وكتبه ورسله والطلاق والعتاق ما لم يستحلف به. حتى ود الرجل لو ترك الكلام فى سر نفسه. ولم يخرجه إليهم ناصحا لهم بزعمه.

وكانت حالى واقفة على هيئتها نحو سبعة أشهر. أبل بالدم ريقى ولا أعقل شيئا من أمرى. وأنا قاعد فى كن بيتى، والباب مردود على وجهى. فبينما أنا جالس ذات يوم إذ قرع على الباب بيول فقيل: من على الباب؟ قالوا فلان بن فلان أحد أصحاب الملك من الأضداد المبائنين بالشقاق الداخلين مع المارق المقدم ذكره مدخل كل بلية. فدخل وقمت له وأكرمته فقال: أين الكتاب الذى أحضره إليك كاتب فلان الفراش دار يحتاج أن ترده إلى حضرته. فسمعت شيئا نكرا لا علم لى به. فقلت: أى كتاب؟ قال ذلك النذل: كأنك لست تعرفه، وتشككنى فى عرفانك به مع ما صح لى من إحضاره إياه بين يديك استراقا من صاحبه، وتقربا به إليك، وقالوا إنك أحرقته، قلت له: فمطالبتك لى برد شىء أحرقته تكليف ما لا يطاق؛ قال: فإن الملك تقدم باحضار الكاتب المذكور وحبسه فى الخلاء فى شر موضع، وهو متوعد بقطع يده الساعة إن لم ترده؛ وقال الملك: إنى أعرف أنك تتحوب من أن ينال إنسانا ضرر تكون أنت سببه. فجد على هذا البائس بيمينه. وحام عليه من قطعها برد الكتاب. قلت: إن شاء فليقطع يده. وإن شاء فليقع رأسه. فما على حوب فيما يفعله به، والكتاب المشار إليه لم أره. ولم يقع بصرى عليه. ولو قلت لى أى كتاب هو لعلى كنت أقع على مثله فأحمله إليه إن كان له بحضرته هذا النفاق العظيم؛ قال: هو كتاب مصنوع فى إبطال أنساب أئمتكم الذين بمصر والإبانة عن كونهم مموهين مدلسين. ونشرمطاوى مثالبهم ومعائبهم. وإن هذا الكتاب أحضره العلوى الذى ناظرك، فلما استتمت قراءته أسلمه الملك إلى فلان الفراش دار ليحتفظ به. فحمله الفراش دار إلى بيته وأذكى كاتبه عينه على المكان الذى أودعه إياه. فأخذه وجاء به إليك. ولما كان هذا اليوم حضر وأرسل العلوى يطلبه وقال: «إن كنتم غنيتم عنه فردوه إلى» فنسى الملك لمن أعطاه وإلى من سلمه ففكر فيه مليا فتذكر. وقال للفراش دار رده فقال: حتى أطلبه فى بيتى. فذهب وعكس داره وخزائنه فلم يجده فيه. فعرفوا أن كاتبه سلبه منه. وأحضره عندك؛ وتقرب به إلى قلبك. بكونه من أهل مذهبك؛ فقلت: والله ما وقع طرفى على هذا الكتاب، ولا حضر بين يدى. ومالى منه علم حمله. وإن كان عندكم هذا الفرج به وبمثله فليس هو بالكبريت الأحمر. إن أشباه ذلك وما هو فى معناه كثيرة. والمواضع مشحونة منها بما صنعته أيدى السفله وأعداء آل الرسول صلى الله عليه وسلم. وأنا أحصل لكم مثله إن شئتم. وأفرج

قلوبكم به. فخرج الرجل من عندى بعد مكاشفات جرت بينى وبينه، وأحوال لم أعتمد فيها رفقا ولا هوادة. بل جردت لسانى عليه وعلى مرسله، وقلت إنى قاعد متهدف للموت، وإننى ليعجبنى أن أكون مستشهدا بأيديكم، فاقض يا فرعون ما أنت قاض. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا. وكان الكاتب البائس المتهم بسرقة الكتاب وحمله إلىّ باقيا على جملته فى الاعتقال. إلى أن قضى الله من سواد وجوههم ما قضى، وذلك أنه رجع الفراش دار إلى داره مهموما لما يرى حلوله بكاتبه من البلاء، فقالت جارية من جواريه: إنك كنت سلمت إلىّ دفترا يوما من الأيام فخبأته عندى فى مقرى، ولعله هو المطلوب المحبوس كاتبه من أجله. فقال الفراش دار هو المطلوب وليس المطلوب غيره، فأخذه ورده إلى الملك فسقط فى يده. وزاده ذلك خجلا على خجل.

فرار المؤيد من شيراز

ثم إن الملك هم بالمسير إلى الأهواز فى عامة العسكر. ورأيت أننى إذا بقيت مكانى بشيراز لم آمن ما يتم على بغيتهم من حيلة ومكيدة، فقلت الأحواط أن أكون فى الجملة. ولا أفارق الجماعة، فاستأذنت فى المسير معهم فمنعت. واستحكم علىّ بالمنع سوء الظن، وواصلت الرقاع بالسؤال فى الفسحة فيه فما صادفت إجابة ولا فى التشدد إلا زيادة، فحملت نفسى على مركب صعب فى التملص، ما هجس فى خاطرى ولا فى خاطر أحد أننى أقدر على مثله، وأشعرت أقوامى ومن يتعلق بى بشيراز أنه قد وقعت الإجابة إلى ما سألت فيه من التوجه وأننى فى الصحبة متنكرا وأشعرت المتوجهين فى الصحبة أننى مقيم بشيراز على جملتى مستترا، وأننى أحمل معهم شيئا من رحلى ودوابى وغلمان لى.

وعملت على تنكير الزى والهيئة والدخول فى أطمار رثة. واستتبعت غلامين مجهولين، وسلكت فى بعض المجاهل من الطرق. وأكترى من مرحلة إلى مرحلة حمارا أركبه، أو جملا أو ثورا على حسب ما يتفق، وأتحمل فى خلال ذلك من مشقة المشى وخوض الأودية والوحول والصبر على مضض البرد والنزول على المواضع القذرة ما يكون الموت عند دانه شافيا. ومن أشد ما كان علىّ أننى كلما اكتريت حمارا أركبه رمت قطع الطريق به على الوحدة لئلا يرانى أحد ورام صاحبه أن يكون مع الرفقة اختلاط لبهيمته. وكان يخلف مرادنا فى الوسط، فكان يسألنى عما يوجب إيثار الوحدة التى جرت العادة بين المسافرين بضدها من طلب الرفقة. فكنت معقول اللسان عن القيام بوجه العذر فيه. وكنت أحل

فى صوب الطريق بأقوال من الرَّيافة وأهل السواد فأسمعهم يذكرونني من القبيح بما أعلم أنهم لو شعروا بى لكانوا يتطهرون بدمى ويحلون. وحسبك بمن يقطع طرقات هذه سبيلها ويسمع بنفسه فى نفسه مثل تلك العظائم.

المؤيد فى جنّابة

ومن المواضع التى أردت أن لا أوجد بها وأوخذ وكانت سلامتى منها من خفى ألطاف الله تعالى. موضع يقال له جَنَّابة[1] وهو المكان الذى نبع منه أبو طاهر الجنابى[2] صاحب الأحساء. لأنى دخلته فى يوم مطير وانتبذ بى طلب الكن الذى أتوارى فيه من المطر إلى المسجد الجامع. وكان سوق البليدة إلى جانبه، فدخل واحد للصلاة يعرفنى باسمى ونسبى وجملة ما أنا عليه. ولما وقع بصره علىّ دنا منى وتقرب إلى بما يتقرب به إلى من كان له فى الدنيا قدم. ثم نظر إلى هيئتى وحالى وزيى وما أنا عليه فعلم أننى هارب. وعرض علىّ نفسه وماله وقال: عسى أن يكون لك حاجة فأقضيها. وتريد ما يكون معك من فضل نفقة وعندى ما لا أدخر به ذخرا أجل منك. فقلت: بارك الله تعالى لك فى نفسك ومالك. لا حاجة لى إليك أمس من أنك ما رأيتنى وأننى ما رأيتك. وجاءنى إنسان آخر علوى وسأل غلامى عنى فقال إنه شريف وارد من كرمان ومتوجه إلى بغداد. فقيل ما هكذا قيل عنه. فتقدم إلىّ وسلم علىّ وأكرمته وأحفيت به. وقال: كأننى أعرف الشريف حرسه الله تعالى؛ يجوز أن يكون ذلك. قال: لقيته بالأهواز. قلت: قد كنت بها لعمرى. قال فى الموضع المعروف بقصر المأمون وعهدى بالشريف وهو يبنى هناك بناء. وأشار إلى المشهد الذى هو أصل البلية النازلة بى، فقلت: ما أعرف هذه المحلة ولم أدخل الأهواز إلا جوازا. ومن أين لى ما يتسع للبناء وأنا فى شغل عنه بنفسى. قال: مالى أساترك. قالوا إنك فلان بتعظيم وتفخيم فى الذكر. فقلت: قد سمعت باسم هذا الرجل، إنه إنسان كبير الشأن. ومتملك لقادة الديلم عظيم المنزلة. إلا أنى ما رأيته. وقد يشبه الناس. وربما يشبهنى به المشبه قال: فقد قال قوم للعامل إن الوجه أن تحاط عليه. فربما كان هاربا من السلطان.

---

(١) فى معجم ياقوت جنابه من قرب بحر فارس وفى النجوم ج ٣ ص ١٢٠ أنها من قرى الأهواز وقيل من قرى البحرين.

(٢) هو أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابى ولى أمر قرامطة البحرين بعد أبيه فى خلافة المقتدر العباسى وهاجم البصرة سنة ٣١٠ هـ وانتهب الكوفة واستولى على الرحبة والرقة وهو الذى أغار على مكة وانتزع الحجر الأسود وتوفى سنة ٣١٧ (راجع ابن الأثير وصلة تاريخ الطبرى والنجوم الزاهرة).

وإذا أخذته حصلت لك بحضرته مكانة فهمّ بتعويقك. فأشرت عليه بأن يضرب عن هذا الحديث في الذكر صفحا وقلت لست بمأمور بذلك ولا مطالب به. وليس يخلو الأمر من كون هذا الإنسان هو المشار إليه أو غيره. فإن كان هو المشار إليه لم يف تجردك لعداوته وعداوة الديلم قاطبة فيه بالثواب الذى يتحصل لك فى أخذه. وإن كان غيره فقد أوحشت رجلا غريبا وعوقته عن موضع قصده وحصلت على خجل من أمره، فقال الصواب معك. وقبل مشورتى فى أمرك، والآن فأريد أن تأخذ منى ما شئت من مال وتجعله عدة فى طريقك، وتكرمنى وتشرفنى بذلك. فجزيته خيرا. ودخل إلى ثالث غير نصبة من تقدم وسلم وتقرب وقال: إنه كثر الخوض فيك فى هذه البليدة. فبين قائل يقول: إنك ظهير الدين[1] الذى هو صاحب البصرة قد أفلت من محبسه وهو راجع إلى البصرة، وقائل يقول: إنك فلان وسمانى بتسمية المشتاق الواله المحب المظهر من نفسه أنه من ذوى التحرق فى الولاء والتشيع. فقلت: يا إنسان ما أنا من الرجلين المذكورين بشىء، وإنما أنا الرجل علوى عابر سبيل. قال الرجل: فلى إليك حاجة. قلت: وما هى؟ قال: أن تكتب لى بخط يدك دعاء أتبرك به. قلت: أما كتب الدعاء فما يقعدنى عنه شىء، وأما أخذك له على سبيل التبرك بكونه خط الرجل الذى أشرى إليه فما أنا هو ولا تبرك بخطى ولا بخطه على رأيى ومذهبى، قال الرجل: رضيت بذلك فاكتبه، قلت له: فلى إليك أيضا حاجة فاقضها لتكون حاجة بحاجة. فقال: وما هى؟ قلت: أريد حمارا لتكتريه لأنصرف من هذا الموضع. قال: سمعا وطاعة. فانصرف الرجل فى طلب اكتراء الحمار، وتشاغلت بكتب ما طلبه. فجاءنى بعد ساعة بمكار وكان اكترى منه ووافقه على الكرى. فوزن له قلت: فأين الحمار لأركبه ونرحل؟ قال: آتيك به الساعة فهو فى بعض القرى. فانصرف عنى صبيحة. وجاء وقت الأولى ولم يعد، وقارب العصر ولم يعد. وما شككت فى كونى معوقا من جهة العامل مأخوذا، وأنه نهى المكارى عن العودة إلىّ وأذكى علىّ العيون إن برحت من الموضع أن يلزمونى. وما كنت بالذى يقدر على المشى فأفوت طالبى لو رمت هرب. وقامت علىّ القيامة من هذه الجهة، فوجهت فى طلب الرجل الذى أتى بالمكارى. وقلت

---

(١) هو ظهير الدين أبو القاسم استولى على ملك البصرة بعد وفاة بختيار متوليها سنة ٤٢٤هـ وقد عصى على أبى كاليجار مرة وصار فى طاعة جلال الدولة ثم فارق طاعته وعاد إلى طاعة أبى كاليجار حتى اتفق أن تعرض ظهير الدين إلى أملاك ابن مكرم صاحب عمان فاستنجد هذا بأبى كاليجار فأرسلت الجيوش إلى البصرة واستولت عليها سنة ٤٣١ هـ وأسر ظهير الدين وحبس فى الأهواز (ابن الأثير ج ٩ ص ٢٩٢ وص ٣١٨).

له: إن الرجل تقاعد بى ولم يعد وكان تقرر بينى وبينه أن تعود من ساعته. ولو تفضلت وتوجهت على إثره وجئت به مع الحمار لكان برا لا أنهض لحق شكره فقال: السمع والطاعة. وتوجه لوقته وإذا هو مقبل ومعه المكارى والحمار قبيل الغياب. فسرنا وأنا لا أصدق أننى ناج من تلك الخطة. وأنظر إلى ورائى هل تبعنى أحد. فسرنا وبتنا فى قصر خراب على شاطئ البحر. هو بالحقيقة أحد ملاعب الجنة وكنت عند دخوله كمن زحزح عن النار وأدخل الجَنّة. فلما أصبحنا سرنا إلى حيث يسر الله تعالى وكان هذا دأبى مدة شهر كامل سفرا فى مقاساة شظف العيش، واشتمالا على ملبس الروع. واستكمالا من كل أذى ومحنة للجنس والنوع. حتى دخلت منزلى بالأهواز عشيا سابقا لدخول الملك إياها. إذ كان الملك أقام فى الطريق ما بين شيراز والأهواز برهة تعريجا على المتنزهات والمتفرجات. حتى أقام فى بلد يسمى سابور – على ثلاثة مراحل من شيراز – شهرا وكان فى تضاعيف مقامه به نفذ إليه كتاب الترتيب بكونى مغيب الشخص وأننى مذ سار ركابه خافى العين والأثر. وأنه وقعت الإشاعة بمسيرى فى صحبته متنكرا. فأخذه الوسواس من هذه البلاغة. وسمعت أنه أقام العيون والجواسيس فى خيام الديلم ورحالاتهم ليستصح فى أى موضع أنا، ثم أنه كان يتقدم بضم أطراف المخانق وتأمل الخيالة والرجالة واحدا وكشف وجوه من كان فيهم متلثما فى عدة مواضع. وكان ذلك كله سعيا فى ضياع. لكونى مختبطا فى المجهلة التى قدمت ذكرها لا فى جملتهم. فلما سلم الله برحمته.

المؤيد فى الأهواز

وحصلت الأهواز ألفيت الوزير بها والعسكر قد تحملوا عنها منذ أيام مستقبلين للملك، ولم يبق فى الموضع إلا من لا قدرة له على المسير. فلما كان صبيحة غد من عشية دخولى جلست للناس ظاهرا مكشوفا. وازدحم علىّ الزوار من بقايا القوم. وانتهى الخبر بورودى إلى قاضى القضاة ابن المشترى الذى كان الأساس فى مكاتبة الخليفة واستنفار واستدعاء كتابه ورسوله وهديته، فلم يدر من الأرض خرجت أو من السماء نزلت، فما شعرت إلا وقد جاء الإذن بكونه على باب الدار يستأذن فى الدخول. فدخل وهنأنى بالسلامة وأظهر التغمم لما جرى علىّ من الحالة، شبه الوالى الحميم. فقلت: ما كان بحمد لله إلا خيرا وانصرف. ونفذت كتب الترتيب على انفراد والسعاة على انفراد إلى الملك بذكر حصولى بالأهواز ودخول الناس إلىّ غير مفكر ولا مكترث. فامتلأ غيظا وحنقا من ذلك. ووجد

المارق لعنه الله من كان من شيعته الطريق إلى القول. فقالوا إنه عصى أمرك فى مفارقة شيراز. وكنت حتمت عليه ألا يفارقها وسابقك إلى الأهواز ليثير الفتنة ويشغب ويعزى الديلم بعصيانك والخروج عليك. حتى صار يفوز من غيظه وغضبه. ويحلف بالله ليفعلن بى وليصنعن إيعادا كنت شيبت ناصيتى فى سماع مثله، ووثقت بحسن كفاية الله وكافنيه. ولم يزل يتراكم هذا التواعد منه على أسماع قوم يحبوننى ويكرموننى فيضعف منتهم، ويخمد نفوسهم. وهم يكاتبوننى ويرغبوننى ويستحلفوننى بالأيمان المغلظة أن أتخلى عن الأهواز وأحصل فى حلة منصور بن الحسين[1] أحد أمراء البوادى. ريثما تنطفى وقدة النائرة. فاحتجت بحكم الاحتشام منهم أن أستجيب لهم. ولو خلونى ورأيى لاستقررت فى موضعى. ومازلت ولا عبأت بوعيده ثقة بالله سبحانه كما لم أعبأ بكثير من أمثاله. فقمت ونهضت إلى حلة الأمير المذكور جزاه الله خيرا - للأمر المقدور لزيالى عن تلك الديار. فقرب ورحب، ولم يقصر فى الجميل. وسألنى عن مجرى الحال. فقصصت عليه القصص، فقال: أبشر بما يسرك، فما هو إلا أن يحصل الملك بالأهواز وأسير إليه وأسعى فى استصلاح شأنك معه. فلما حصل الملك بالأهواز سار إليه وخاطبه فى أمرى فأفضى إليه الملك بجميع السرائر فيما احتالوا علىّ، ونصبوا المناصيب، فيما يتأدى به الضرر إلىّ. وإذا جمعية على السكة التى كنت أوردتها على منصور مما أودعته الآن بطن هذه الصحيفة لم يخلف منها شىء، وقال منصور عند عوده: إنه اعترف بجميع ما قلته. فكأنهما بلسان واحد نطقتما، وسأل فى رجوعى إلى مستقرى بالأهواز. فكأنه لان فيه لينا ما. سوى أنه أراد أن لا يكون ذلك على الفور بمفارقتى تلك الديار. فإنه اتفق فى غضون ما نحن فيه موت ملك بغداد الذى هو أبو طاهر[2] وتأكدت رغبة أبى كاليجار فى تملكها وكان ذلك شيئا لايكاد يبلغه إلا بنصرة الخليفة ورضائه وأمره. فصار هذا الباب غلقا فى أمرى وسدا فى وجه مرادى وأقمت فى الحلة المذكورة نحو سبعة أشهر لا يتوجه لى عود إلى منزلى، ولا أقصد لموضع آخر وأخدمنى ضيق الصدر بحقه. وجعلت فى نفسى أن أقوم وجها واحدا

---

(١) هو منصور بن الحسين الأسدى الذى ملك الجزيرة الدبيسية بجوار خوزستان سنة ٤١٨ وقطع خطبة جلال الدولة البويهى وخطب للملك أبى كاليجار (ابن الأثير ج ٩ص ٢٦٠) ومن هنا نفهم الدالة التى كانت لمنصور على أبى كاليجار.

(٢) الأمير جلال الدولة بن بهاء الدولة فيروز بن عضد الدولة بوية بن ركن الدين الحسن ولد سنة ٣٨٣ ومات فى شعبان سنة ٤٣٥ (ابن الأثير ج٩ ص ٣٥٢ومختصر الدول ص ٣٢٠ ولكن الذى فى النجوم ج ٥ ص ٣٧ أنه توفى فى شعبان سنة ٤٣٦).

إلى الأهواز مستسلما للقضاء. وأشعرت منصور بن الحسين بما عقدت عليه عزمي. فلا أدرى أهو الذى طالع به أم غيره، فإذا أنا بكتاب بعد كتاب يرد من الملك ويعرض علىّ. مترجم به إلى منصور بن الحسين مضمونه: إنك من الشفقة على ملكنا ودولتنا بحيث لا يعتمد لأحد هوادة فيه. وترى مراعاة زمامنا فى هذا الباب أمس مراعاة زمام كل نزيل عليك. ومستند إليك. وقد عرفت صورة أبى فلان أحسن الله توفيقه وإننا كل يوم فى صداع من جهة الديلم باحتجاجات باطلة يتشبثون بها ظاهرا وهو مغزاهم وغرضهم منها باطنا، ثم إنه قامت رغبتنا فى بغداد وامتلاكها وليس يكاد يتم الغرض فيه إلا بالمجلس الخليفى الإمامى، وإذا استقر به العلم أن هذا الإنسان مقيم بفناء حضرتنا على جملته كان ذلك ردما فى وجه ما نؤثر بلوغه، وحاجزا بيننا وبينه، وقد انتهى إلينا أنه على معاودة الأهواز. فالله الله أن توجده سبيلا إلى ذلك فإنه إن عاود وقعت فتنة نصلى بنارها صليا.

المؤيد فى طريقه إلى مصر

وكنت مترجحا بين أن لا أحفل بهذه الكتب وأعود ظاهرا أو خلقيا، إذ ورد الخبر بما كان حمل من الحضرة العالية النبوية من الخلع والألقاب إلى قرواش[1] فكان سبق ذلك بسنة أو سنتين من حشو أقوال المنجمين أن القرآن العظيم الكائن فى تلك السنتين يقتضى أن تزول دولة بنى العباس وتنتقل إلى آل أبى طالب كتنقلها من بنى أمية إلى بنى العباس. ما قامت فى نفسى أمارته لمصدوقة قولهم بخبر قرواش وخلعه. وقلت لم لا أنهض وأزور المشهدين بالكوفة والحيرة صلوات الله على ساكنيه، فأتعجل سعادة بذلك وأبلغ إلى قرواش وأشاهد الحال عنده. فلئن كان مأمورا بشىء يفعله فإننى أقع منه موقع المرهم من الجرح. فبنيت على المسير أمرى واستدعيت من الأمير منصور من الفرسان الجياد من وصل جناحى إلى أن حصلت فى حلة ابن مزيد[2] وأخذت منها صوب الزيارة وشفيت صدرى منها ثم تقربت إلى قرواش فرأيته منحوسا مطموسا لا يسلك فى شعب كما كنت أرجوه فيه من الخير وكان يتصل إلى الخليفة من اشتماله على تلك الخلع وتفد إليه من عنده سود الشعار التى هى كصحيفته ما جعله كفارة لذنوبه، ولما حصلت

(١) هو أبو المنيع قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل وكان الخليفة الحاكم الفاطمى أول من استماله فخطب له ببلاده ثم رجع عن ذلك ولقبه الخليفة القادر العباسى بمعتمد الدولة ثم عاد فدعا للفاطميين وتوفى سنة ٤٤٢هـ (النجوم جـ٥ ص ٤٩. تاريخ مختصر الدول ص ٣١١).

(٢) فى معجم البلدان: حلة دبيس بن مزيد فى أرض بابل.

هنـاك وجدتنى منعت عن ديارى، وبقيت بـين الباب والدار ولم أجد وجها دون التبلغ إلى الحضرة النبوية، ولو سـهل الله جل اسمه وصبرت بالموصل تمام سـنة لكان رجوعى إلى مسـتقرى متيسـرا ممكنا بما جاءت به المقادير التى أجاب الله تعالى فيها دعوة أمير المؤمنـين على بن أبـى طالب بهلاك من ظلمنـى وقصدنى، وذلك أننى بعد الاسـتقرار بالحضرة النبوية بمديدة قريبة سمعت من شـرح ما رماهم الله سـبحانه وله الحمد به من سهم الخوف والحتوف مما هو عبرة لذوى الأبصار. وعظة لمن سار سيرتهم من الأشرار، وهو أن أبا كاليجار أتى من مأمنه ومكان أنسـه وسـكونه فقام عليه أقرب الناس وأجلهم منزلة لديه أستاذ كان يسمى «سعاده» بأنفاق من بعض حرم الرجل الذى هو أبو كاليجار وخطايا ومشـاورة لندمائه المختلطين به أن يسقوه سقية ليستريحوا من مقاساته ويجلسوا أحـد أولاده الصغـار ممـن لا يجرح بناب ولا ظفر ليكون اسـم الملك له وجسـمه لهؤلاء ويعيشـوا كيف أحبوا. وكنت فى مقامى بين ظهرانيهم أتلوح مما هم عليه لائحة وأشـم منه رائحة، وكان تمام الأمر بعد خروجى، لأنه ما كان استنفد أكله وبقيت له بقية يسيرة من العمر فنم عليهم بما هم فيه صبى أسـتاذ أبيض اسمه «مشـرق» إن القوم يأتمرون بك ليقتلوك فارتجف من هذا، وفتح عينيه لأخذ البرئ بالسقيم والغث بالسمين حتى كشف الغطاء، فأخذ سـعادة المقدم ذكره الذى كان روحه كروحه، فقتله قتلا لم يسمع بأصعب منه، فيوما قطع أنفه، ويوما قلع عينه. ويوما كوى جسـده بالمكاوى حتى تبرم المعاقب بكثرة ما كان يعاقبه فضلا عن المعاقب، وبلغنى أنه صلب على جذع خنقا. فحين أدنى من الجذع كان كمن لاقى الفرج، فجر الحبل بيده مسرعا ورماه فى حلقومه حتى اختنق. وألحقه الله تعالى بعمله فلقد كان عدة الظالمين فيما بلغوه من ظلمى. وعكف على الباقين فمنهم من أخذ لنفسه وهرب، ومنهم من أخذته نقمته وغلبت عليهم جميعا الشقوة بحمد الله ومنة حتى لم يبق أحد خدشنى منهم خدشة بقول أو فعل إلا وقد نكل الله به، وأذاقه وبال أمره فضلا منه ورحمة. وإجابة لدعوة أمير المؤمنين علىّ عليه السـلام مما كان رآه الرائى فى منامه، وما كنت اسـتغثت به لدى الحصول على شفير قبره[1] وتمريغى الخد فى ضريحه عليه السلام. فقام بذلك علم معجز له عليه السلام، يتحدث به إلى آخر الدهر فـى ديار فارس، فلما بلغنى خبر هـذه الحوادث علمت أننى لو كنت بالقرب لما عدمت

(١) انظر القصيدة الخامسـة والأربعين من ديوان داعى الدعاة التى اسـتعاث فيها بقبر على بن أبى طالب ودعا على أعدائه الذين أخرجوه من دياره.

عودة جميلة تسر الولى وتكبت العدو ولكن السهم مرق وحصلت بالعدوة القصوى، فعند ذلك كتبت إلى حضرة الملك كتابا بالدعاء والثناء حسب ما يكتب إلى الموالى والأصحاب، وعرفت من فحوى الجواب وغيره من البلاغات الصادقة أنه كان على أن يبدأنى بالمكاتبة ويرسل إلى رسولا قاصدا، فلما ورد كتابى عليه كان كمن نشد ضالته رحمة الله فاستحضر رسولى وكلمه من الكلام الجميل بما ذكرنى به عهد مودته وعفى موقع حسنته معه على أثر سيئته وأجاب عن كتابى بما هذه نسخته:

خطاب أبى كاليجار إلى المؤيد

العنوان «لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا، المؤيد فى الدين عصمه أمير المؤمنين أبى نصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وسعادته وكفايته» وتمهيد «من شاهنشاه المعظم ملك الملوك محيى دين الله، وغياث عباد الله. وقسيم خليفة الله، أبى كاليجار سلطان الدولة معز أمير المؤمنين» قد كان لقبه الخليفة شاهنشاه المعظم عماد دين الله وغياث عباد الله ويمين خليفة الله فلما كانت منه الكائنة فى أمرى قُربة إليه جعله محيى دين الله وأخواته مما هو مكتوب فى العنوان – مضمون الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم. أطال الله بقاءك يا شيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد فى الدين عصمه أمير المؤمنين، وأدام عزك وتأييدك وسعادتك وأتم نعمته عليك، وزاد فى إحسانه إليك، وفضله عندك وجميل مواهبه وسنى فوائده وجزيل منحه وقسمه لديك. كتابنا إليك أدام الله تمهيدك من شيراز يوم الجمعة رابع شوال عن سلامة ومزيد عز وقدرة. والحمد لله وحده وصلواته على النبى محمد وعترته الطاهرين. ووصل كتابك وفهمناه واستوعبنا مودعه وتصورناه. وعرفنا ما ذكرته من أنك مع تقلب الأحوال بك، وتنقلها على الإخلاص المألوف منك فى خدمتنا مستقيم وللدعاء لأيامنا مقيم. ووثقنا به، ولم يتخالجنا شك فيه، وتبركنا بما أوردته من الأدعية، وتحققنا صدوره عن خلوص العقيدة والنية، ووجدنا بمعرفة خبرك فى وصولك سالما إلى مقصدك أنسا يقتضيه جميل رأينا فيك، ورعايتنا لأواصرك ودواعيك؛ فأما ما كتب به من أنك لما مثلت بتلك الحضرة الشريفة حرس الله عزها، وبدأت وصف ما عرفته من خلوص سريرها فى محبتها، وتمسكنا بشريط مودتنا وثنيت بذكر ما شملك من حسن ملاحظاتنا فى أثناء تلك الأسباب التى جرت فاحتجت فى دفع غائلتها والتوقى من عاديتها إلى مفارقة مكانك، والتنائى عن أوطانك فقد علمناه، ووجدنا ما أتيته

فـــى اطلاع تلك الحضرة الشـريفة على كنه اعتقادنا فى مصافاتها مصدقا لحســن المخيلة فيــك. وجميل الظن بــك، واعتددنا بهذه القربة الطارفة التى أكدت بها زلفك الســالفة، وازددنا اســتبصارا برجاحتك، وتمثلا بجزالتك ،وحرصا على اختصاصك بصنوف الأنعام الغمر وتوفير قســمك من الإحســان الدثر. ولا شك فى أنك تتذكر ما كنت تبذله عند كونك بحضرتنــا من التوصل إلى تمهيد المودة بيننا وبين تلك الجهة المحروســة والتطريق إلى أن تأتينا منها فى الفينة بعد الفينة الكتب والرسائل التى بها يستحكم الوداد، وبمكانها يبدو الاعتقاد. ومع ما اتفق من حصولك بذلك المكان وابتدائك بما ابتدأت فى هذا الباب، فيجب أن تحقق ما كنت تبذله، وتصور لتلك الحضرة الشــريفة، دامت بالعز مكنوفة. ما اطلعت عليه من شــواهد صفاء عقيدتنا فى مخالصتها، وإيثارنا انتظام شمل ســعادتها واســتقامة أمور مملكتها. وتعلمها أن هؤلاء التركمان المســئولين على أعمال خراسان والرى لا يقصر خطاهم عن بلاده المحروســة إلا ثبات عساكرنا المنصورة فى وجوههم، وانصراف هممنا إلى قمعهم وفل غربهم، وبذلنا الأموال فى كف عاديتهم. وانتداب جيوشنا الموفورة لمقارعتهــم. أيــن نجحوا وأين نبغوا. ولولا أننا ضربنا بينهم وبين تلك المملكة المحروســة بالأسداد، وتجردنا لمانعتهم التى هى أكثر جهادنا لما سلمت أكنافها من عوادى طغيانهم، ولأضرمت فيها نيران غيهم وعدوانهم، وأنهم لا يتجســرون إلا على حصولنا كالسد بينهم وبينها، ولا يتمنون إلا أن يتسهل لهم السبيل إلى قصدها، ولن يتم لهم بإذن الله هذا المرام، ولا تسعفهم به الأيام، فإننا متجردون للانقضاض عليهم متى تجاوزوا حدود أعمالهم قيس شبر، وعازمون على تلقيهم إن ساقهم حينهم إلى حيث تلى ممالكنا بقاصمة الظهر، ولتتيقن – حرس الله نعمتها – أن لها من الانتفاع بمودتنا الحظ الأوفى والقسم الأوفر الأسنى؛ ومع ذلك فقد حدثّ هؤلاء الأشرار نفوسهم بقصد الموصل على طريق أذربيجان. وإن تم لهم ذلك لم يؤمن من استعارة نيران الفتن من جهتهم فى أكناف تلك المملكة؛ وأما ما أنهيته من شرح ما صادفته هناك من الإنعام وضروب الأفضال والإحسان، فقد علمناه وكل ما تخص به من حبأ[1] وتخويل، ونزل إليك من بر جزيل. فإنه دون ما تستوجبه، وقاصر عما تستحقه، ولقد أنسنا بمعرفة هذه الجملة عن خبرك. وحمدناك على إنهائك إياها ونريد أن تزيد فى شرح حالك وصورتك، ومجارى أمرك. فإننا نؤثر معرفة ذلك (وبعد) فأنت تعلم وفور أنسنا كان بقربــك. وأننا ما أخليناك عند جرى تلك الأســباب من الملاحظة الجميلة التى كفتك

(١) الحبأ: جليس الملك وخاصته.

غوائل من كانوا يقصدونك. ولولا أن الصلاح لك كان فى ذلك مفارقة هذه البلاد، لما قنعنا منك بهذا البعاد. ونحن الآن مؤثرون اقترابك، ومترقبون إيابك، إلا أنه لا يجوز أن تفارق تلك الحضرة الشريفة بعد تحملك فى التبلغ إليها المشقة الكثيرة التى حصلت لك بإزائها من مثولك بها، وتمكينك من إحكام مبانى المودة بيننا وبينها أكثر فائدة وأسنى غنيمة إلا بعد أن تقرر معها قاعدة لائقة بمودتنا. وتتوصل إلى أن ينفذ منها إلينا قبل مجيئك كتاب نستدل به على ما سعيت فيه من هذا الباب. وكنا نؤثر منذ زمان طويل مكاتبتك بهذه الجملة. ولما ورد من جهتك موصل هذا الجواب وعلمنا أنه ثقة مسكون إليه، أصحبناه هذه المخاطبة. وحرصنا على أن نشفعها بكتاب إلى تلك الحضرة الشريفة – حرس الله عزها – إلا أننا توقفنا عن إمضاء الرأى فى إصداره إيثارا لأن يكون ذلك بعد أن تشير به. وإذا فرغت من هذا المهم الذى عولنا فيه عليك، وعدت إلى هذه الديار صادفت عندنا من الإتحاف والإنعام أفضل ما تريده. وأسنى ما تبتغيه وتريغه. فرأيك أدام الله تمهيدك فى الوقوف على ما كتبناه. وتصوره واعتماد ما حددناه. ومكاتبة حضرتنا فى الجواب بكتابك فيه وبأخبارك وأحوالك وما تراعيه من تلقائك موفقا إن شاء الله تعالى».

ثم إنه مكث غير بعيد حتى توجه إلى بلاد كرمان لمال يحوزه من جانب خليفة[1] كان له بها ذكر أنه تمانع عليه. واعتصم بقلعة يقال لها قلعة «يزدشير» عنه فقطع مصانعته حد من جهته ما أمكنه، وقام يرجع إلى بلاد فارس فقيل إنه عرض له فى طريقه عارض الخناق فجأة فقضى عليه. وقيل بل كانت السقية على جملتها معدودة له فأسقيها فتراكضت خيل المنية إليه[2] والله تعالى أعلم بما كان منه رحمة الله. فهذه قصته وقصتى وحديثى معه. ولما حصلت بالحضرة الشريفة على النصبة المقدم ذكرها كنت استصبحت إليها من البضاعة ما كانت تحدثنى نفسى أننى به أفلح. وبه يكون توجهى وتقدمى. ومنه أطأ فوق النجوم بقدمى لكون متجرى فيها رابحا، وسعى نجيحا. وكونى بالفضل معها مبرزا، وعن كل قرن متميزا. فكشف لى الزمان عن كون البضاعة التى كان رجائى فيها هذا الرجاء بائرة كاسدة مستذلة. فسقط فى يدى وعمى علىّ طريق رشدى، وقلت الآن ضل السعى

---

(١) ذلك الخليفة الذى ذكره المؤيد هنا هو بهرام بن لشكرستان الديلمى (ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٧٣).

(٢) رواية ابن الأثير أن أبى كاليجار لما سار لقتال بهرام بن لشكرستان بلغ قصر مجاشع فوجد فى حلقة خشونة فلم يبال بها وشرب وتصيد وأكل من كبد غزال شوى واشتدت علته ولحقه حمى وضعف عن الركوب ولم يمكنه المقام لعدم الميرة بذلك المنزل فحمل فى محفته على أعناق الرجال إلى مدينة جناب فتوفى بها سنة ٤٤٠ (ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٧٣).

وخاب الأمل، وبطل المعتمد عليه والمتكل. وألجأتنى الضرورة إلى غيرها من بضاعة مزجاة ما كنت أعتدتها طول دهرى. إذ كان حظى منها كحظ غيرى، فلولا أنها تقوم بى وتريش قليلا سهمى، لما قامت لى راية فى مجامع الناس. ولتلاعبت بى أيدى الأوضاع منهم والخساس. فأنا أسأل الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وآله جميل العقبى والتوفيق بخير الآخرة والأولى برحمته. ونختم القول بالحمد لله رب العالمين والصلاة على صفوته من خلقه محمد وآله الطاهرين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤيد فى مصر

بسم الله الرحمن الرحيم (وبه نستعين). وصل كتابك يا أخى أطال الله بقاءك تترثى لى عن محن تشرق معى إن شرقت، وتغرب إن غربت، وتصعد بصحبتى إن صعدت، وتصوب إن صوبت، فأنا أينما استقر بى القرار أمارس منها ما لا قرار على قليل من كثيرة. ولا اصطبارعلى جزء من أجزائه. وتذكر ما بلغك من دفع الزمان لى فى البقعة التى خلتها مثابتى وأمنى، إلى ما ذاب فيه جسمى ووهن عظمى، وأنا متحمل على الفؤاد من الألم ثقلا ثقيلا، من شر أقسامه كون لسان الشكوى عنه معقولا.

وتسأل عن شرح أحوالى لك ما أجد به خفا عن قلبى وتنفيسا لبعض كربى، إذا كنت من أوفر الناس بى برا، وأصونهم لى سرا، ولك فى المرور المقام المشهود الذى لا ينكر. فلا أخاف منك انتشار الحديث وحظك فى ستره أوفر؛ فأعلمك يا أخى – روح الله سرك ولقاك فى الدارين ما سرك – إننى بعد مقاساة الأهوال التى رأيتها عيانا، واستوفت قراءتك لكتابها مضمونا وعنوانا. بلغت بشق النفس الباب الطاهر، مترجحا بين أمل ويأس. ومتعقبا لملتقى ما يلقاتى من طرفىّ إيحاش وإيناس. فأما الأمل فمن جهة خدمة ما خدم مثلها غيرى، حدانى حاديها، وناداني بالأهل والمرحب مناديها. وأما اليأس فمن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب، ووجه نهار تبرقع بالسحاب[1] وأن المسافة لعلها تقذفنى من الإضاعة فى يم، وتؤدينى من حيث أردت غنما إلى غر، فكنت أناجى طول الطريق صحبى وقومى، وأقول لهم: ياقومنا تعلمون أننا فى برية من الأمل لا نعلم أتفضى بنا إلى عمارة التحقيق أم خراب اليأس، فإن حصلنا على العمارة عشنا وعشتم،

(١) يقصد بذلك أن السلطة الفعلية فى البلاد لم تكن فى يد إمامه المستنصر بالله، إنما كان محجوراعليه من أمه ورجالها الذين كان إليهم الأمر كله فسلبوا من المستنصر كل شيء سوى الخطبة. ولم يشأ المؤيد أن يصرح بذلك تأدبا منه فى حديثه عن إمامه.

وإن حصلنا على الخراب فليتخذ كل منكم للخلاص بنفسه بوجه من وجوه المكاسب مطيا. وليأخذ في طلب معيشته صراطا سويا. فلست بالرجل الذى يقف لصلاح حالكم على الأبواب. ولا من يلبس لبوس الطمع فيكنى عن العبدان بالأرباب. حتى إذا كشفت عن مقصدنا ستور القفار، وأنخنا به فألقينا عصا التسيار. أدخلونى من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة - عمره الله تعالى- فاستلمت على جارى العادة فى مثله الأبواب (ولمحت الثريا ترابا تحت قدمى) إذ ترشفت ذاك التراب، وأجلسونى هنيهة لأفيق من غشية الهيبة التى ملأت جوانحى لما غشيت المسيرة بمشاهدة ذلك المقام قلبى وجوارحى. ثم أدخلونى إلى الوزير المعروف كان بالفلاحى[1] رحمة الله فرأيت شيخا عليه من الوقار مسحة. ومن الإنسانية سمة. فأدنى وقرب وأكرم ورحب. وخرجت فأخذونى إلى دويرة كانت فرشت لى هى من الكرامة فى الدرجة الوسطى من الحال. لا بالإكثار ولا بالإقلال.

المؤيد والتسترى

وقيل إن ها هنا يهوديا يكنى أبا سعد التسترى[2] - يحل منه الوزير الذى دخلت عليه محل اللفظ من المعنى. وهو لأمور هذه المملكة كلها الأساس والمبنى - فاجعل غداة غد نوبة لقائه. فتوجهت إليه فى غد على مامثل لى. فرأيت منه اهتزازا لرؤيتى واهتشاشا. واحتشانى وفور قبوله وحفاوته احتياشا. وخرجت من عنده بثياب ودنانير خرجت لى من خزانة السلطان - خلد الله ملكه - على يده. وتوجهت بعد ذلك إلى الموسم بالقضاء والدعوة. الذى كان باب حطتنا[3] ونحن بالبعد. والواسطة بيننا وبين مجلس الإمامة. وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان[4] رحمه الله وإيانا. فرأيته رجلا يصول

---

(١) هو الوزير فخر الملك صدقة بن يوسف الفلاحى قتل سنة ٤٤٠هـ. وكان أول أمره يهوديا فأسلم واتصل بالدز برى قائد الفاطميين بالشام وخدمة ثم خافه فعاد إلى مصر وخدم الجرجرائى فلما توفى هذا استوزر المستنصرالفلاحى ثم قتله (راجع النجوم الزاهرة جـ ٥ فى مواضع متفرقة).

(٢) أبو سعد سهل بن هرون التسترى كان تاجرا يهوديا وكان مولى أم المستنصر الفاطمى. وهى أمه سوداء اشتراها الظاهر واستولدها المستنصر. فلما أفضت الخلافة إليه استدنت أمه أبا سعد ورقته إلى درجة عليه وصار هو المتصرف فى شئون البلاد وأصبح الوزير الفلاحى يأتمر بأمره (خطط المقريزى جـ ٢ ص ١٧٠) ثم قتله الفلاحى سنة ٤٣٩هـ.

(٣) باب حطه إصطلاح فاطمى أخذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ (سورة الأعراف/ ١٦١)، والتأويل الباطن فى باب حطه أنه باب الدعوة أى باب الأبواب أو داعى الدعاة.

(٤) هو أبو محمد القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن أبى حنيفة النعمان أحد أفراد أسرة النعمان بن محمد

بلسان نسبة فى الصناعة التى وسم بها دون لسان سببه، فارغا مثل فؤاد أم موسى عليه السلام، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته. وهو مع ذلك موتور منى أوحى إليه بعض شياطين الإنس من أننى ربما زاحمته فى مكانته، بما لى من تنبه فى الأمر الذى هو فى غمرة منه مع توسمه وانتحاله له. ولما كان فى يوم تأديه، وقد حضر القصر الشريف، ورأيته استوى على كرسيه لقراءة ما يقرأه على المؤمنين ذكرت قول الله تعالى عن الهدهد ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾[1] وكان له خليفة يدعى ابن عبدون أشقر أزرق، وكلاهما مثقل من مغرم العداوة لى والإثيار لنفضى من ذلك المكان، وأعانهما قوم آخرون ممن جمعتنى وإياهم البليدة وصحبة الآباء فكفروا النعمة، وتظاهروا علىّ، فلم يغن عنهم شيئا، ولم يجدوا إلى إبعادى طريقا.

وكان اليهودى المكنى أبا سعد يلقانى بكل يوم ببشر وجهه. ويخاطبنى بكل خيرلسانه، ويعدنى أنه يصطنعنى لسلطانه - خلد الله ملكه - ويجعلنى برسم خدمته ومصاحبته ومكانته، ويمنعنى أن أتعقب باب أحد من المصطنعة والأكابر. فيكون ذلك وكسا علىّ فيما يريدنى له. ويشوقنى إليه من المنزلة الجليلة؛ فلما استفاض هذا الذكر من جهته، وملأ الأسماع من لفظه. قامت الحسدة من الشياطين المردة، فدخلوا فى عقل اليهودى وقالوا: كيف تطوع لك نفسك أن تأخذ بهذا الرجل العجمى الدخيل إلى المقام الذى أنت مخصوص به ومرتب له. وما يؤمنك أنك إذا أدخلته أخرجك. وإذا قدمته أخرك. وهو أبسط منك لسانا، وأقوى جنانا. وهو يدل بعزة الإسلام والتخصيص بالدعوة والخدمة. وفيك على العلات كلها خمول اليهودية. ولم يزل هذا الحديث يتوارد على سمعه حتى تشربه قلبه، واستولى على حواسه سكره. فرأيت الرجل منقلبا عينه. مغموضة عن حسن الملاحظة عينه، ملفتا دونى وجهه. مغلولة إلى عنقه يده؛ ووجدتنى حصلت على رزق مقتر. وعيش بنقصان الجاه مكدر.

فلم أزل أحمل على قلبى من الهم ما حدث من نتيجته. أننى أحسست ليلة من ليالى شهر رمضان كنت أفطر فيها عند الفلاحى رحمة الله، كأن قلبى قامت منه نار ففارت

قاضى قضاة المعز لدين الله الفاطمى وأكثر أفراد هذه الأسرة من الذين تولوا القضاء أو الدعوة كما كان لهم شأن عظيم فى الحركة الفكرية فى مصر لما ألفه أفراد هذه الأسرة من الكتب فى المذهب الفاطمى (راجع: كتاب الأدب فى مصر الفاطمية، وكتاب القضاء للكندى، ومقدم كتاب الهمة).

(١) سورة النمل ٢٣/٢٧.

على أم رأســى. وأصابتنى غشــية. فقطعت على الجماعة الأكل. وشغلت منهم القلوب؛ ولما كانت الصورة هذه توجهت إلى اليهودى، وقلت: قد تشــرفت بالمهاجرة. وفزت بحظ سعادتى الدنيا والآخرة، وما بقى فىّ محتمل لمقام. وما لى غير اعتزام المسير من اعتزام؛ فظن اليهودى أننى أقول ذلك وجها من وجوه المجاز، التى ينفق فيها الناس المتزيدون نفوســهم ويــتصلحون معها شئونهم. دون الرجل الذى إذا هَمَّ بالشىء كان تبعا لما همه. وملقيا بين عينيه عزمه. فقال متداهيا علىّ ما يزيد به كَسْــرِى، وإظهار الغنى عنى: «إذا كان المســير قد قام فى نفسك، وتعلق عليه قلبك، فما هاهنا من يصدك عما تريده؛ ويريدك عما ترتاده. والمكاتبات تصدر إلى آخر الأعمال بتنفيذك وإحسان إجارتك». فقابلت هذا الكلام بشكر وقوة وعزم فى التوجه حرم على دون التصميم عليه المراضع من أكل وشرب وهدوء ونوم. وجردت لهــذا الباب. فلما رآنى شــادا فيه على خيل الجد والاجتهاد، وجامعا لأشــتات الإعداد والاحتشاد. عاد من طريق المياسرة إلى المعاسرة وقال: لعلك تظن أن طريقا أوردك يصدرك، أو كفا قبضت عليك تنبســط عنك، ذلك رجع بعيد. فما ردنى الكلام عن أن أدقه بالرقاع على المغيب دقا، وأســحقه باللزاز فى المشهد سحقا، أطلب المقالتة. فطال الشوط فى هذا الباب حتى أبرمته. وكان من جملة ماجرى فى هذا الميدان من المحاملة، التى تكاد تخرق ستر المجاملة. أنه ركب إلى البستان بالقاهرة – يعرف بالسقاية البيضاء – وكنت فى جملة من كان فى موكبه وكنت من ليلة صبيحة يوم ركوبه كتبت إليه رقعة أسعطته فيها بثقيف الخل، ودسست إليه فيها نقيع السم، فحين دخل البستان أمر برد الناس كلهم. ونفضهم عن بابه غيرى. ووقفت إلى أن أذن لى فدخلت فقال: أيها الرجل قد ســددت فى وجهى دون تدبــير قصتك الطرائــق، وأوطأتنى مداحض التخبيط والمزالــق. فما هذا اللجاج الذى اســتويت على عرشــه. واستوطأت لفرشه. فقلت: أيها الشيخ، اعلم أنه ما مجتنى ديارى من فمها إلا تكشــفا بخدمة هذه الدولة العلوية، وتخوفا من الجهة العباســية. وتسللا من فتنة كاد شرها يهلكنى. وغرقها يدركنى. لا أننى لسعت بحمم الإملاق. فأويت إلى درياق الانتفــاع والارتفاق، فما الداعى إلى قصدى هذا غير داعى الإيمان، وما المقصود إلا صاحب القصــر الذى هو إمام الزمان، دون الوزراء والوســطاء والأعوان. فإن كان هذا المقصود يعلم أننى أنا الرجل الذى فيه أخرجنا من ديارنا وأبنائنا كما قال الله تعالى وهو يأنف علىّ من لقائه بلحظه، ومن خطابه فيما يشــرح الصدر بلفظــه. فبختنصر أولى بأن يقام فى خدمته على ساق، وأوقع منه من مواقع استحقاق. وإن كان لوجهه إلىّ التفاته غير أن عنده وجها عنى يلفته، وللســانه معى مخاطبة ســوى أن له مســكتا عن خطابى يسكته. فلا خير فى

المقـام علـى باب من يكون محجورا عليه. ويكون مقاليـد أموره بيدى غيره لا بيديه. فلما سمع اليهودى القول. وأننى كشفت من الأمور مستورا، هاج كما يهيج الجمل نفورا؛ ثم لم يزلدأبى ودأبه المحاككة والمعاركة والاحراق به فى مجالسه ومواكبه، والخفض فى الأندية والمحافل من مناكبة زمانا طويلا. حتى اتفق من قتله على أيدى طائفة من الأتراك ما اتفق. وقالوا – والله أعلم بصدقه – إن الفلاحى رحمه الله دس من قتله[1] إذ كان مسيطرا عليه ليسومه أن يكون ما أصاب الناس من حسنه فمنه، وما أصابهم من سيئة فعلى يديه. وظن المسكين أن فىفنائه بقاءه، فأخلف ظنه. وكان أول من ألحق به. وذلك أن بعض الجهات الجليلة التى كان اليهودى مرتسما بخدمتها[2] فى الظاهر، وإن كان مستوليا على المملكة كلهـا فى الباطن، نقمت هذه الرخصة فيه من الفلاحى، وثبتت على أن تقتاد منه، وكان للمقتول نساء يدخلن إليها فيذكين نار الحرارة، وينمين زرع الحقد والضغينة، وتلك الجهة الجليلة تقدم رجلا وتؤخر أخرى فيما تريد فعله.

المؤيد والوزير الفلاحى

والفلاحـى مضروب علـى أذنه، متغافل عن أمره. ليس يحسب حساب ما هو واقع به، بل هو يظن أن الزمان سلس انقيـاده، وأوتى منه مراده؛ فلما رأيت – وأنا فى خلال هذه الأحوال – الظلمة اليهودية تجلت، والأرض من عكرها وكدرها تخلت، مددت باع طلبى إلى لقاء السلطان خلد الله ملكه والتشفى بمشاهدة شريف طلعته، والتشرف بتقبيل يده المباركة، ووجدت من الفلاحى رحمة الله عليه مسعدا ومساعدا، ونحـو مقصد بلوغ أملى منه قاصدا. فلم تزل الرسل تتردد على هذا الباب حتى فتح الله تعالى غلقه وكشف غسقه، فدخلت إلى مجلس الخلافة فى آخر يوم من شعبان سنة تسع وثلاثون وأربعمائة.

المؤيد بحضرة المستنصر

وكنت فى مسافة ما بين السقيفة الشريفة، والمكان الذى ألمح فيه أنوار الطلعة الشريفة النبوية، كما قال المتنبى عن رسول الروم عند دخوله إلى ابن حمدان. وإن كان بين الجهتين فرق ما بين التراب إلى السحاب:

---

(١) فى نهاية الأرب للنويرى (مخطوط رقم ١٥٧٧ بالمكتبة الأهلية بباريس ورقة ٥٦) أن التسترى قتل فى جمادى الأولى سنة ٤٣٧هـ. بينما أجمع المؤرخون على أنه قتل فى سنى ٤٣٩هـ؛والمؤيد فى الدين يؤيد أنه قتل سنة ٤٣٩.

(٢) كان التسترى يتولى ديوان والدة المستنصر فالمؤيد هنا يشير إليها بقوله: بعض الجهات الجليلة.

وأقبل يمشي في البساط فما درى إلى البحر يمشي أم إلى البدر يرتقي

فلم تقع عيني عليه إلا وقد أخذتني الروعة. وغلبتني العبرة. وتمثل في نفسي أنني بين رسول الله وأمير المؤمنين صلى الله عليهما ماثل. وبوجهي إلى وجهيهما مقابل. واجتهدت عند وقوعي إلى الأرض ساجدا لولي السجود ومستحقه، أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه، فوجدته بعجمة المهابة معقولا. وعن مزية الخطابة معزولا. ولما رفعت رأسي من السجود. وجمعت عليّ أثوابي للعقود. رأيت بنانا يشير إليّ بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام. فقطب أمير المؤمنين – خلد الله ملكه – وجهه عليه زاجرا. على أنني ما رفعت به رأسا ولا جعلت له قدرا. ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق. ولا يبتدي لقول. وكلما استطرد الحاضرون مني كلاما ازددت إعجاما. ولعقبة العي اقتحاما وهو – خلد الله ملكه – يقول: «دعوة حتى يهدأ ويستأنس». ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدري وودعت وخرجت. فهذه قصتي في أول يوم. وعند خروجي من ذلك الموضع توجهت إلى الفلاحي رحمة الله عليه فأفرشت له القصة وأوضحت له الصورة، في لسان خانني عند الحاجة إليه، وشقتي بعدت عليّ من حيث نزلت عن دابتي إلى حيث وردت عليه، فقال: أما بعد الثقة فسيكفيكه ما أرتبه لك في هذه النوبة من العقود بباب المجلس الذي يكون منه المدخل إلى حضرة الخلافة حتى تأخذ بحقك من الاستراحة قبل الدخول، وأما الحشمة فتحل عقدها المكاثرة والمباسطة، ففعل رحمة الله ورضي عنه ما وعد به. وأمنني على موضع لا يأمن بعده الوالد ولده. والأخ أخاه. والله يحسن عن حسن الثقة بي جزاءه.

وما زال الدخول مستمرا والأمر على النظام جاريا. حتى انشقت الأرض عمن قام سببا لبواره. وسلما إلى خمود ناره، وهو الوزير اليازوري[1] فأبتدأ بالدفع عن ذلك المقام. وجعل الحجة فيه اختصاصي به، وأن المختص به غير مأمون جانبه والواجب أن تقطع سوقه. ويمنع دخوله وخروجه لئلا يكون له في فساد ذات البين مضرب. وفي سوقه مضطرب. فتشربت ماء سحره أفئدة. وتمت فيما أراده مكيدة.

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن اليازوري بن علي عبد الرحمن عهد إليه بالوزارة في السابع من المحرم سنة ٤٤٢هـ وقبض عليه المستنصر في أول المحرم سنة ٤٥٠هـ بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقي (ابن منجب)، وفي ابن الأثير أن ذلك كان في ذي الحجة سنة ٤٤٩هـ وكان حنفي المذهب وابتدأ أمره بالشهادة والقضاء وولي قضاء الرملة كما ذكر في السيرة بعد ذلك.

ولما كان بعد شهيرات قريبة قبض على الفلاحى[1] قبضا، قبض فيه بعد يومين بالسيف روحه. فقرّت شقاشقه وذهبت ريحه، فياضعف الطالب والمطلوب، ويا ذل الغالب والمغلوب.

المؤيد والوزير الجرجرائى

وولى الأمر المكنى أبا البركات[2] الذى كان عمه على بن أحمد الجرجرائى[3] واليازورى الذى هو الوزير اليوم ولىّ اختياره. وهو إذ ذاك فى منصب أبى سعد اليهودى، ومقر خدمته. وقد كان من قصته أنه كان قاضى الرملة فعزله عنها ابن النعمان رضى الله عنه المقدم ذكره، وورد مصر متضربا فى حال عوده إلى عمله الذى به ثباته فى نيابته ووطنه، فاتفق فى أثناء وروده على أبى سعد ما اتفق، فوجلت قلوب الكتاب المصريين أن يطلبوا العمل الذى كان إليه خيفة أن يجرى عليهم مثلما جرى عليه، وركب هو فى سفينة الغرر بخطبة المكان، لكونه مصروفا عن عمله متزلزل الأركان، فأسعده من ريح السعادة ما أقلع به، فانتهى إلى حيث لم يترك وهمه لتأميله فضلا عن طلبه. ونعود إلى حديث أبى البركات فكانت نصبه الوزير اليازورى مع أبى البركات نصبه اليهودى مع الفلاحى، وكان ذلك أضيق عطنا من أن يصبر صبر الفلاحى، فما لبس خلع الوزارة حتى دب بينهما دبيب الشر، وانفسدت الحال بينهما فتجاوزت إلى الجهر من بعد الستر، ولم تزل الأيام تتعاهد زارع العداوة بينهما بالسقى، حتى صار حبها حصيدا، وسببها وكيدا، وكانت عين أبى

---

(١) قتل الفلاحى فى المحرم سنة ٤٤٠هـ (ابن منجب ص ٣٨-٣٧)، وفى خطط المقريزى جـ٢ص ٢٨٠ أنه اعتقل فى خزانة البنود ودفن فيها.

(٢) هو أبو البركات الحسين بن محمد بن أحمد الجرجرائى.

(٣) أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى وزير الظاهر وكان أقطع اليدين من المرفقين قطعهما الحاكم فى شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٤هـ على باب القصر البحرى وحمل إلى داره، وكان يتولى بعض الدواوين فظهرت عليه خيانة قطع بسببها، ثم ولى بعد ذلك ديوان النفقات سنة ٤٠٩هـ ثم وزر للظاهر سنة ٤١٨ هـ بعد أن تنقل فى الخدم بالأرياف والصعيد: وكان يكتب عنه العلامة القاضى أبو عبد الله القضاعى، وهو الذى يقول فيه الشاعر جاسوس الفلك:

يا أحمقا اسمع وقل ... ودع الرقاعة والتحامق
أأقمت نفسك فى الثقا ... ت وهبك فيما قلت صادق
فمن الأمانة والتقى ... قطعت يداك من المرافق

وتوفى سنة ٤٣٦هـ بعد أن ظل فى الوزارة سبع عشر سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما (ابن خلكان جـ ١ ص ٣٦٧).

البركات لا تكاد تنفتح على عداوة لى لو لم يمحصنى الفلاحى صداقته، فكنت إذا حضرت مجلسه ألمح منه ظاهرا بفساد باطنه يخبر. كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[1]. ولما رأيت جانب القبول منه ممنوعا، غدوت لجانب الدخول إليه والسلام عليه إلا فى السواد مانعا، فحين رآنى أعارضه كيلا بكيل ووزنا بوزن، وصار مجاز عداوته تحقيقا، وهزلها جداً. حتى كان يوم من الأيام اعترض بأصحاب لأبى على[2] ابن ملك بغداد كاد ليقبض عليهم، عن سبب اتخذه الحجة فى مد باعه إليهم، ففزع أبو على إلىّ فى كفاية الخطب. وكشف الملم به من الكرب، فلم أجد مخطى طرف ومسمى طرف فيما يحل العقدة غير أن قصدت بعض المصطنعة اسمه صابر ويلقب بوجيه الدولة وقلت له: إنك قد عودت هذا الصبى الذى هو من نسل الملوك الصيد حفاوة، تقضى بها فروض الإنسانية وتقوم معها بأدب المروة. وهذا الغلام ومن فى جملته هاجروا إلى الباب الطاهر لارتضاع إحسانه الغامر، ولأنهم لم يجدوا مكانا غيره يستحق أن يلموا به إلماما، ويشدوا على أوساطهم فيه حزاما، وقد شملهم من الإنعام والإكرام ما ليس عليه مزيد، ومن تمامه أن لا يشوبه شائب نقص فيكون إنضاج وترميد، ودهاهم من الوزير ما أتانى به من صارخهم ففزعت به إليك من كشف ضرهم وإجمال النظر فى أمرهم فقال: وما الذى تشير بفعله؛ فقلت: مخاطبة الستر الرفيع أعنى(والدة أمير المؤمنين خلد الله ملكها) فى هذا الباب ليخرج أمرها إلى الوزير بما يسفر معه وجه المجاب فقال: ما كنت بالذى يمكننى أن أقول هذا القول من تلقاء نفسى اللهم إلا أن يكون رسالة عنك. فقلت: اجعله رسالة عنى. فذهب وأنا واقف مكانى حتى رجع واستتبعنى إلى دار أبى البركات فوجدنى متثاقلا عنها، ومتباطيا دونها، فخاطبنى على صلة جناحه إليها؛ فقلت: ليس ذلك مما يخف على قلبى؛ قال: كذا أمرت. فصرت بحكم غيرى وتوجهت معه وسابقنى هو إلى الدخل. ولعله أورد ما كان معه من التحميل. ثم دعيت بعده وقال لى أبو البركات: هات وقل ما أنت قائل. قلت: ما عندى قول أقوله لك إنما توجهت إلى هذا الأمير – أعنى وجيه الدولة – بقول قلته له تحميل حملته إياه فانتظرته حتى عاد وأخذنى معه إلى هذا الموضع، ثم لا أدرى ما قيل لك ولا ما لعلك روسلت به، فقال: روسلت بأن أسمع كلامك فى معنى ابن ملك بغداد، وأفعل

---

(١) سورة آل عمران ٣/ ١١٨.

(٢) أبو على بن الملك أبى طاهر بن بويه فر إلى مصر واحتمى بها هو وأصحابه، بعد أن دخل أبو كاليجار بغداد (النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤).

ما تشير به. فقلت: إذا كان كذلك فأشير بأن لا تعرض لأصحابه ولا تغير فى وجه إحسان الدولة إليه. وكلام نحو هذا فيما يتعلق بصلاح القوم. وكان دأبى ودأبه مطاردة فى السر، ومزاحمة للوجه بالوجه، وكنت قد مللت بأمرى وتحيرت فى شأنى لا أفتح عينا إلا على عدو. ولا أرى فى وجهة من الجهات إلا ضمير سوء. والسلطان خلد الله ملكه الذى كان وصولى إليه الغرض الأقصى فدخلت إليه من باب، والفلاحى الذى كنت متماسكا بعناية معه قد أفضى من ظهر تراب إلى بطن تراب. فعدت لتطرية ملبس الاستئذان فى المسير، وقمت فيه مقام الجد والتشمير، وكشفت فى الاستقصاء فيه المحاب، وأبرمت بالإلحاح والسؤال الأصحاب؛ حتى أجابوا وهم كارهون، فبينما أنا فى شغل أنجزه وأمر للمسير أرتبه. ومكاتبات أتنجزها إذ سمعت بأن ابن النعمان عزل عن القضاء والدعوة[1] وأن الذى هو الوزير اليوم[2] يولى فقلت يجوز أن يولى القضاء الذى كان عليه فيركب به طبقا عن طبق من دون إلى فوق فأما الدعوة التى هو فيها نكرة فلا يجوز أن يقلد منها قلادة فيكون بدعة من البدع، وشنعة من الشنع، وشيئا ما شوهد مثله ولا يسمح. فما أصبح صبح اليوم الثانى من هذا الحديث إلا وقرئ سجله بهما، وفوض إليه كلاهما[3] وكان ذلك من الغرائب التى تحظرها العقول وتمجها الأسماع، والسبب فى سوق هذه الأعمال إليه أن أبا البركات أراد به كيدا وكان من الأسفلين، وذلك أنه أراد أن يورده من بسطة العمل ميدانا وسيعا، يأخذه به عن خدمة الجهة الجليلة التى كان منها هبوب ريح سعادته، فكان هذا أقوى محنة فى دهاة جلادته من أن ينفذ فيها مرسل سهام كيده الضعيف ومكره؛ فلما ندب لهاتين الخدمتين العظيمتين. ولم يتثاقل عنهما بل سارع إليهما، فجعلهما فرعا على الأصل الذى بيده من دون أن ينقض بناءه أو أوهن شيئا من قواه.

المؤيد واليازورى

ولما استقر له من الأمرين ما استقر، وكنت على أوفاز[4] من سيرى. وعجلة من أمرى. استخلانى به فخلوت معه وخاطبنى على تفتير العزم الذى عزمته. وبذل لى من نفسه جميلا

---

(١) كان ذلك عام ٤٤١ (رفع الأصر عن قضاة مصر) «نسخة خطية بدار الكتب المصرية» والكندى ص ٦١٢.

(٢) يقصد اليازورى الذى كان وزيرا وقت كتابة هذا القسم من السيرة.

(٣) كان ذلك يوم الاثنين ثانى المحرم سنو ٤٤١ (الكندى ص ٦١٣).

(٤) أوفاز جمع وفز بمعنى العجلة.

كثيرا إن أقمت، وقال: المسير بين يديك تشد على مطيته أى وقت أردت، وتبلغ مرامى همتك فيه مهمارأيت. غير أن هذا الوقت وقت مضطرب وقد جرى فيه من الأستاذ المنفذ إلى حلب ما جرى[1]. والنافذ على ذلك الطريق فى حميا هذه الحالة مغرر بنفسه ملقم بها فم الخطار. فأذعنت لقوله، وسكنت إلى بذله. واستحببت للمقام، وفصمت فى التوجه عرى الاعتزام، وما شككت أن الكلام كلام غيره وكونه عارية على لسانه. فلم أوثر أن أمد رسن المخالفة فيه أكثر مما مددته، وقلت فى نفسى إذا كانت الصورة هذه وقد لزمتنى ملازم المقام، وولى هذا الرجل من الخدمة فى الدعوة ما يخبط منه فى حندس من الظلام، من حيث لا هو فى محل كر من حلبتها ولا إقدام، ولا إسراج فى ميدانها ولا إلجام، وجب أن آتيه بشهاب قبس يهتدى بأنواره، وأنهج له من الإبانة نهجا واضحا يجرى فى مضماره، وأجتهد أن يكون على كثير ممن سبقه إلى هذا المكان مبرزا، وأن يكون ما يلفظ به من فوق هذا المنبر معجزا. ليعلم أنى قد أمحضته ودى. وأجهدت فى تجميله وتحسينه جهدى، ولا يخدشنى بظفر الحسد كيف هو فى هذا الأمر دخيلا وأنا فيه أصيل؛ فجعلت أحوك له وشيا من الألفاظ يقرؤها فى الأندية، ولولا توقيعاته فيها بزيادة من عنده هى النقص بعينه، ذلك فى مبدأ الأمر، وغرضه فيما يفعل ألا يوجد مستسلما لى بكليته. وعاطلا عن صنع يكون له فيما هو بصدد. وكانت الأمور جارية على هذه المثالة سنة وزيادة، وكنت منقطعا إليه مشتبكا به، ولى فى خلالها دخول إلى أبى البركات ثقيل لما كان يلوح لى من بغضائه؛ واتفق أننى دخلت إليه يوما من الأيام بدخول من تقدم ذكره. فجلست إلى جانبه وبجنب أكتافه[2]، فرأى أبو البركات منه ومنى شخصين مبغضين إلى قلبه، ثقيلين فى عينه، فرأى أن يضرب بعضنا ببعض ويصدم أحدنا بالآخر، كما يفعله الدهاة الذين ليس هو منهم، فأوحى إلى بعض شياطينه القائمين بين يديه أن يسارنى فى التناحى عنه قليلا لئلا أكون متصدرا معه وملزقا كتفى إلى كتفه، فأهوى رأسه إلىّ يزمزم بهذا القول، فدخلت أخماسى فى أسداسى، وملانى منه غيظا سد علىّ موالج أنفاسى، فقلت: أيها الوزير مالك لا تقول لأصحابك أن يكونوا عقلاء، قال: وما صنعوا؟ قال قائلهم: أشرنا عليه بأن لا يكون لقاضى القضاة مكاتفا.

(١) يخيل إلى أن المراد بذلك هو خروج أمير الأمراء رفق الخادم على عسكر تبلغ عدته ثلاثين ألف وبلغت النفقة عليه أربعمائة ألف دينار يريد الشام ومحاربة بنى مرداس الذين تملكوا حلب ولكنه أسر ومات بقلعة حلب سنة ٤٤١هـ (خطط المقريزى جـ٢ ص ١٧٠).

(٢) أى جلس بجانب اليازورى وبجنب أكتافه.

وأن يجعل بينه وبينه فى التصدر فسحا. فقال أبو البركات: إذ كان هذا قولهم فما لهم، فما قالوا إلا صوابا، والوجه أن لا يكاتف قاضى القضاة فإنه من حاله وقصته كذا وكذا وأخذ يثنى عليه بالقرب والاختصاص بالسلطان، وتقدم المقدمة وارتفاع المنزلة، فقلت: ما قالوا صوابا والوجه أن أكاتفه، وأكاتفه إلى ما لا يتناهى، قال: قد طولت لسانك فى هذا المحل الذى هو مجلس أمير المؤمنين، قلت: قد طولت لسانى فى مجلس هو أخص بأمير المؤمنين من هذا المجلس الذى أنت حاضره، والذى أراه منك فهو تطاول، ولكننى اوتى الأمر من قبل نفسى حين أحضر مثل هذا الموضع الذى أغنانى الله عن حضوره بغنى نفسى، فقال: أيها المؤيد أين كانت هذه النفس الأبية حين ضرب غلمان البابلى ليلة من ليالى شهر رمضان غلمانك فى سقيفة الفلاحى، قلت: أيها الوزير وماذا على من غلمان تخاصموا وتضاربوا، وما هذه الحجة من الحجيج التى تودع صحيفة الذكر والفكر حتى تنشر يوما من الأيام فى مقامات التجنى علىّ. وقمت وقد كلت إليه بالمكيال الذى اكتلت به ما هو أزيد فى أله وأشد وقعا بوصبه، ولم ألقه بوجه مسلما بقية أيام سلامته وبقائه فى وزارته. ولم يمكث إلا قليلا حتى انقض عليه عقاب المحنة كالليل الدامس، فأخذه بمخالبه من عز المجالس إلى ذل المحابس[1]، وبقى قاضى القضاة الذى هو الوزير اليوم متحيرا فى أمره بين أن يستولى على العمل نفسه، فلا يدرى كيف يكون الصدور من بعد وروده، أو يولى غيره فلا يأمن أن يصلى نار كيده، فقال يحتاج إلى وزير مأمون الغوائل مرة، وقال لا حاجة إلى وزير مرة، إنما ينصب من لا تسمية وزيرا بل واسطة، فاختار أبا الفضل[2] وهو يسير الحال ويخفف ويثقل ويقدم ويحجم. وفى خلال ذلك لا ينقطع عن قراءة المجالس فى أيامها والقيام بأحكامها ،فلو على أن الأيتام لا تكاد تخرج له جنة يتجنن بها، ويكون هو الرامى من خلفها، فيكون ذلك الاسم وهو الجسم أو اللفظ وهو المعنى دعته الضرورة إلى أن يلبس حلل الوزارة ويتحلى بحلاها[3]، ويركب فى فلكها ويقول: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾[4].

---

(١) قبض على الجرجرائى عام ٤٤٢هـ وزج به فى السجن، ثم نفى إلى الشام (المقريزى: خطط جـ ٢ص ١٧٠).

(٢) وفى خطط المقريزى أبوالمفضل صاعد بن مسعود الذى تولى واسطة لاوزيرا (جـ ٢ ص ١٧٠).

(٣) يقول ابن الأثير إن المستنصر استوزر اليازورى فى ذى القعدة سنة ٤٤٢ (جـ ٩ ص ٣٧٧)، ولكن ابن منجب الصيرفى يقول إن ذلك فى ٧ محرم سنة ٤٤٢.

(٤) سورة هود الآية ٤١.

ولما كان معلوما أن المنصب الذى حصل فيه يقطعه عن حضور الأندية لقراءة مجالس الدعوة. ظن الناس أنه لا يرى العدول بهذه الخدمة عنى. ولا يقصد بها أحدا دونى، فبينما هم فى ظن من هذا الباب كالتحقيق. إذ ندب لها ابن النعمان. فجاء وصعد المنبر وقرأ على الناس فلم تكن له نفس تنهاه عن تقمص العار والذله بالنيابة فيها وحدها بعد أن كان فى القضاء والدعوة أصلا، وبعد كون المستنيب له من جملة فروعه فرعا. ولم يزو هذه الخدمة عنى من زواها إلا كراهية أن يسمع السلطان خلد الله ملكه ومن جملته من ألفاظى ما يسوءه. ويتطرى فى أمرى ما أخلق الزمان جدته وكسر حدته. ولما عاتبته على فعله وقلت له: جعلتنى شرابا فى قدرتك، فحين طيبته رميتنى؟ فكان من جوابه أن السبب فى توليه ابن النعمان عجائز قدم فى القصر حاكميات وعزيزيات يرين النعمان أنه بنى هذا الأمر، وأن أحق الناس بمكانة أبناؤه وذريته. فتجردن فى بابه تجردا صرت به مغلوبا على أمرى، مصروفا عن مكانى عنايتى وهمتى. فقلت له: وأين كانت هؤلاء العجائز لما مزقته كل ممزقة فلا قضاء أبقيت عليه، ولا دعوة ولا لقبا ولا مرتبة، وأين كانت المرهفات من سيوف عصبيتهن فى ذلك المقام. أهذه البحار كلها فى نوبتى جاشت. وعلى رأسى ظهرت واحتاشت، فما عند الله خير وأبقى.

وكانت أيامى تنقضى معه على تمريث من العيش وتكدير فى العمر مدة فكنا إن اتفقنا على بعض الأوقات نتحدث وأقول له بما يملؤه العتب والاستزادة، فيملؤنى قولا جميلا ووعدا حسنا لا يقرن بها وفاء بل يكونان ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾[1]. فلما كان فى بعض الأيام ولم يبق لى متسع فى خلدى وفى جلدى، كاتبته برقعة أشكو فيها قلة الإنصاف وإخلاف الميعاد وأقول إنك فى ثلاث رتب يستحيل المين معها، ويمنع وجود الإفك بوجودها. فإحداها الوزارة التى هى منتهى درج أرباب الأقلام، وللقضاء الذى سناده صدق اللهجة فى القول وترك الميل فى الأحكام، والثالثة الدعوة التى معناها عند من ينتحلها تقويم النفوس المعوجة. والذى يقوم النفوس المعوجة تبين عنه أن يكون كاذبا. ثم سقت القول إلى الغرض الذى كانت المعاتبة والمكاتبة من أجله. فاستشاط غضبا من قراءة الرقعة وراسلنى بجوابها مراسلة على لسان ناشية له وعلى يده وهو فى أول عهده بثوب نظيف لبسه. ومركوب ركبه. يذكر أنك بسطت إلى لسانك كنت قديما تبسطه إلى أبى

---

(١) سورة النور الآية ٣٩.

سعد اليهودى وسقتنى مساقة فيه. ولست ممن يصبر عنك على مثله. وما يجرى هذا المجرى من إرعاد وإبراق فأجبت وقلت: إن لسانى لعمرو الله ذلك اللسان بعينه. ومنتى تلك المنة، ونصبتى فى الاستغناء بالله تعالى عنه وعنك تلك النصبة. ولم يقدمك على أبى سعد إلا إسلامك ويهوديته، فأما من حيث البسطة فى الأمر والنهى فصورتك صورته، وعاد الرسول إليه بالجواب وجمعت نفسى عنه سبعة أشهر أو زيادة لا أدنو له بابا. ولا أتلو فى السلام عليه كتابا. فلما انقضت المدة المذكورة وجرى من الكسرة على بنى قرة[1] ما جرى وأفيضت عليه الخلع السنية موفورة وصارت دارة كعبة للتهانى مزورة. اجتمع علىّ أصحابى ومن كان يلم بى. وحشمونى من فرط الشفاعة إلىّ حتى أتيته وهنيته. فمكث غير بعيد فولانى النصفة من ديوان الإنشاء، وزادنى فى رزقى زيادة ظهر تأثيرها فى حالى. وكانت أيامى تنقضى معه فيما بين الرضا والغضب، وابن النعمان على رسمه فى النيابة والقراءة يجره إليهما حركة من حرصه طبيعية. وحركة من ينهضه قسرية. حتى وقف به أعضاءه، وخانته جوارحه. وجعل الناس يقولون لى إن الضرورة تحوج إليك، ولا يوجد مذهبا عنك. فقلت إنهم يجرونه إلى هذا المكان ما داموا يجدون فيه مجرا، فإذا عدموا ذلك فيه حملوه فى المحفة حملا. وأن الرجل ما بين ذا وذلك يسبر فكوك ولديه وأشداقهما. فإن آنس من أحدهما رشدا ندبه لهذا الأمر فاستغنى عن البعيد بالقريب، وعن الأجنبى بالنسيب. فكان الأمر على ما قلته، وكان بن النعمان محمولا على السراج مادام يحمله السراج. فلما قعد به السرج عدل به إلى المحفة. فلما حف به العجز عن المحفة ندب الرجل ولده، فاستمر إلى يومنا على ما يؤثر أمره. وألقى على كرسيه جسدا مما يحبه ويعزه. وعلم أنى يئست من خيره، وجعل يقطع الزمان معى تقطيع المتجمل. المعطى بلسانه حلوا، والمعتقد فى سر نفسه مرًّا. من الوسيع جلده فى هذه الصناعة المينية

---

(١) فى سنة ٤٤٢هـ ثار عرب بنى قرة الذين كانوا بالبحيرة. ولكن جيوش الدولة استطاعت أن تقمع الثورة سنة ٤٤٣هـ وأن تخرج بنى قرة من أماكنهم وتقطعها لبنى سبنس (بطن من بطون طىء) (النجوم الزاهرة جـ ٥).

(وفى ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٩٦) وفى شعبان سنة ٤٤٢هـ عصى بنو قرة بمصر على المستنصر بالله وكان سبب ذلك أنه أمر عليهم رجلا منهم يقال له المقرب فنفروا من ذلك واستعفوا منه فلم يعزله فكاشفوا بالخلاف والعصيان وأقاموا بالجيزة وتظاهروا بالفساد. فعبر إليهم المستنصر بالله جيشا يقاتلهم فانهزم الجيش وكر القتل فيهم، وانتقل بنو قرة إلى طرف البر وعظم الأمر على المستنصر فجمع العرب من طىء وكلب وسيرهم فى أثر بنى قرة فأدركوهم بالبحيرة فواقعوهم فى ذى القعدة، واشتد القتال وكثر القتل فى بنى قرة وانهزموا.

علـى مـن كان له فيها قدم صدق. وله أولاد وضميمة وأصحاب يحلون عقدة ركامه فيها، ويخرقون ستر ناموسه بها. من إذا اعترض منهم سبب بقول أو فعل كان له من قلبي وقع الزناد في اسـتخراج مكمن النار من متون الحديد والأحجار وكان داعية إلى إنطاق صامت اللسـان بحرار الجنان، فعند ذلك تهب ريح المخاصمـة ويعقد عجاج المناقرة، وقد جرى بينـي وبينه في عدة دفعـات مقارصات ومحاملات. فمنها ما كان مشـافهة، ومنها ما كان مراسلة. وما كان راسلني به وقتا من الأوقات على لسان قريب له: إنني أخذتك من ثلثمائة دينار رزقا إلى ألف وزيادة[1] فلم لا تعرف الحق على نفسك؟ فقلت له في جواب: لو علمت فحوى قولك هذا الذي قلته لقيدت لسانك عنه. فأنت هجوت السلطان خلد الله ملكه به أقبح هجو، أن جعلت استحقاقي بحضرته ثلثمائة دينار. وفي دولته من لا يوازي ظفـرا من أظفاري في خدمته من جنسٍ المشـرقي والمغربي، ولـه المال الممدود في خزانته رزقا. وما أنكر أنك أخذتني من قلة إلى كثرة. ومن عطلة إلى عمل. ولكنك إذا ذكرت ذلك فاذكر بذكره عن أي مكان قطعتني. فقد قطعتني عن آفاق صرت منها في آفاق من يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فلا تمن علي بما أعطيت، فالذي منعت أكبر.

وقلـت لـه في مجلس آخر وقد جرى ذكر كتاب الإنشـاء فقلت: معلـوم ما كان لمتولي هذا الديوان من الجاه الوسـيع والرزق السـني الكثير. ولئن كانت أشخاصهم مفقودة، فإن آثارهم في صناعتهم حاضرة موجودة. وأنت كاتب تفرق بين الجيد والرديء، والضعيف في الصناعة والقوي. وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقايسة إليّ، فإن كنت ممن يجري في حلبتهم فرسة، ويطول نحو أمرهم باعة، فأنزلني من الجاه والمـال. وإلا فقـل لي ما أنـت مثلهم ولا في آفاقهم. فقد رضيتـك حكما. وجئت لحكمك مستسـلما. ففتح أبواب الثناء وبسـط منه ما قبض في معنى العطاء. وعلمني بعض أهله أنه جرى بينهما حديثي فقال له: أراك مسـتكرها لهذاالرجل ومتبرما به. فهل لك أن تجعل حبله على غاربه فيما لا يزال يلتمسـه من عودة إلى بلاده فتكون قد أرحت عليه. وكفيت أمره. فكان جوابه: إنه لا قبل له بإظهار الرغبة في بعده عن هذه المملكة والحرص عليه، ولكنـه إذا تراكم عليه المرس باليد واللذع باللسـان أبت مرارته حمل الضيم، وهجمت من التسلل عن صحيح العزم.

(١) ذكـر المقريـزي في خططه أن داعي الدعاة وقاضي القضاة كان يتناول كل منهما مائة دينار رزقا بينما يذكر المؤيد هنا أنه كان يتناول ألف دينار وزيادة وهو لم يبلغ مرتبه داعي الدعاة أو قاضي القضاة.

بدء النزاع بين الفاطميين والتركمانية

ولما قوى أمر التركمانية - خذلهم الله - وحصلت بالرى[1] وصار القريب والبعيد من أهل البلدان يتقلبون من الخوف على مثل حسك السعدان، وكانت الدولة العلوية - حرسها الله تعالى - فى السابق من نغماتها التى بها تتنغم، وتأخذ فيها مأخذ من أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم، وورد من حيز الروم نسخة كتابها إليها بحملها على التجرد معها لأخذ الملكة العلوية لأولئك الأنجاس الأقذار فيجعلون الشام من حملتها نصيب إخوانهم من شياطين الروم الكفار[2]، ففتحت باب المشاورة على هذا القول المهول من الأمر الذى هو على بعد الشقة يرمى بشرر كالقصر، وقلت إن ابن المسلمة اللعين مغناطيس هذا الشر فإنه استطعم طعم الرياسة بملابسه أمثاله، واستولى منها على غارب آماله، وأن تدبيره اليوم أمثل من تدبيره غدا (والتنبيه له) ولما طغى الماء أقرب الأمور رشدا، وقلت إن الوجه أن أكاتب الكندرى[3] الذى هو وزير الطاغية بكتاب بالعجمية، أو أكاتب نفرا من المعارفين فطنت

---

(١) دخل طغرليك التركمانى مدينة الرى سنة ٤٤٦هـ (ابن الأثير جـ ٩ ص ٤١١).

(٢) لم يرد فى كتب التاريخ أى إشارة عن مثل هذا الاتفاق الذى ذكره المؤيد بين الروم وطغرليك، ولكن المقريزى(الخطط جـ ٢ ص ١٣١٧) يذكر أنه فى سنة ست وأربعمائة هـ ارتفع السعر بمصر وتبع الغلاء وباء، فبعث المستنصر بالله إلى ملك الروم - وهو كونستانتين العاشر الذى كان يحكم مع زوا zoe بنت كونستانتين الثامن. وقد حكما من سنة ١٠٤٢إلى ١٠٥٤ - أن يحمل الغلال إلى مصر، فأطلق أربعمائة ألف أردب وعزم على حملها إلى مصر، ولكن أدرك ملك الروم أجله قبل أن يرسل الغلال، وتولى أمر الروم بعده ثيودورا بنت كونستانتين الثامن التى حكمت من سنة ١٠٥٤م- إلى ١٠٥٦م فكتبت إلى المستنصر أن يكون عونا لها ويمدها بعساكر مصر إذا ثار عليها أحد، فأبى أن يسعفها فعاقت الغلال عن المسير إلى مصر. فحنق المستنصر. وجهز العساكر وعليها مكين الدولة الحسن بن ملهم وسارت إلى اللاذقية ومنها إلى فامية، وجال ابن ملهم فى أعمال أنطاكية فسبى ونهب، فأخرجت صاحبة الروم الجيوش لمحاربته فكانت الدائرة على بن ملهم وأسر هو وجماعة كثيرة، وبعث المستنصر سنة ٤٤٧هـ أبا عبد الله القضاعى برسالة إلى القسطنطينية فوافى إليها رسول طغرليك السلجوقى من العراق بكتاب يأمر متملك الروم بأن يمكن الرسول من الصلاة فى جامع القسطنطينية فأذن له فى ذلك وخطب الرسول فيه للخليفة العباسى. فبعث القضاعى بذلك إلى مصر. فأرسل المستنصر إلى كنيسة قمامة بيت المقدس وقبض على جميع ما فيه. ففسد من حينئذ ما بين الروم والمصريين.

وجاء فى ابن الأثير (جـ ٩ص ٤١٨) أن طغرليك لما فرغ من الرى وعاد إلى همذان فى المحرم سنة ٤٤٧هـ أظهر أنه يريد الحج وإصلاح مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها. ولا ندرى شيئا أكثر من ذلك عن هذا الاتفاق الذى ذكره المؤيد، ومن يدرى لعل طغرليك عقد اتفاقا سريا مع الروم لم يصل علمه إلى المؤرخين بينما عرفه المؤيد لمعاصرته لهذه الأحداث وبحكم عمله بديوان الإنشاء.

(٣) هو عميد الملك أبو النصر منصور بن الكندرى(انظر ابن خلكان جـ٢ ص ٧. ودمية القصر ص ١٤٠، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥، وابن الأثير فى مواضع متفرقة).

حصولهم فى جملة القوم، وأجتهد فى أن أميل إلى الدولة العلوية أدامها الله رءوسهم وأسقى ماء محبتها بالحكمة والموعظة الحسنة نفوسهم، فإن ذلك لا يخلو من أحد قسمين: إما أن يصيب السهم الغرض وهو الغرض، وإما أن يتسامع العباسى بذكر المكاتبة بيننا وبينهم فلا يدرى على أى صفة هى فيتجعد من جهته. وينقبض، فأذن فيه، وكتبت الكتب على أحسن صيغية فيما يكتب فى مثله، فكسر المرسل بها لتخلفه لحاجة فى الصدور وانتظم فى سلك من قال الله تعالى. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ [1] فدنا القوم؟ زيادة دنوا، وزاد وذاك الأمر فيما يحدث عنهم من فساد فى الأرض وعتو بسطا للأيدى فى الأموال والحريم، واستتانا بسنة من لا يؤمن بالله العظيم، وحصلت العراق بمجاورتهم مرتجفة، وصدور أهلها بالروع منهم منخسفة، ووقع التشاور على مكاتبة أبى الحارث[2] والعسكر البغدادى واشعارهم بكوننا لهم سنادا ولهم فى الإرفاد والإنجاد عمادا، وكتبت الكتب ونفذ بها من تحيف ريشة ريب المنون من قبل وصوله بها وإيصاله لها، وضاعت الكتب، وتوجهت بتوجيهه إلى الحجاز حاجًا. ولما أبت استأنفت المكاتبة بما أنقذت به أحمد بن الحسن فسابق حصوله بنواحى العراق دخول التركمانية بغداد[3] وتملكهم لها وحصول أبى الحارث والعسكر على نشز من أرضها بحيلة عملها ابن المسلمة فيما يفرق شملهم ويقطع حبلهم، فما كان كتابى عندهم إلا صحيفة نزلت من السماء، واهتزوا له اهتزاز الأراضى الهامدة لنزول الماء، وأجابوا يدعون ويشكرون، ويقولون ما أوتينا عن ذله ولا عن قلة، ولكنا عن قوس المكر رمينا، ولما السحر سقينا، فإن أخذتم بأيدينا أخذنا لكم البلاد، وإن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم، فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد، والتمسوا من المال والخيل والسلاح ما يريش السهم، ويمضى فى النهضة إلى عدوهم العزم، ذاكرين أن الدرهم إذا تكلف لهم فيما يمضى من سيف عزمهم غرارا عوضوا عنه دينارا، وبأنه لا يرد ثانيا كتابهم جوابا لهذا الكتاب إلا من الرحبة وقد تدبروها. ويفزعون من حرور خوف البطيشة التركمانية إلى ظل أمنة الدولة العلوية، وينسمون نسيم نعيمها الفائح الريا، ويلمحون وجه قبولها وإقبال الكريم المحيا، فوقع الاهتمام بإعداد المال والخيل والسلاح لتحمل إليهم. فلما ترتب الأمر، قال الوزير متداهيا علىّ - وقد أوجد

---

(١) سورة النحل ١٦/ ٧٦.

(٢) أبو الحارث أرسلان البساسيرى التركى الملقب بالظفر كان مقدما على الأتراك خصيصا عند القائم بأمر العباسى. لا يقطع القائم أمرا دونه فتجبر وطغى. فجفاه القائم واستنصر عليه بطغرلبك السلجوقى (وقد تقدم ذكره فى المقدمة).

(٣) دخلت جيوش طغرلبك بغداد، وخطب له على منابرها سنة ٤٤٧هـ (ابن الاثير جـ ٩ ص ٤١٨ وما بعدها).

له الزمان فى قلعى حجة، وأراه إلى حاجة فى نفسه قديمة يقضيها به محجة -: يا فلان قد ترتب الأمر فى المحمول، فمن يكون الحامل، والقائم بهذا الخطب العظيم والكافل، يجب أن يفكر فى هذا الباب فإنه المركز الذى يدور عليه الدائر، وإليه يفضى الأول والآخر. وكنت قد سمعت قبل هذه المكاتبة بنحو شهرين أنه يدبر الرأى أن يقلعنى بمقلاع هذه الحجة، ويرمينى من بحر غمراتها فى اللجة، فقلت مجيبا من أسمعنى ذلك: ومن الذى يشد على خيل طاعته فى ذلك حزاما، ويحل لقبول إرادته حلالا ويحرم حراما. فلما فاتحنى بقوله: من الذى يتوجه لهذا الباب المهم. قلت، ها هو قد طلع رأسه وجاءت أوائله، وقلت: الوزير أعرف بخدامه ومن يصلح لهذا الأمر ومن لا يصلح، وبيان المعرفة بحضرته بالمقصر والمجتهد أوضح، ولسان نطقه بمدح الممدوح فيهم وذم المذموم أفصح. وجعل يعاودنى فى هذا الباب دفعة وتكرارا، وأنا لا أزيده على الجواب شيئا، حتى قال لما امتد الشوط: مالى أكلمك من وراء الحجاب، وأن مولانا خلد الله ملكه قال: ولم يكون فلان - يعنيك - المنتدب لهذا الأمر، والمنتصب له والمتوجه فيه، وله الوجاهة والمخبرة. فقلت: ومولانا خلد الله ملكه عنده خبر منى أو مختبر لأحوال صلاحى وفسادى، لقد فرحتنى أيها الوزير بهذا القول، فما ظننتنى قبل هذا اليوم أخطر منه ببال، ولا أن ذكرى مما يجرى على لسانه فى الحال، وما باله إلى اليوم لم يذكرنى فى الذاكرين، ولم ينظر إلىّ فى الناظرين، فحين دهم هذا الأمر تنغص لى بعنقود حصرمه الحامض، ووقع الاهتمام بتأديبى إلى معاناة يومه الرافع الخافض، ومقاساة قومه الذين طالما رأيت الكفاة من الوزراء الذين يكل حد المشرفيات دون شبا أقلامهم يستقيلون من مقاساة أيامهم. فقال: أغرب عنك هذا القول، فما يركب غيرك صعب هذا الأمر وذلوله، ولا يذرع سوى ذراعك عرضه وطوله. فقلت: ليس ذلك مما أعيره طرفا ولا الكلام فيه مما أرعيه سمعا، فما هو من شغلى ولا صناعتى.

وتقضت أيام على هذا بين اجتهاده وإبائى، وشفاعته وردى، فاتفق يوم ركوب والسقيفة يتزاحم الناس عليها تنشق، والدواب على الباب بعضها على بعض تندق، وقد تعلق بذيلى وهو يقول: افتقرنا إليك وافتقرت الدولة والإسلام والمسلمون، وديانتك تقتضى أن تصرخ صريخهم، وتجير مستجيرهم. فقلت: سبحانى سبحانى إن كنت بهذه المثابة ومحلا لهذه المخاطبة. فقال: الأمر على ذلك وفوقه، ولن أبرح الأراضى حتى تنعم بلسانك. فقلت: أيها الإنسان إننى إن قلت نعم بحكم تحشيمك لى مشافهة أردفته بألف لا مكاتبة فقال: قل أنت نعم واكتب ما شئت بعده، فإنك إذا قلت نعم لم يعقبه نقض فوجدت نفسى فى خناق لا ينفس عنه شيء. وأخلدت فى تغليظ القول وتخشين اللفظ رجاء أن أفقأ بهما عين

التلطف وأخدش معهما جسم التواضع والتخضع. وأزكى بهما النائرة الغضبية التى تحمل حلو الألفاظ مرًا. ولين الطبع خشنا. وسهل الخلق حزنا. وكان سحره الغالب وسهم كيده الصائب. بقولى نعم. ودخولى فيما كرهته.

وكتبت إلى السلطان - خلد الله ملكه - رقعة ذكرت فيها أننى إلى ما كرهت من هذه الجهة مجلوب مجبور على ضعف منتى وقصور حركتى. وكون الأمر عسيرا خطيرا وأن علىّ أن أجتهد وأسعى وأكدح. فما أصبت فيه بما رحمة الله وإقبال الدولة أدامها الله تعالى. وما أخطأت فيه فلا يتوجهن علىّ عتب ولائمة ولا تعرضن لى فيما أحل وأعقد يد معترضة. فوقع على ظهرها بالإمضاء. ولما فرغ هذا دعيت إلى تغيير النصبة. وتقمص قميص الوزارة والأخذ بما يشابهها من الرتبة. فقلت معاذ الله أن أغير من زيى شيئا. أو أتخذ من غير لبوس أهل العلم والتقوى لبوسا. ولو كنت فى عنفوان شبابى ممن صفا إلى ذلك قلبه وصبت نحوه نفسه. لردنى عنه مجىء النذير وإيذانه لوشيك المسير: فكيف وكلا طرفى شبابى وشيبتى فى التدرع بدرع التنزه متساو. وأنا فى خلالهما فى زاوية التصون متزاو. ووقع الاقتصار منى على ملبوس ألبسه وحملان أحمل عليه. فمنعت الإجابة إليه.

ولما كان فى عشية اليوم الذى استقر أمر البروز إلى ظاهر القاهرة فى غدها من بعد توديع مجلس الخلافة المقدس - زادهالله فى مجده - أشعرت بأنه أوقف السلطان - خلد الله ملكه - على أن يأمرنى مشافهة بلبس ما امتنعت عن لبسه. فورد علىّ من الحيرة ما يأخذ الإنسان عن عقله وحسه. فكتبت إلى الوزير أستغيث من هذه الحالة. وأقول: إننى إن خوطبت عليه فأجيب فقد فتت فى عضد إعراضى وقلبت لى أمورى. وإن خالفت خرجت مذموما مدحورا. وانقلبت لا أدعو ثبورا واحدا. بل أدعو ثبورا كثيرا. وأننى متوجه إلى المخيم وجها واحدا من دون دخول القصر. فأجاب يؤمننى مما أحذره فيه. ويشير علىّ بالمصير إليه. فلما حضرته. تولى النوبة بنفسه فأطالها، ولم يبق مقالة فى مسح الأعطاف للإجابة إلى ذلك إلا قالها. إلى أن دعيت وأخذت إلى القصر الشريف. وألبست فيه ما ألبست من التشريف وأدخلت إلى السلطان - خلد الله ملكه - والوزير وولداه حضور من شاهدته العين دون من حجبته الستور. فقبلت الأرض ودعوت وجلست وقلت للوزير: بلغنى أن خيامنا ضربت بحيث يبعد المدى بينها وبين البلد. فبعدت الشقة على غلماننا فى قضاء الحاجات. فقال السلطان. خلد الله ملكه. أنا الذى اخترت لك ذلك المخيم وأبيت أن تنزل المنزل الذى نزله أمير الأمراء[1] حين توجه إلى

(١) أمير الأمراء رفق الخادم الذى مر ذكره.

حلب. فقبلت الأرض ودعوت وقلت: ما وراء هذا الاختيار اختيار فأدام الله أيام مولانا ما أظلم ليل وأشرق نهار، ثم قلت: يا مولانا- خلد الله ملكه- لم تجر عادة آبائك وأجدادك - قدس الله أرواحهم، وصلى الله عليهم - أن يقطعوا لعبيدهم رسما، ولا أن يغيروا لهم حكما. فلم تقطع رسم عبدك فى المثول بهذا المقام الكريم. والوقوف فى هذا الموقف العظيم. فهذا باب أول. والباب الثانى أن مثلى مثل أعرابى بلغنى أنه كان يدعو ربه سبحانه ويقول: اللهم اغفر لى فإننى لا أجد من يغفر لى غيرك، وأنت تجد من تعذبه غيرى، وهذه الوجهة التى أنا متوليها طاعة لك على شديد كلفتها علىّ. وجهة كنت تصادف من ينفذ فيها ويطلب داءها مثلى أو فوقى أو دونى، ولن تصادف من يجاور قصرك الشريف فيكون عنده فى كل يوم ختمة أو ختمتان للقرآن: ودعاء لك وتمجيد لبيتك مثلى، وأنا شيخ هذه الدعوة ويدها ولسانها ومن لا يماثلنى أحد فيها. والباب الثالث أن الأمر الذى أتوجه فيه كتاب أنا عنوانه فانظروا كيف تكونون فى أمر من هذه سبيله. فكان الجواب على الفصلين الأولين بشاشة ظهرت فى أسرة الوجه الكريم، وتبسما كشف عن در الثغر النظيم، من دون إعمال اللسان. والفصل الثالث فقد كان جوابه: إننا معودون من الله تعالى على أمثال هؤلاء بالنصر وهو بكرمه يجرينا فيهم على جميل عادته. وأننا لا نألو جهدا فى الشد منك والإرهاف لحدك. إلى أن يأتى الله بالنصر من عنده. وودعت وانصرفت. ونظرت إلى وجوه القائمين على رسم الخدمة من الأستاذين[1] والخدم فرأيتها تتلألأ بما سمعوا من كلامى. وشقّى فيه عن صحيح المعنى وسوى المقصد والمغزى، ورأيت فريقا يبكون، آخرين يتباشرون ويضحكون. وصرت إلى المخيم وجمع لى من المال والخلع والخيول المسومة ما كان معدودا للحمل[2].

خروج المؤيد لمؤازرة البساسيرى

وسرت فى جلبة عظيمة قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البالغين والحاملين عسكر لو لم يمسنى غير عذابهم عذابا لكان فيه ما يعنى ويكفى؛ وكان الناس يتعجبون من أمرى. وقد كان موضع العجب لعمرى كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتى من دون أن يتبعنى من شىء يسمى العسكر اثنان. ويعول بى

---

(١) كان الفاطميون يجمعون «أستاذ» على «أستاذين» والأستاذ عندهم هو المولى.

(٢) الذى وصل إلى البساسيرى من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس ومن السيوف ألوف. ومن الرماح والنشاب شىء كثير (راجع تاريخ الإسلام للذهبى والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٢ طبعة مص).

على عسكر غريب معلوم الشان، يستعيذ بالله من شرهم الثقلان. عادتهم فى الاستخفاف بملوكهم معروفة، وأما الوزراء فهم أغنام عندهم للذبح معلوفة. ويحكمون بأن المال المحمول فى صحبتى مال كتب الله عليه الضياع، فهو من دون وصوله إلى حلب يتخطف؛ وأن حامله على شفا جرف هار فهو فى أحد تقاسيم وجهته يتلف. ويستنقصوننى فى عقلى بمنصرفى، وكيف استجبت فى هذا الأمر لداعى تلفى، وأنا على بصيرة بكون المقصود قديما وحديثا نفضى عن الموضع ورفضى، حتى قال بشهادة الله قائل: إنه لا يستغلى قلعك بتلف هذا المال. فسبحان ربى الكافى والمسلم برحمته.

فكان فيما مثل لى أننى أستتبع ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين أطأ بهم بلاد ابن صالح[1]، وأبلغ بهم إلى الرحبة[2] فكنت طول المسافة ما بين مصر ودمشق أرتأى فى هذا الباب. فحدثتنى نفسى بمنافاته للصواب، فلما وصلت إلى «صور» واجتمعت مع ابن عقيل[3] جرى بينى وبينه الحديث فى مثل ذلك، وجدت عنده من تهجين ذلك الرأى مثل ما عندى؛ فوجدت قصده فى التدبير، بغير ذلك التدبير، قصدى وبلغت إلى دمشق وعرضته على والى الموضع[4] أخذا بفضل الاستظهار فلم يكن الرأى وقعا منه موقع الاختيار، فحينئذ كاتبت ابن صالح أشعره بالنصبة التى أنا مأمور بها؛ وذكرت: أننى متوقف عنها تصونا من أن أوطئ أقدام خصومه بلاده، وأمتطى مطية أمرى ربما ضمن

(١) هو ثمال بن صالح المرداسى تاج الأمراء صاحب حلب. وكان أبوه صالح بن مرداس يطمع فى ملك حلب فاستولى عليها من أمراء الفاطميين. ثم أعيدت إليهم مرة أخرى. حتى استولى ثمال على حلب سنة ٤٣٣ عقب وفاة أنوشتكين نائب المستنصر بالشام وفى سنة ٤٤٠ حاول المصريون استرداد حلب فلم يوفقوا وأعادوا الكرة سنة ٤٤١ ففشلوا ولكن المؤيد استطاع بسياسته أن يجذب إليه ابن صالح. فأعاد الدعوة للمستنصر الفاطمى وتنازل عن حلب للفاطميين على نحو ما سيذكره المؤيد فيما بعد وتوفى ثمال سنة ٤٥٤.

(٢) الرحبة مدينة بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات وهى البلدة التى هرب إليها البساسيرى بعد دخول طغرلبك بغداد.

(٣) القاضى الناصح ثقة الثقات عين الدولة أبو الحسن محمد بن عبد الله بن أبى عقيل والى صور (ورد كره فى مرآة الزمان وفى ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى، طبع بيروت ص ٩٦).

(٤) جاء فى ذيل تاريخ دمشق (ص ٨٥): الأمير المؤيد عدة الأمام صفى الملك معين الدولة ذو الرئاستين حيدره ابن الأمير عضب الدولة بن حسين بن مفلح وصل إلى دمشق واليا عليها فى مستهل رجب سنة ٤٤١فحمل معه سديد الدولة ذا الكفايتين أبا محمد الحسين بن حسن الماسكى ناظرا فى الشام جمعية حربة وخراجه وقرئ منشور الولاية والدعاء فتسلم الولاية فى سنة ٤٤٢ واستقامت له أمور الولاية على ما يؤثر ويهواد وأحسن السيرة فى العسكرية والرعية فحمدت طريقته وارتضيت إيالته واستمرت عليه الأيام فى الولاية إلى سنة ٤٤٨. وفى النجوم الزهرة جـ ٥ ص ٤٥ أنه ولى دمشق سنة ٤٤٠هـ وظل واليا عليها تسع سنوات. وإذن فالوالى بدمشق إذ ذاك هو هذا الأمير المؤيد.

فساده، وأقول له هل لك فى خدمة سلطانك بما يكشف عن إخلاصك غاشية التهمة والظن، ويغشى عينك وسن الأمان والأمن، وذلك أنى أسلم نفسى وهذه الخزائن والأموال كلها إليك. ولا أستظهر إلا بمروتك وإنسانيتك فى حفظى وحفظها عليك.؛ فإن حفظت فينا الأمانة، أمنك الله تعالى من عادية هذه الدولة – أدامها الله – ماعشت، واستمسكت من جميل رأيها بالعروة الوثقى، فقمت من مصرع المتهمين وانتعشت. فورد الجواب بما سكنت نفسى إليه، وعقدت خنصر تحصيلى عليه، وكتبت إلى الوزير أذكر توجهى إلى ابن صالح غير مستتبع من الكلبيين أحدا، وأن العدول عن نصبه ما مُثّل من استصحابهم أقرب إلى الصواب رشدا، فقامت قيامته فى هذا الباب، وكاتبنى يحذرنى من تبديل قوله وتعدى حده ورسمه، فلم يجد كلامه منى أذنا سمعية ولا نفسا مطيعة، ثم إنه طغى عليه طول مقامى بدمشق، فخيل إليه أننى أمد رسن المقام لاقامة موجبة لى لكى أستدرها على تطاول الأيام، وكتب إلىّ يعنفنى على التثاقل، ويحثنى على التسرع فأجبت عنه بما هذه نسخة بعض فصوله:

خطاب المؤيد إلى الوزير البازورى

«فلما كان بالأمس ورد كتاب كريم يتضمن ذكر ما ورد به كتاب أمير الجيوش من حديث السرية التركمانية – خذلهم الله تعالى – سمع أنها تسرى إليه، وأن هذه الحالة مقتضية لطى المناهل نحوه، وتقديم الوفود عليه. ووجدت الحث على المسارعة فى الموضع ضد ما جرت به العادة. إذ كان الحث فى مثله يقع على الرجال المقاتلة أن يلحقوا النجدة والانالة، ويسرعوا لتقوية الشوكة وسد السلمة. وأما استعجال مثلى بصحبة مال ليشهد معمعة، ويصير فى فم العدو لقمة فغير معهود. ولو كان معى عسكر لاقتضى الحزم عند التقاء الفئتين أن أجمع نفسى بحيث المأمن. وأحوط رحلى وأسرى بالعسكر، إلى أن أتقدم بخيط رقبتى وأترك الرجال ورائى، فكيف ولم يأتلف معى إلى اليوم اثنان لمنعتى عن الانفاق فيهم، وتوقيعى ما يشير به تاج الأمراء الذى هو ابن صالح صيانة لقلبه. وتصونا عن فعل يكون إثمه أكبر من نفعه فى إيحاشه؛ ثم أنه لما كان بالأمر آخر النهار، أتتنى رسالة الأمير المؤيد يذكر ورود الأمر عليه بالاستعجال علىّ فى المسير فكان ذلك من المغائظ التى ضربت أخماسى فى أسداسى، ومعلوم أننى إن أخلدت إلى القعود وعصيت أمر الحضرة السامية بالإسراع فأنا لهذا الأمير أعصى وعليه أحزن. فما وجه مكاتبته بما لا أسمع منه ولا أطيع.

وكنت شرحت العذر فى قعودى وأنه لكذا وكذا سوى هذا فإن الذى يقعد بدمشق يقعد إما متفرجا فى أزدهارها وأشجارها، وإما متكسبا فأما التفرج فإننى إلى اليوم ما رأيت المسجد الجامع المحجوج إليه من كل مكان حق رؤيته وأما التكسب فإنى لما ندبت لهذه الخدمة (على الحال التى ندبت إليها وحمل إلى من النفقة ما حمل) من أجلها لم أظننى أعبث ولا أن الأمر فى مسيرى يتم. فلم أفض ختم كيسها تعويلا على رده كهيأته إلى الخزانة. وأنفقت على مصالح سفرى من غيرها. وإذ قد خرجت وقضى الله فيه ما قضى. فذلك وجميع ما يحويه يدى مدخور لأن أرمى به فى هذا الهور لا لغيره ولا أرى لى فى الادخار والسلام.

خطاب آخر من المؤيد إلى البازورى

وورد كتاب (وكتاب وكتاب) بالصواعق فأجبت بما هذه نسخة بعض فصوله: وأما ما رسم من البناء على الأساس الذى أسس لى فى معنى الكلبيين، والتوجه بهم إلى حلب دون ما أدّانى إليه فكرى من الرمى بنفسى إلى ابن صالح فقد عرفته. وكنت أقطع الطريق إلى دمشق تألفا بالفكر فى هذا الأمر. وأقلبه ظهرا لبطن، وبطنا لظهر، وأقول إن ابن صالح هذا الرجل أمين ينافس فى استدامه ولايته وبقائها فى عقبة وذريته. وليس له عن التفئ بظل الدولة أدامها الله بد ولا له عن ظلها محيص. وأن غيره شذوذ لا يعقد عليهم خنصر، وأننى إذا أخذتهم إلى قرارة داره أرعبته وأوحشته. ثم إنه إنجرى والعياذ بالله منه سبب غير ما يؤثر به. كان جانبه معروفا لامنكورا. فكاتبته وأرسلته بما كاتبته به وأرسلته فكيف يجوز لى أن أخزى نفسى وأكذب قولى. وكيف ينعقد بينى وبينه عقد إذا علم من أول يوم أن عقدى معه محلول. وما استفتحت فيه من قولى منقوض. ولست بالذى يرجع عما بذل به خطه ولفظه حقا كان أم باطلا. كما أنى لا أرجع عن هذه الخدمة بما أخذ من إقرارى فيها بحكم التحشم والسلام.

وكانت كتبى تنفذ على هذه القاعدة. والأجوبة ترد بآيات النكير التى كل واحدة منها أكبر من أختها، حتى ورد بخط المعروف بالقاضى القضاعى[1] كتاب فيه بخط

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى المؤرخ والكاتب المصرى. كان يكتب العلامة عن الوزير الجرجرائى ثم تولى القضاء بمصر مع أنه كان شافعى المذهب. وتوجه رسولا من قبل المستنصر الفاطمى لملك الروم كما تولى ديوان الإنشاء. وكان عالما فاضلا له مؤلفات منها خطط مصر. كتاب مناقب الشافعى وتواريخ الخلفاء والأنباء عن الانبياء فغيرها وتوفى سنة ٤٥٤هـ (راجع ما كتبناه عنه فى كتاب أدب مصر الفاطمية).

الوزير مثل ألفاظه بكل عظيمة يذكر: أنك خالفتنى فى النصبة، وسرت على ما سولت لك نفسك من القضية، أتيت على الدولة. أو كلمة جارية فى هذا المضمار. فقلت: عفا الله عنا وعنك، نحن بعد ما تعاملنا ولا فارقت دمشق شبرا ولا فترا. فإن صلحت لك هذه الطريقة التى أنا سالكها فالمحمود الله، وإلا فاضمم إليك جناح رجالاتك من الرهب، ونفذها على يد من شئت وأنى شئت من المذهب، وقصر دونى عنان النكير والغضب والسلام.

خطاب المؤيد إلى تاج الأمراء

وكتبت إلى تاج الأمراء بما هذه نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. مولاى ابن صالح تاج الأمراء يعلم حق العلم أننى لو لم أكن أقوى الناس جنانا، وأطلقهم بالبراءة من النطق لسانا. وأعفهم نفسا وأنقاهم جيبا، وأوفاهم ثقة بكون الدولة أدامها الله لا تتهمنى فى عبوديتها. وحضرة الوزارة لا ترتاب بى خدمتها، ولو أتيت ما أتيت لكان بعض ما أخذنى من رشقات سهام الملام فى استبدادى برأيى، ونبذى نصبه غيرى من ورائى يهدنى ولو كنت الجبل الراسى، ويحول بينى وبينه قلبى، ولكننى متكل على معونة الله التى لا أزال اخترط منها سيفى، وكفايته التى أعدها موئلى فى الشدائد وكهفى، ومشتمل على الثقة بكرم تاج الأمراء الذى أحاشيه أن يدعنى خجلا. وطيب أصله الذى أعيذه برب الناس ملك الناس. أن يتركنى على ملبس الذل مشتملا، وأزيل مع ما بلغنى من احتشاده للتلقى واللقاء المحجوب المشوق؟ أن يلتفت إلى تجريد الرجال والاهتمام بالترحال. حتى إذا نزلت بكريم فنائه لم تمتد أرسان المقام، ولم تعصف علىّ فيه عاصفات الملام، وأن يظهر من العصبية فى هذه الحالة ما يجمع له بين الحسنيين، فى قربته إلى الله بخير ما يقترب إليه المقتربون من المحاماة عن دماء المسلمين وحريمهم والمانعة عن تليدهم من الذخر وطريفهم. وخدمة للدولة أدامها الله لا تدع لطخة قديمة إلا تغسلها ولا علاقة من سحر من تلقاه بالسحر والنميمة فيه إلا تبطلها. ولا بعيدا من الأمل فى إحسانها إلا تقربه. ولا ممنوعا من المرام من جهته إلا توجبه. والثالثة أن تحقق فى أمرى قول المتنبى:

وما شئت إلا أن أدل عواذلى ... على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قوما خالفونى فشرقوا ... وغربت، أنى قد ظفرت وخابوا[1]

(١) هذان البيتان من قصيدة للمتنبى فى مدح كافور الأخشيدى.

وهو أسـر نفسـنا. وأنجى رأسا، وأطيب أسا، وأذكى غراسـا من أن يوجد عليّ لقائل مقالا، أو يجعل له فى ميدان تمضغى بلسـانه مجالا، أو يحدث فى جسـم أملى بمضامته حزنا، أو يعقد إلا على النفوذ معى بنفسـه وصليبة قومه عزما، أو أن يخفى عليه أنه إذا وقف عند أحسن ظنى به كان بشيرا بين يدى سعادة دنياه ودينه.

خطاب المؤيد إلى اليازورى

ومن جملة ما كتبته إلى الوزير فى هذا المعنى وغيره ما هذه نسخته:

«وصل كتاب الحضرة العالية فاسـتفدت السرور بمطلعه. والسكون إلى علم مودعه، من ذكر شمول السـلامة والسعادة. جعلهما الله متصلتى الأسباب مُنيَلتى السحاب. وفهمته. فأمـا مـا ذكر جوابا عن قولى حين نهيـت أن أرعى تاج الأمراء سمعـى، أن لقينى بوجه التقتـير فى العـزم. أننى ما شـاهدت تاج الأمراء، ولا علم لى ما يكـون منه فى ذلك، فإن خاطبنى على شىء منه خاطبنى بلسان كل الناس به ناطقون وعليه متفقون لو كان كلامهم فى ناجعا. ومنى موقع القبول واقعا: إن الحضرة العالية حرس الله عزها عارفة بمن يلقى ذلك إلىّ على جهة الإشفاق. وهو غل. والنصيحة، وهو غش، وأنها لو شاءت أن تسميهم لى أو تصدر كتبهم إلىّ لفعلت. وذكرت ورود مكاتبتهم يبذلون الخدمة فى هذا الوجه لكنها حرس الله عزها تتجنب ما يوزع سـرى، فمن أجل ذلك تكف فقد عرفته. ومسـلم للحضرة العالية حرس الله عزها ثقوب الرأى والبصيرة والألمعية والمحاسـن التى توحدها الله بها. فأمـا علم الغيب فقد انتفـى منه النبى صلى الله عليه وسـلم. بدليل الكتاب ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾. ولعلـه نمـا إليها حرس الله عزها ذكر رجل أو رجلين تكلما بذلك هما قليل من كثير ناظرونى على ذلك وقبحوا على فعلى كيف اسـتجبت له وأنا بالقاهرة المحروسـة يومئذ ثم فى عامة الطريق. وأما من بذل الخدمة فى هذا الوجه فالحضرة العالية تعلم أنه ما يسـتوى الراغب فى الشىء والزاهد فيه. والمتسارع إليه والمتثاقل عنه. وكان يتعين على مكارمها أن تستجيب لذلك فتجمع بين الحسنيين فى أخذ الطالب إلى ما يؤثره. وصدى عما أكرهه. وخصوصا إن كان الطالب أشـب منى نفسا وأصح جسـما وأحمل للشـدائد عرضا وأكثر منى لعالى الأمور طلبا. فأما أنا فما أشبه نفسى إلا بالجوزة العفنة من محالفة السـقام ونخر العظام. والتجافى عن لذة الشـراب والطعام. والقانع من دنياه بنصف رغيف وثوب قطن. فما بالها - حرس الله عزها - أركستنى فى

العذاب. وحملتني على المراكب الصعاب، وما بالها لم تستخلصني للخدمة بين يديها في الصناعة التي إن لم أكن عروفا بها من حيث الكتبة. فلقد كنت طبا عروفا من حيث قضايا الإمامة والدعوة. أليس ذلك خروجا عن قضية النصفة. وأما القول أنها - حرس الله عزها - ما تعرف معنى هذه الرقة من الناس والشفقة، فقد أجلها الله سبحانه عن أن لا تعرف ذلك. فمعلوم أنني ما دخلت إليها أدام الله سلطانها يوما من الأيام إلا لحاجات الناس أقضيها وأبواب أخر أقوم بها. والناس بين رجلين: أحدهما من قضيت له حاجة فيتعين عليه أن يظهر شفقة. والآخر من سمع بذكري وأنني لا أوثر غير مصلحة ولا أدخل في مساءة ففرض عليه حكم الإنسانية أن يتوجع لمن هذه سبيله إذا خاف عليه أمرا. والكلام في جميع هذه الأبواب فضل. بعد أن عزلت عن سماعه سمعي. وألقيت بين عيني عزمي. ولم أرجع عما رهنت به لساني: وأما قولها - أعلى الله مقالتها - أنها تنزهني عن القلق والفرق. وأنا الرجل الذي تمرست في حين الشبيبة بالآفات. وتحككت بالفادحات المعضلات فذلك صحيح. فما أنا مرتكس فيها وخائض لتيارها. ولكنني ما فزعت من شرق إلى غرب. ولا وليت ظهري جور إخوان وصحب. إلا ليبدلني الله من الخوف أمنا. ومن القلق سكونا. ومن جعل مساورة الخطار. ومباشرة الأهوال الكبار. قانونا للدهر وقرينا. لا يبار حتى طول مدة العمر. وأما الأمر العالي بأنني لا أعير المتكلمين طرفا. ولا أثني نحوهم عطفا فقد قلت وأقول أنني لمقابلة بالسمع والطاعة. وأما المرسوم في معنى تاج الأمراء وترك الخروج عن المثالة الممثلة في بابه. فقد خدمت في أمره خدمتين عظيمتين إن عرفت لي إحداهما: أنني تصونت عن استصحاب قوم من ذوي بغضة إلى ديارة فأتركه ينفر عني ويتجمع مني ولا يدنو لغرضي إن استدنيته وأكون بعد ذلك على فرق منه. أو يكون أحد الأراذل والأتباع يحدث شؤمة فيلقى بأسهم بينهم فنحصل في صداع قريب يشغلنا عن البعيد. والأخرى ألا يذهب المال فيهم ضياعا طول مقامهم معي بحلب إلى أن يتقرر أمر تاج الأمراء وابن وثاب[1] وهذا الباب غير مفسح لتوجيه الكلبيين على الوجه المأمور به. ولا محدث في الأمر ما يقع الحذر منه. فهو أمثل من المثالة المذكورة إذا نظرت إليه عين النصفة. وأما وقوع الاستصابة لما يفعله صاحب الجيش من حشد الحشود وتجنيد الجنود، فأقول أليست هذه الحشود والجنود إذا اجتمعوا تعقلوا بأطواقي وقالوا هات. فأعللهم

(١) هو منيع بن شبيب النميري صاحب حران وكان إذ ذاك في حروب مع تاج الأمراء ثمال بن صالح صاحب حلب على امتلاك الرقة (راجع مرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٨ نسخة خطية بدار الكتب المصرية).

حينئذ بالوعود، وأجردهم للسهام والأسنة بالبذول. أفرأيت من توجه للقتال بالمواعيد ويقول لهم ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1] وأن المال واصل على إثرى، أحاشى الحضرة السامية أن تكون بهذا القول إلا مستبرية لعقلى، ومستدرجة لما عندى؛ وأما استتباع من أمر باستتباعهم فقد صدر جواب هذا الفصل ما يغنينى عن تكريره؛ وأما القول فى أننى لو كنت فى بروج مشيدة لأنفذ الله فى محتوم أقضيته، ولو كنت فى عين المتالف لألبسنى إن أراد الله ملبس كفايته. فقد انتفعت بهذه الموعظة الحسنة، على أن عندى منها الأحمال، وإلىَّ فى مثلها تشد الرحال. ونص القرآن يوجب ذلك على رأى قوم. وينفيه على رأى قوم، والمكلف مستطيع. وإن لم يكن مستطيعا كان التكلف باطلا والسلام».

وتردد من المكاتبات الكثيرة والمخاطبات الطويلة بينى وبين الوزير نهيا عن المسير إلى ابن صالح على غير المثالة التى مثلها. وإباء منى له وامتناعا عنه قولا إننى لا أنقض ما قدمت فيه قولا، ولا آتى غير ما شرطته فعلا، وسرت بما صبنى من الأموال العظيمة والسلاح الخيول. ولقد شققت العصا بالخلاف عليه، وأنا على تخوف مما ينتهى الحال إليه أخشى أكل لحمى ونهش عظمى فى سقيفة كلب وكلاب من قبل دخول دار ترك وتركمان، فلا أدرى بأيهما أنا أكثر فرحا بالسقيفة أم بالدار، وكلاهما محيط به سرداق من نار.

وتواعدنا أنا وابن صالح على أن يلقانى إلى موضع يلى حمص يقال له الروستان على جسر نهر العاصى، فما زلت أسير عن دمشق رحله، وهو يسير من حلب رحله، ومعى صليبه عسكر الشام. ومعه جمهرة بنى كلاب إلى أن التقت الفئتان منا ومنهم فى المكان المذكور، فضرب عسكرنا مصافيهم على شاطئ الوادى من العدوة الغربية، ووقف عسكرهم من العدوة الشرقية، وكان وما يكون، فسقت جمال الخزائن والأموال والسلاح أمامى وسرت فى أعقابها على هون وسكينة ووقار وسكون. وأبيت أن يمشى بين يدى إلا اثنان من الشاكرين لا يحملون بأيديهم حديدة، حتى التقيت بوجه ابن صالح بوجهى، وألقيت إليه السلام فى نفسى، وما يشمل عليه صحبى. فما سلم بعضنا على بعض إلا وشبهته بالوحش النافر، فاقتنصته بشرك الإيناس الوافر، فاتفقت منى ومنه الضمائر، وخلصت بحمد الله منى ومنه السرائر، فما أشرق وجه نهار إلا زاد وجه سكونه إشراقا،

(١) سورة القصص الآية ٢٩.

ولســان ثقته انطلاقــا، وأجرانى الله على جميل صنعه بنجاح المســعى وإصابة المرمى، وكــون التوفيق عذبة للواء عزمى، والصواب رائدا لمرامى همى؛ ووفق ابن صالح بحســن خدمته توفيقا أبان معه عن صالح عمل، وصافى اعتقاده، وقطع به الشقة إلى قطع ألسن أعدائه وحســاده، وأتاح الله تعالى لى وله من الخير ما يقصر دون جزء من أجزائه ألســن الشكور، ولو أنى تدبرت برأى كنت به مدبرا، وجمعت بين الضدين فى دار ودرت لها متدبــرا، لكانت الصيحة الواحدة إذا وقعت تعقــل رجلى دون تجاوز حلب عقالا، ولا تذر من رحلى عقالا، ولكن الله تعالى ســلم إنــه عليم بذات الصدور، وهو المحمود على نعمة المشكور.

ولــا نزلنــا بمعرة النعمان لحقنا نخبة وجوه العســكر البغــدادى[1] متوجهين لتلقينا لما امتد بهم من شــوط الانتظار لظنهم أن الذى يوعدون به من إراشــة سهم تعليل بالغرور على مــا جرت به عادة ملوكهم ووزرائهم فى تلك الديــار، غير عالمين أن الدولة العلوية أدامها الله تعــالى منزهة عن التعليل بالغرور آخذة بالتأدب بأداب الله تعالى وقوله ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾. ولاحظونــا متوجهــين إليهم ثقالا بالمال والخيل والسلاح وهم غير مصدقين، وعاينونا منطلقين نحوهم وهم من ربقة الارتياب ليســوا بمطلقــين، ولما نزلنا بباب حلب أفضت ما صحبنــى من خلع ابن صالح عليه، فلم يشــتمل قبلها على خلعة حلت من السعادة محلها، بأن جعلت له ملابس الأمنة والقرار، ونزعت عنه أطمار الظنة وسوء الاستغفار، ونقلته من حيز المؤلفة قلوبهم إلى حيز من طهرت بماء المخالصة جيوبهم. وتمهدت على مضاجعها بعد أن كانت تتجافى عنها جنوبهم؛ ولما دخلت حلب جددت عليه من إيمان البيعة فى خدمة الدولة ما كادت تميد الجبال لثقله، وتتشــقق الســموات والأرض من حمله. وأخذنا نعد للانحدار إلى الرحبة عدته، ونمخض الأمــر جدا واجتهادا لتأخذ زبدته. ففى أثناء ذلــك ورد كتاب ابن مروان[2] يذكر فيه، ما

---

(١) يقصد بعثة من جند الباسيرى.

(٢) هو نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر. تولى ملك هذه الديار ســنة ٤٠٢ بعد ان قتل أخوه أبو سعيد منصور، وكان نصر عالى الهمة قد حسن فى عمارة الثغور وضبطها أثره. كما كان مقبلا على اللذات والترف فاقتنى من الأوانى والآلات ما تزيد قيمته على مائتى ألف دينار، وهو الذى وزر له أبو القاســم الحســين بن على المغربى الذى فر من الحاكم بأمر الله الفاطمى، ووزر له فخر الدولة بن جهير وزير العباســيين المعروف. وفى ســنة ٤٣٠هـ ســعى بقرواش بن المقلد صاحب الموصل لقطع خطبة الفاطميين، ولما قدم طغرلبك إلى العراق أسرع فى إهدائه أموال وهدايا عظيمة. وتوفى نصر الدولة سنة ٤٥٣هـ.

بلغه وروى فيه من المهم المتعلق به صلاح العباد والبلاد وطموس آثار ما ظهر فى الأرض من الفساد، وأنه كان من جملة من أجاب دعوة التركمانية الطاغية درأ لنفسه ومداراة لوقته، وظنا أنهم من أجناس البشر الذين يرعون حُرمة ويرقبون فى مؤمن إلا وذمة؛ فكشف الزمان له عن شرهم وغدرهم، وظلمهم وجورهم، وإطلاقهم الأيدى فى الأموال والحريم، وكونهم أينما حلوا كالريح العقيم، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، ما اقتضى التخلى عنهم والبراءة إلى الله سبحانه وتعالى منهم، وإنه سمع أن الذى وصل معى من المال يقل عن أن يبلغ به غرض، أو يقضى به لهذا الصمد الكبير مفترض، وكان ينبغى أن يكون جزرد مدا، وهزل ما جد الأمر به جدا، إلى غير ذلك من أقوال قالها، ومكاتبات من حبالها. فأجبته عنه بما هذه نسخته:

خطاب المؤيد إلى ابن مروان

وصل كتاب حضرته أدام الله جلالتها دالا عن كون وجوه السلامة بها مستهلة، وسحب السعادة لها منهلة. على ما تناوله منى لسان مثن بالشكر لأنعم الله تعالى على ذلك خطيب، وقلب إليه جل جلاله بإخلاص الرغبة فى إدامته قريب، وقرأته وفيمت مضمونه. وسألت الله جل ثناؤه أن يقوى لها على بلوغ الغرض فيما يرضيه عزما. وأن تجعل بينهما وبين التعرض لساخطة ردما، وأن يعضد رأيها بالتوفيق، ويهديها فى مناصبها ومساعيها لسواء الطريق، إنه على ما يشاء قدير والعسير عليه يسير.

فأما ما تصرف عليه من الاعتذار الكريم عما بدر من فعل نافى المعتاد من فعله سدادا ورشدا بالركون إلى الظالمين واتخاذه المضلين عضدا، وأن ذلك عن مهاداة أشهدوا بها حبه[1]. وملاطفات ملكوا معها قلبه، وأمور اقتضت أن تدفع السيئة بالتى هى أحسن. ويسلك بها الطرقة التى هى أسلم من كشف الغطاء وآمن، وأنه لم يزل يسحب على ظاهر المجاملة معهم ذيلا. ويعلق للمداجاة والمخاتلة حبلا، حتى فاض على قلبه - أحياه الله - بالمسار ما استفاض من شرهم فى الأقطار، وأحاط من سرداق نارهم بجميع الديار، فحينئذ أحجمت نفسه أن تلحظه من عيون الله سبحانه عين، وهو لهم فى ظاهر حالة يد وعون وهم شر أمة حملتهم أرض. واشتمل عليهم من المقايس طول وعرض، فرأى

(١) يقول ابن خلدون فى تاريخه جـ ٤ ص ٣١٦ أن نصر الدولة أحمد بن مروان كان يهادى السلطان طغرلبك بالهدايا العظيمة ومنها جبل الياقوت الذى كان لبنى بويه اشتراه من أبى منصور بن جلال الدولة وأرسل معه مائة ألف دينار فحسنت حالة عنده.

الإقلاع عنهم بريح الثقة بالله تعالى فى كون ما هم فيه متبرا، ووجود من يخوض ظلام ظلمهم من المسلمين صبح الفرج من عند الله سبحانه مسفرا. فقد عرفته وما ذاك إلا صنع من الله جميل له – أدام الله تمكينه – نزع عنه لباس عار وأشعره من نفى الظنة عن فضله وأدبه أحسن شعار، وليست ألطافهم وهداياهم مما ينبغى أن يستفز ذا حنكة، ومن يأوى من العقل إلى أدنى مسكة، فإنها مسمومة وأسباب القصد فى حسن المخاطبة بها معلومة، ولو طالت لهم يد – لا أطالها الله أبدا، ولافت إلا فى عضدهم عضدا –، لاستنابوا عن الألطاف والهدايا ما يرميهم الله به من قوارع البلايا والرزايا، وذلك أمر أوضح من النهار، يغنى عن إقامة دليل عليه بفضل الاستظهار. وأما ما ذكره من سكونه إلى مارأته الحضرة النبوية المقدسة خلد الله ملكه. ومجلس الوزارة السامى حرس الله عزه. من صرف العزم الكريم إلى هذه الجهة بما يهوى معه فى الثرى نواجمها، ويقطع ببأس الله تعالى براجمها، عصبية للدين وغيرة على المسلمين الذين أصبحت أموالهم طعمة لأهل البغى. وحريمهم عرضة للانتهاك والسبى. ووقوع التسيير إلى مستقر الأجل المظفر الذى هو لعارض هذا الداء الطب الرفيق، وله فيه الرأى المصيب والفكر الدقيق. وقوله إن ذلك من الأمور التى تقتضى أن يبذل فيها النفيس من كل ذخر، ويستلان فى أثناء بلوغ الإيثار فيها كل خشن ووعر. وأنه انتهى إلى كريم سمعه أن الواصل بصحبتى قاصر دون حد الكفاية، مقصر بالممتد من أيدى الرغبات عن بلوغ الغاية. وأنه أدام الله تمكينه حزبه من الأمر ما يحل من جلال هذا الأمر محل الدقاق ومالا مطار له فى هذه الآفاق، فأنفق عليه خمسمائة ألف دينار، وهو لها مستقل حتى انقاد له زمام حزنه وهو سهل، فقد عرفته، وهو يعلم خاصته والعقلاء عامة أن الذى تتحمله الحضرة المقدسة خلد الله ملكها فى كل سنة من مئوية الحرمين المحروسين وحدهما فضلا عن روابط الصدقات المتصرفة فى الأقطار إلى غيرها ما يقوم بإزاء مؤنة الملك المدل بنفسه المذل لأبناء جنسه. فكيف يتعاظمها فى هذا الباب الإنفاق. ولعل فى فضاء ساحة جودها تضييق الآفاق، وما هذا شىء يحرك النحيزة العلوية. التى فى موضوع علمها أن الدنيا أضغاث أحلام، وأن المكتسب من زبرجها متقشع تقشع ضباب وغمام. وإن كان فيما صحبنى قل ففيما ورائى بحمد الله كثر، وإن سال على ما يظن معى نهر فالذى يلينى بفضل الله ورحمته بحر، وما هنالك إلا سماء فتحت أبوابها فى يد تجود بالإطلاق، وأفق لا يضيق أرجاؤه من صدر منشرح بالبذل والإنفاق، وسيف لا ينبو حد عن عزيمته على ما يرضى الله تعالى فى مساطعه هؤلاء الكفار، الذين استحلوا ما حرم الله فما أصبرهم على

النـــار. وحقيق على الله بعد ذلك أن ينصر عمار مســاجده على الهدام، والمتوجهين نحوه بالطاعة على المتوجهين إلى الأنصاب والأزلام[1]. وأن ينجز لمحمد صلى الله عليه وسلم ما وعده فى أهل بيته ويجعل اليد الطولى والكلمة العليا لبنى بنيه إنه أهل ذلك ووليه.

وأما رسالته المتبخطرة فى أذيال لطيف عتبه، الدالة على راسخ ولاية الدولة- أدامها الله تعـالى- وصافـى حبه فقد وقفت عليهـا، وأنا أتوكل لها فى الجـواب أخذا بأدب العبودية أولا، وعنه فى الانتهاء والسؤال فى بلوغ الأغراض قياما بحكم المودة ثانيا، وأما القول فى معنى الولد رضى الله عنه المستشهد[2] بالباب الطاهر - خلد الله ملكه - الذى كان الناس على كلمة سواء فى حزن عليه وبكاء من الخليفة- خلد الله ملكه - الذى هو ولى النعمـة إلى أدنـى من كان وقعت عينه يوما عليـه مع الأمة، ووقوع الظن الذى إن لم يستغفر الله تعالى منه حق الاستغفار كان الظن مثقلا بعظيم الآصار والأوزار، إنه سنح رأى فى قتله ووقع تجوز فى ارتكاب المحظور فيه وفعله، فأنا استفتى عن المنفوع الذى قصد لنيله باكتسـاب هذا العار واحتقاب هذا الخزى مجموعا إلىالنار، أطعما فيما ملكت يمينه ليجازى فى صوب هلكه؟ أم فزعا أن يستنفر الرجال بصوت ملكه؟ وبالله أقسم يمينا برة أنـه لو اجتمع بالقاهرة المعزية - حرسـها الله تعـالى - ملوك الأرض الذين لهم القلانس والبرانس لما هجس فى صدر بشـر باعتقاد الملك فى أحدهم هاجس، ومعلوم أن بنى أبى طاهـر[3] الذى كان ملك بغداد بالأمس أحق وأولى فـى مكان هذه الرهبة لو كانت رهبة. وأجـدر أن يكونـوا مهلكين لـو كانت فى هلاك مرهوب منه رغبـة، لئن طلع من مطلع الخلافة الأموى والعباسى فلن يكاد يطلع منه الكردى والتركى وهذه والله حجة داحضة، وألسن الحق بالدفع لها من كل جهة معارضة، ولقد قام من اهتمام مجلس الوزراء العالى بذلك الشهيد رضى الله عنه فيما يريش سهمه ويصعد نجمه ويوجه كلمة ويقدم قدمه، ما لو كان أبود، حرس الله مدته، لما قام فيه بعض مقامه، ولاعتزم عشير اعتزامه، ولكنهما خانه المقدور وجرت بضد التقدير الأمور. فأما القول فيما جرى فى شأن من يقوم بالتعزية مـن دواعـى التقصير وأنه ندب لقضاء الحق فيها غـير الأثير الخطير، فلم يندب لها إلا

---

(١) الأصنام والأزلام فى الاصطلاح الفاطميين هم الذين اغتصبو حق على بن أبى طالب وأبنائه فى الخلافة فبنو أمية وبنو العباس هم المقصودون دائما بهذا الاصطلاح.

(٢) لم يرد فى كتب التاريخ ذكر هذا الولد المستشهد بالقاهرة. فلم نستطع تحقيق هذا الحادث الذى يشير إليه المؤيد.

(٣) سبق للمؤيد أن ذكر أن أبا على بن أبى طاهر البويهى كان يعيش فى القاهرة مكرما عزيز الجانب.

شريفان: إسماعيلي النسب والآخر صوفي المذهب فكلاهما ذو قدم في الرشاد، وحظ في السداد، ولو نظر إلى الحال بعين الرضا لم يجد معترض عليها تعرضا، وقد صادفا من قلة الاحتفال بهما ما لو عتب عليه العاتب لاتسعت فيه الطرق والمذاهب. وأما القول فيما كان المولیان الإمامان الحاكم بأمر الله والظاهر لإعزاز دين الله – قدس الله روحهما وصلى عليهما – يريانه له أدام الله تمكينه من حسن الرأى ويسوقانه إليه بالتحف والألطاف من الحسنى وما كان جعله بتنيس ودمياط في كل سنة من رسم الاستعمال، ومصير جميع ذلك منبت الحبال، منقطع الأوصال، فقد وقع الاعتراف منه للدولة ثبتها الله تعالى بالحظ الموفور من النعمة فهلا نص على مقام مشهود له في الخدمة كما قال إن الألطاف هي التي أخذته إلى التركمانية فنادى بشعارهم، وغالى في رفع منارهم، فإن كان تهاونه بخدمة هذه الدولة العلوية من حيث أنه لم يرعب منها كما أرعب من الجهة التركمانية فنادى بشعارهم، وغالى في رفع منارهم، فإن كان تهاونه بخدمة هذه الدولة العلوية من حيث إنه لم يرعب منها كما أرعب من الجهة التركمانية، فليسا سواء: جار سليم جانبه مأمون، وجار غدار خئون. وقبل وبعد. فإذا قد وفيت بالإجابة عن هذه الفصول من حيث لم يسعني السكوت عنها والقعود عن فرض خدمة ولي نعمتي – صلوات الله عليه – فيها فإنني أنهي الحال في جميعها في أحسن المعاريض، وأتوصل إلى نفي الشوائب منها بالتصريح من القول والتعريض، وأبلغ في خدمته نهاية المستطاع، وأنزل على حكمه نزول الأشياع والأتباع، ثم أرجع إلى ذكر هذه النائرة التي وقعت في الأذيال وكدرت المشارب من العذب والزلال، فأقول لم تكن نضبه المكاتبة لحضرته مشعرا لها أنني متوجه بين ظهراني الجمهور. المؤلف بينهم حسائك الصدور، الذين أجمعوا أمرهم على مواقعة المحذور، مستسلمين، فإما لهم وإما، عليهم للمقدور، إلا ليجيبني بذكر ما استقر عليه رأيه – أعلاه الله – مساعدة، والكون مع الجماعة حرسهم الله تعالى يدا واحدة. ورأيته قد طوى ذلك طي الكتاب، وقصر الجواب على لطيف العتاب، وما أعطى المشورة المباركة فيما هو عين الصواب، وجميع ذلك مقبول وعلى الأحداق محمول، ولكن لابد من أن أستعلم إن هو أدام الله تمكينه في الإنجاد والإرفاد والمساعدة على بلوغ المراد، ليقع السكون إليه، ويعقد الخنصر عليه، فإن أنعم بالإبانه عن شرح ما يعتمده. وتفصيل ما يراه ويعتقد، قويت المنن وزالت الظنن، وكان كل منا لعدوه يقارع. وعن حريمه يمانع. ولنفسه يمهد، وفي صلاح شأنه يجهد، وإن أخلد مخلد إلى إظهار تعزز بهم

وتعلق بسببهم كان معلوم أنه يغالط نفسه بهذا المقال، وأن مقضى سعيه فى مشاركتهم إلى ضلال، وأنهم إذا أمكنت الفرصة لا يرعون حرمه، ولا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة. فإذا كان معنا ومن جملتنا فآية ذلك أن يحذف من المنابر اسمهم، ويغير رسمهم، وينادى بالشعار العلوى، ويخلق فوق المنابر بالوسم المستنصرى، ليأتيه من الخلع والتشريفات والألوية والسمات ما يعتاض معه النور عن الظلمات، وهذه زبدة الكلام، وثمرته الخارجة من الأكمام. ولحضرته السامية الرأى العالى فى الوقوف على ما كتبت به الإجابة عنه – بسار أبنائها ومتجدد مراسمها إن شاء الله – كتابى.

خطاب آخر إلى ابن مروان على يد وسيط

ولم أزل أراصد حالة تفتحنى للمواصلة وتهزنى للمخاطبة حتى ورد كتابه إلى مجلس الوزارة السامى بما ورد. وأمرت بمكاتبته ومكاتبة مجلس الإمارة. فكأنى نشدت فى ذلك ضالة، وأصبت غنيمة، وكاتبتهما جميعا بما ورد جوابه على يد حاجب متقرب. وأنا علم الله مسرور بما وشجه الله بيننا فى المواصلة فى الحرمة، وكشفه من رتاج الحشمة. لما استقر علمه عندى من تعصبه وتدينه بدين الولاء لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصه على خدمة العلوية – أدامها الله تعالى – التى من لبس حللها وتفيأ ظلالها فقد اتخذ مع الرسول سبيلا، ووجد إلى قصد النجاة دليلا.

وبعد فإنى أريد الأخذ معه فى الحقائق التى لا يشوبها شىء من الادهان وذلك أن مجلس الإمارة كان حدث له رأى فى مجاهرة الحضرة العلوية كمثل رأيه فى مواصلة الجهة التركمانية، وكان التعجب من الاثنين يكثر، والقلب عن مصدر مثلهما عن معدن الفضل والرأى والقيام فى الرياسة ينفر، فلما كان فى هذه المدة القريبة ورد كتابه بما هو بمثله أخلق وبفضله أليق. مظهرا للعتبى قائلا للحسنى، ومشيرا بما يشير به الألمعى والمكين فى مشورته ورأيه القوى. فعلم أن الذى فاء به إلى الحق بعد أن ثنى عنه عطفه جانبا، وكساه كسوة الرضا عقيب أن ذهب بلا سبب مغاضبا، فهو الوسيط المبارك الأستاذ الجليل الجامع فى ذلك بين قضاء حق صحبته وخدمة الدولة العلوية ادامها الله تعالى من لبس جميلها فى صميمته.

ثم إننى كوتبت من مجلس الوزارة بمكاتبته متشكرا لذلك على حميد الرجعى وله فيه على مشكور المسعى. وأسوق الكلام إلى ما أنا متوجه فيه من الأمر الذى أستعين بالله تعالى فيه وأتوكل عليه. وكون ذلك متعلقا بالصغير والكبير، والحاضر والبادى.

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ فى خلوص الضرر إليه إن قعد عن النصرة. وسلك فى وادى الغفلة والغرة، فورد الكتاب بما نكب فيه عن القصد الذى أردته، والمعنى الذى قصدته، وهل له معنا يد تطول إلى مكاشفة القوم ومناجزتهم، ومساعدة على ما لعل الله يتعس جدهم، ويفل معه حدهم، أم لا؟ وعدل فى الجواب إلى معاتبت ومشاورات وأمور قد ضاق الأمر عنها واختنق الزمان فيما نحن بصدده دون الإعادة والابداء فيها. ولما كانت الصورة هذه. ووجدتنى لم أحصل على بيان من جهته مع عجلة حفزتنى ومسيرة لزمتنى وأمر يكاد ينكشف عنه الغطاء، من دون شهر عظم الله للإسلام والمسلمين عائدته، وصرف إلى المفسدين فى الأرض عادته، أجبت عن كتاب حضرته بما هو واصل بوصول هذه المخاطبة، فتقدم الأستاذ الجليل بشرح مضمونه له، والذى أقول له فى هذا الجواب إن مجلس الإمارة إن قبض عن مملأة الجماعة فى هذا الوقت يد نصرته، وهم قوم حركتهم القرائح والنحائز لملابسة هذا الخطر وممارسته، وبعيد أن يجمع الزمان أمثالهم ويؤلف بين المتفرقين منهم، كان على عين الغلط.

ثم أقول فى هذا الفصل قولا يجلوه برهان العقل، هب أن التركمانية لكم على ما يظهرون سلم، والتواصل بينكم وبينهم حق وصدق، فما هنالك عدو يقصد غيرنا ولا مملكة تطلب سوى مملكتنا، ألستم فى مدرجة طريقهم إلينا، وعبورهم عليكم إذا أرادوا قصدنا، وأنتم بين أمرين: إما أن تلقوهم تلقى الخادم لمخدومه والصديق لصديقه، وتمكنوهم أن يجوسوا خلالكم، أو لا تأمنوهم فتعتصموا بحصونكم عنهم وتتمتعون منهم، فإن كانت العزيمة الخدمة والتلقى فقد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين، ومعلوم ما جرى بالأمس على ابن الملك أبى كاليجار الملقب بالرحيم[1] عند تلقيه لهم وإحفائه بهم وقصده لخدمتهم. من بعد توثيق مدعى الخلافة[2] له بالأيمان المغلظة والمواثيق المؤكدة فحين دخل مخيمهم نشب فى الشبكة من فوره، فما رعى فيه دين ولا يمين، ولا عرف للخليفة الذى توسط الحال قدرا، مع المعلوم من حال الرحيم – المرحوم اليوم – خلصه الله فى كونه لا يأوى إلى

(١) بعد أن دخل طغرلبك بغداد قامت فتنة فى المدينة بين العامة وبين عسكره فقبض طغرلبك على الملك الرحيم بدخوله. وأمر باقى عسكره بالسعى فى أرزاقهم بعد أن كان الملك الرحيم ممن شايع طغرلبك ورحب بدخوله بغداد (راجع ابن الأثير جـ ٩ ص ٤٢٥ ومرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٧).

(٢) لا يعترف الإسماعيلية بخلافة أبى بكر وعمر وعثمان ولا بخلافة الأمويين ولا العباسيين ويقولون إن هؤلاء جميعا كانوا مدعى الخلافة، والذى يقصده المؤيد هنا هو الخليفة العباسى القائم بأمر الله.

سيد ولا لبد، وإنما له قوت لا يميته ولا يحييه، فكيف من يؤذن بالأموال والخزائن ووراءه الحصون التى هى من أمهات الحصون والبلاد المعمورة المأهولة، فهذا باب؛ وإن كانت العزيمة الباب الثانى فى الاعتصام منه فقد دمر الله تعالى إذن على المهاداة والمشابكة تدميرا، وصارت كما قال الله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1] وإذا كان مفضى الحال إلى ذلك فمالكم لا تستقبلون من الأمر ما توجب الضرورة أن تستدبروه فتكونوا كما قال القائل:

رأى الأمر يفضى إلى آخر ... فصير آخره أولا

ولم تستغنمون هذا الوقت والأيدى معكم مجتمعة، ولكم فى الأرض من أهل الموافقة والمرافقة مراغم كثيرة وسعة. ووراءكم من الدولة العلوية - أدامها الله تعالى - ردء عظيم وقد قيل:

انتهز الفرصة أما مرت ... فربما طلبتها فأعيت

وهذا مما لا خفاء به على عاقل ووجه العقل الذى لا يحجبه حجاب باطل والسلام.

أما نحن فنعتقد أننا إلى أن نرث ديار الظالمين أقر منهم إلى أن يرثوا ديارنا. بحجة من قوله ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[2] وما أرى وسم الصالحين أليق بأحد ممن جده محمد صلى الله عليه وسلم، وأبوه على عليه السلام، وديارة روضة العدل والأمن. والحرمات متماسكات به، وصدقاته فائضة على الكبير والصغير. فإذا كانت النصبة هذه فلا خلاف لوعد الله سبحانه، فهذا باب من حيث الثقة بالله والتصديق لقوله وتجنب الشك فى وعده ووعيده. فأما من حيث الرأى: فإن الذى أقدره الله سبحانه وله الحمد على أن يلبى دعوة الأجل أبى الحارث ومن صحبه لقبض المال والعد والخيل بلا حساب ولا كتاب. أقدر إن ضغطه والعياذ بالله أمر، ودنا من تلقائه شر، أن يفتح من خزائنه وخزائن آبائه عليهم السلام خلجان الأموال ويستجر بها من الخيل والرجال ما يذر فضاء البرارى بالقنا مشجرا، وينشى سحاب السيوف لندماء ممطرا. وأسأل الأستاذ تأمل ما ذكرته بعين بصيرته وتصورته الأمر فيه بصورته. فإن علم تزييدا منى فيما أوردته أو عدولا عن حد نصفة فيما سردته فنّدنى فيه. وإن تكن الأخرى أشار فيه الله بالواجب الذى يتقرب إلى الله تعالى بصلاح المسلمين فيه أولا وصلاح حاحبه

(١) سورة الفرقان آية ٢٣.

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٥.

ثانيا والاستحماد إلى الدولة أدمها الله ثالثا والانتداب فى ذلك الاعلاء بنيان ما أسسه، واستثمار ما غرسه إن شاء الله تعالى.

خطاب المؤيد إلى جماعة الأتراك الذين مع البساسيرى

وخوطب الواردون من العسكر البغدادى على العودة إلى الرحبة ليبلغ شاهدهم الغائب باكتشاف ستور الشك عن وجه ما يرتقبون، واقترب حصولنا بين ظهرانيهم، فعادوا بعد أن جعلنا بيننا وبينهم موعدا فى اللحاق بهم محصورا، وقدرا من الأيام مقدور. وكاتبت جماعة الأتراك بما نفذ صحبتهم وهذه نسخته:

كتبت أطال الله بقاء الإخوان الاصفهلارية والحجاب وما يزيدنى دنو الدارمنهم إلا شوقا إلى لقائهم ومشاهدتهم، وصبابه إلى محادثتهم ومفاكهتهم، والله تعالى ييسر من الاجتماع أجمعه لخير الدارين والفوز العظيم بحظ الحسنين إنه على ما يشاء قدير، وغير خاف عنهم ما كان من إنعام مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأكرمين بالاحفاء بهم والتلفت بوجه المراعاة إليهم رغبة فيما يردهم إلى أهلهم وديارهم أولا. وحرصا على أن يدخر منهم خير ذخيرة من الأنجاب والأنجادالذين هم من أرباب الملوك ثانيا، وتعرضا لما عند الله الذى هو خير وأبقى فى انتزاع دماء المسلمين وحريمهم من نشب الهلكة والهتكة ثالثا وهو أهم الأبواب، ولتجرد عزيمته قرنها الله بالسعادة أقوى الأسباب. وما قام له وزيره من العصبية فيما يرد كهام سيوفهم محددا، وملبس عزهم بعد الأخلاق مجددا. وأن ماهناك بحمد الله ومنه ضرورة تجعل المسنون فى هذا الفعل مفروضا، ومجهوله معروفا، إذ كانت الطاغية التركمانية من حيث أخذت عصا التسيار، وإلى حيث انتهت من الديار لم تنازل ملكا ممولا ولا سلطانا معمما بعز الاتساع فى العسكر والجيوش مخولا، ولم تنزل من غير منازل الغدر والخديعة منزلا. وها هى بغداد لم يذهب ريحها إلا بأن فشلتم وتنازعتم فى الأمر. فدب فيما بينكم فى تفريق الشمل دبيب المكر، وكمثلها تسلطهم على ما تسطوا عليه من مملكة ملك أبى كاليجار فإنه نتيجة الخلف بين أولاده والشجار، وقد هموا خذلهم الله بشيراز غير دفعة أن يأخذوها فبلوا من عامتها بكسر النواجذ والأنياب[1]. وأفرشوا فى القاع طعمة للذئاب والكلاب، وإذا كانت البلاد المصاقبة

(١) بعد وفاة الملك أبى كاليجار البويهى انقسمت مملكته بين أبنائه فقد تولى الملك الرحيم أبو نصر خرة (وقيل خسره) ملك العراق واستولى أبو منصور فلاستون على إقليم فارس وكانت البصرة من نصيب أبى على، ولكن طمع الملك الرحيم فى أملاك إخوته، فسير أخاه أبا سعد لانتزاع فارس من أبى منصور فانهزم أبو منصور والتجأ=

لمحـط رحالهم ومعترك خيلهم ورجالهـم باقية فى وجوههم كهيئاتهم أقفالا. وإذا وردوها خفافـا صدروا بالقتـل والإثخان ثقالا. فأنى لهم بالبلد البعيـد الذى دونه مجرى العوالى. ومجرى السوابق ومقط السيوف بكل قاطع للهام فالق. وهذا أمر جلى برهانه عقل. وسوى هذا فممتنع فى عدل الله سبحانه أن يورث الظالمين الأرض بأسرها ولا تخلص زاوية يأوى إليها مظلوم ويأمن فيها مذعور. وما يكاد يعرف ما هذه سبيله غير هذه المملكة المحروسة ثبتهـا الله تعالى لمالكها. ويمتنع أيضا فى عدله أن تكون زاوية من الأرض هى جزاء النبى صلى الله عليه وسـلم من ملكها ومكان التسـمية لعلى وفاطمة والحسـن والحسـين عليهم السلام على منابرها تبتزها والعياذ بالله أيدى الظالمين. ويغلب عليها شرار العالمين. ويمنع أيضا أن تكون مملكة عمارة الحرمين الشـريفين من أموالها وحياة أهلها والمجاورين فيهما متماسـكة بصلاتها وميراثها. وفريضة الحج مؤداة تحت حمى مالها وسـيفها. يفضى الله بها إلى قوم هم من أبناء الشـيطان. لا أقول من العشـائر، يعتاضون عن التكبير بالكبائر. إن الله سـبحانه أغير على بيته وأشـفق على حرمه من أن يمكن معاولهم بالنقض، ويبسط أيديهـم فيه بالنسـف والنفض، وإذا كانت هذه الأسـباب ثابتة الأصـول داخلة فى حكم المعقول على أن قصد الحضرة المقدسـة فيما فعلته ما تحمى به الإسـلام والمسـلمين، وترد عليهم ببأس الله تعالى بأس القوم المجرمين. وما ينهض السادة حرسهم الله تعالى من صرعة البطوح فى التربة، ويقر عيونا تطمح إلى جهتهم بالأوبة. فيرجعون وقد أيدهم الله سبحانه بنصره، وجعل لهم معقبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم من أمره.

=إلى اصطخر وجمع جيشـا هاجم به قوات الملك الرحيم فى الأهواز وذلك فى ذى القعدة من سـنة إحدى وأربعين وأربعمائة. فانهزم الملك الرحيم وسار مع أخويه أبى سعد وأبى طالب إلى واسط. واستولى عسكر فارس على الأهواز، وفى سنى اثنين وأربعين وأربعمائة عادت عساكر فارس التى مع أبى منصور عن الأهواز فدخلها الملك الرحيم ثم سار أخوه أبو سـعد فملك فارس فى شـهر رمضان، فاسـتعان أبو منصور بطغرلبك فأرسل إليه مددا هزم به الملك الرحيم فى الأهواز. وفى سـنة أربع وأربعين وأربعمائة وصل أصحاب السـلطان طغرلبك إلى فارس وبلغوا إلى شيراز ولكن أبا سـعد بن أبى كاليجار هزمهم كما اسـترد الشيرازيون مدينة بسا وأعاد الدعوة إلى الملك الرحيم. وفى هذه السنة سار الملك الرحيم إلى البصرة وانتزعها من يد أخيه أبى على الذى التجأ إلى طغرلبك بأصبهان. كما اسـتولى الملك الرحيم على أرجان وتستر، وفى السنة التالية استطاع أن ينتزع أبو منصور شيراز من يد أخيه أبى سعد وخطب لطغرلبك، وفى سـنة سـبع وأربعين وأربعمائة سار فولاذ الديلمى صاحب قلعة اصطخر إلى شيراز وأعاد الدعوة إلى الملك الرحيم ولكن خشـية أبو سـعد فاتفق مع أخيه أبى منصور على انتزاع شيراز منه باسم الملك الرحيم. وظل الإخوة فى شقاق إلى أن تم أمر البلاد كلها لطغرلبك وقضى على الدولة البويهية (راجع بن الأثير ومرآة الزمان وابن خلدون فى مواضع مختلفة) فالمؤيد يشير هنا إلى هذه الاختلافات التى كانت بين أبناء أبى كاليجار والتى سببت زوال ملكهم.

ومعلوم أن ممالك مولانا أمير المؤمنين عليه السلام إنما شرفت على الممالك بإشراق نور العدل فيها، وامتداد ظله على حواضر الرعية وبواديها، وأن غرضه فيما يرجو أن الله يفتحه على أيديهم أن يكون داخلا فى حيازه، مطرزا بطرازه، مغسولة من درن الظلم أثوابه، مقطوعة من سببه أسبابه، وهذا باب يتعلق بالسادة - حرسهم الله - أمره، ومنسوب إليهم خيره وشره، إنهم إذا بسطوا أيدى الاشتطاط التى لم يزالوا باسطيها عند طلبة الأقساط. ولم يأخذوا فيها سبيل القصد وسنن الرشد، حملوا النظار فى التحميل على المركب الصعب، واضطروا من ظلم الرعية إلى فادح الخطب، ثم لم ينتج ذلك الإ زلة النظار وشمول خراب الديار، فحينئذ والعياذ بالله نكون قد ضللنا سعيا وغيرنا من حال الرعية شيئا فلا يقع فرقان بين المملكة الغزية والدولة العلوية، وينبغى لهم حرسهم الله تعالى أن ينذروا لله سبحانه نذرا، ويعهدوا له ولوليه عليه السلام فى أرضه عهدا، إنهم إذا ردهم الله إلى ديارهم جانبوا طريق الإسراف، وسلكوا فى طلب واجباتهم مسلك الإنصاف، لتثبت قدم الناظر فى أمرهم إذا طلب منه ما يمكن عليه الثبات، ولم يستنهض لظلم الرعية فيملك شملهم الشتات، ويعرض لحبل العمارة بتفرقهم البتات، وأن يكتبوا بذلك مواضعه يضعون خطوطهم فيها ليلقانى أبو الفوارس الحسن بن عبد الرحمن فى الطريق بها فاجعلها تحفة لحضرة الإمامه - خلد الله ملكها - من جهتهم وفاتحة لكتاب خدمتهم، ولتفرح حرس الله مجدها بذلك حين تعلم وصول طرف الحبل من معدلتها إلى ديار العراق من بعد ما تجافت المعدلة عنها ونبت، وأنه ستهتز أرضها كما قال الله سبحانه ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1] ويتصوروا أنهم إذا عقدوا على ذلك ضمائرهم. وصفوا فيه سرائرهم، كان حقيقا على الله أن يكون لهم فى متوجههم معينا ولنصرهم على عدوهم ضمينا إن شاء الله تعالى.

المؤيد وابن وثاب[2]

وتوجهت بعد ذلك إلى ابن وثاب لأخذه إلى مساعدة الجماعة على ما هم فيه وإفاضة الخلع عليه وطويت إليه ثلاث رحالات، وطوى هو مثلها من بلده ليكون الملتقى على شاطئ

(١) سورة الحج آية ٥.

(٢) شبيب بن وثاب النميرى صاحب حران وكان يدعو للفاطميين هو وقرواش بن النقلد صاحب الموصل ولكنهما قطعا خطبة المستنصر سنة ٤٣٠هـ وخطبا للقائم العباسى ولكنهما أعادا الخطبة للمستنصر فى ذى الحجة من هذه السنة، وقد ذكرنا أنه كان فى حروب مع ثمال بن صالح على الرقة ولعل هذا هو سبب تخاذل ابن وثاب عن مساعدة المؤيد فى أول الأمر.

الفرات، فلما حصلت على شاطئ الفرات مغربا وهو على مثله مشرقا، وقعت المماسكة فى حال عبور أحدنا إلى الآخر، فرمت منه العبور إلىّ بحجة السلطان - خلد الله ملكه - وأن خلفاءه محل القصد ومكان الورد، وعلى أن يكون التقرير والتحرير فى مضربه، والخروج يكون منه، وهو مشتمل على خلعه، وتوقف توقفا خشيت أن داعيته الفرق من خيل من كان يصحبنى من جهة ابن صالح، فراسلته أقول له: «إن توقفك هذا إن كان أنفه من أن تطأ بساط السلطان - خلد الله ملكه - فهو غلط إذ لم يزل بساطة لأقدام الملوك موفقا، ولأفواههم مترشفا، وإن كان خيفة من الخيل الذين هم معى لكونهم خيل من بينك وبينه عداوة، فاعبر إلىّ مستظهرا بثلاثة من خيلك تأخذهم معك مكان كل واحد من خيل غيرك».

فامتنع عن ذلك بسوء رأى منه ومن أهل مشورته خبطه، وكره الله انبعاثه لخير ما دعى إليه فثبطه، ونكلت عن العبور بحكم تجهزى فى الأمر العظيم الذى أنا مندوب له، والحذر من مكيدة تتم علىّ فيه لا اعتصاما بعصم السلطنة ولا احتجازا بحاجز الاعجاب والنخوة.

وكاتبت الوزير بما جرى منه فكان جوابه التفنيد لى فى رأى القعود عنه، والتذكير بمدافعتى فى معنى ابن صالح مشورة تخفض الجناح له، والقول إنك دخلت فيما كنت لغيرك عليه لوّاما، والتمثيل فيه بقول الله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾[1] ولم يأو من النصفة إلى ركن شديد يميز له بين ابن صالح وابن ثاب، وأن ابن صالح بأذيال الدولة متذيل، وبسربال الرهبة منها بحكم صقب المجاورة متسربل، لكونه بالعدوة الدنيا، وابن ثابت بالعدوة القصوى، وأن هنالك أسبابا كثيرة من العقل والغبطة والأبهة والأنفة مجموعة إلى الحدة والمكنة تقبض عن موضع الخيانة عنانه، وتضم دونه أطرافه. وأننى ما استرسلت إليه بعد هذه الأحوال كلها إلا بمقدسات من الكتب وتوثقات وتقريرات حصل الجأش منها على موطئ قدم من السكينة وموطن من الأمن والطمأنينة، وأن ابن وثاب بالضد من جميع هذه الوجوه لكونه فى سكرة الغرة وغمرة الشبيبة واشتماله على لباس تكبر الصعلكة، وكونه وثابا كاسم جده، لا يفكر بما يأتى ويذر فى طلب وجده، وأن العقل لا يقتضى استنامتى إليه بالبديهة دون خبر لأحواله ولا سبر لأفعاله، وأن لا أهدى نفسى لشركه صيدا، أو أصلح لرجلى من تمسكه بى قيدا. فلا آمن أن يتحف

(١) سورة التوبة آية ٣٧.

التركمانى خذله الله منى بأجل التحف، ويأتيه بأسنى الطرف، ويضرب من الرحى التى نهضت لإدارتها على القطب، ويرسل سهمه فى جسم ما توجهت لصلاحه نحو القلب، إذ لم تزل عين البغضاء تريك الحسن بصورة القبيح، وعين الرضا تريك المسكور فى زى الصحيح.

المؤيد فى الرحبة

ولما رجعت عن ابن وثاب على الصفة التى أوردتها سرت إلى الرحبة وابن صالح وبنو كلاب جمعا معى فى الصحبة. وهو يخدم الخدمة التى لا مستزاد عليها ولا مستضاف إليها، فى حفظ الخزائن والأموال. وتيسيرها مسورا عليها مخندقا بأبطال الرجال، إلى أن لقينا أبو الحارث والعسكر البغدادى على مرحلتين من «الرحبة» وإذا هم قد ضربوا مصافهم، وضرب خيلنا مصافهم، فرأيت العسكر تلاحق ميمنته نحو الجبل وميسرته طرف الفرات، وسمعت الأبواق تخرق الحجب بالأصوات، ورأيت أقطار الهواء كأنها صبغت حمرا وصفرا من أصباغ خوافق الرايات. ودخلنا الرحبة دخولا عليه من آثار السعادة وسم، ولله تعالى فى ضمنه مشيئة يمضيها فى صلاح عبادة حكم، وتجاوزناها إلى شاطئ الفرات فنصبنا الخيام، وحللنا عنده من خيلنا الحزام. ووسطت جمعا جمع كل قاطع زقاق. وكل جلال من الناس ودقاق. تراموا إلى تلك البقعة من كل آفاق. كرديا وتركيا وعجميا على اختلاف الجنس، وعربيا من كل طامع ذى ناب من الطمع حديد، ومقامع فى الطلب من جديد، فأخذت أخلع على أمراء الأعراب والأكراد الخلعة التى تبهر عيون نظارها، من حيث لم يسبق لهم عهد بمشاهدة نظائرها وأمثالها. إذ كانت الخلع العراقية لا تتجاوز أطمارا لا تجرى فى مضمارها. فكلما تجلى للأبصار شىء منها تجلى العروس من خدرها. ارتفعت ضجة الوحش من الركابية والسابية والحواشى العراقية بالدعاء للدولة العلوية، والفحشاء من الشتيمة للجنابة العباسية. ونصبت فى خلال ذلك ديوان التفرقة على الأتراك، وجعلت ما لهم فى الصرر مصررا ولصناديق بين يدى مودعا. وفتحت صحيفة الاستحلاف ليم بأيمان البيعة جوقة على أن كل طائفة إذا استوفت عليها يمينها، وفىّ حقها من المال. وكان منهم من يحلف ويأخذ الذى يأخذه بالشكر ويضعه على الرأس والعين على ما جرت به عادة أخيار الناس. ومنهم من يستقل القدر الذى يعطاه ويرده. ظانا أن الذى يصير إليه من بعد استخلافه فهو كالجزاء عن

يمينه التى أقسم بها وهو محقوق بأضعاف ما عرض عليه معها، فلم تزل عادة السوء فى هذا الباب تدب من قليل فى كثير وتنشر من صغير فى كبير، حتى قويت شوكة هذه الضلالة. وتفرعت أصول هذه المقالة، فحينئذ نصبت فى القوم خطابة أصاب سهمى فيها إصابة، وقلت: عفى الله عنكم، اعلموا أنه ما قبضت الأكف منكم قط على مال هو أجل من هذا المال الذى تأخذونه، لأنكم ما استفدتم دينارا من دياركم إلا ما طرقته مطارق كسر الكعاب، وضرب الفكوك وقلع الأنياب. وهذا المال مال ابن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ووصيه عليه السلام، وجبايته من أجل الوجوه والأراضى، فالدينار منها عوذة يشتفى بها المرضى. وهذا باب ينبغى أن تعلموه أولا، والباب الثانى أن فريقا منكم قد خيل إليهم أن هذه الميرة التى أنعم بها السلطان خلد الله ملكه عليهم متى قابلوها بتقليد بيعته، والدخول فى زمرة أوليائه وشيعته فقد وفوا بحكم مجازاته عنها وخلعوا عن رقابهم ربقة المنة له فيها، والسلطان خلد الله ملكه يريد أن يؤثر فى حالكم بحسن النظر تأثيرا لا يريد منكم جزاء ولا شكورا، وقد رأيت من الرأى مسامحتكم باليمين ليكون طوق منة السلطان – خلد الله ملكه – فى رقابكم باقيا، ولتمسكوا عليكم فعلكم الذى يقوم لفعله مكافيا.

ثم إنى أغربت عن تحليفهم جملة فسقط ما فى أيديهم وعادوا للشقاعة والضراعة فى استحلافهم، وكان قد قام فى نفوسهم أنهم قد وجدوا علىَّ مضربا بقولهم إن المبذول لهم من رسم البيعة يقل عما يستوفى عليهم من أجله إيمان البيعة، وأنهم يأخذوننى به إلى أن أنتهى معهم إلى آخر سومهم خيفة من وقوف الأمر فى المبايعة، فأكون بصورة من ضيع مالا ولم يصطنع رجالا، وما ظنونى أسلك فى شعب المسامحة باليمين وأبسط إلى جسم المنون علينا به من يمينهم بمنن تقطع الوتين. ولما فرغت من شغل ذلك خلعت على أبى الحارث أرسلان فى يوم مشهود وقرأت عهده على الناس وهذه نسخته.

عهد البساسيرى

من عبد الله ووليه معد أبى تميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى صاحب الجيش: سلام عليك. فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما (أما بعد)

فالحمد لله الذى حببنا ذوى قربى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قوم يبتغون بمحبتنا إليه القربى، ويؤتون بها أجر رسالته ليوفيهم الله أجورهم ويزيدهم من فضله فى العقبى، منهتين إلى أمره سبحانه إذ قال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] فهم الواصلون بسبب ونسب لا ينقطعان أسبابا وأنسابا، المتخذون جناب المتقين فى جنات عدن جنابا ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾[2] يحمده أمير المؤمنين أن جعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، ونفذ فى أقاصى البلاد مجردة بولائها عليهم ويسأله أن يصلى على محمد جده خير علم للنجاة أقامه الله تعالى لهداية المهتدين، وقطع بسيفه دابر الظالمين المعتدين، وعلى وصيه على بن أبى طالب وزيره فى مغيبه ومحضره، ونكاس الفوارس فى بدره وخيبره، الناطق بالحكم على منبره، وعلى الأئمة من ذريته العالمين العابدين ذرية المناجى بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾[3].

ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى ديار العراق، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى فضاء الآفاق، المشمرين عن ساق الجد فيما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ناضرة العود، مغسولة درجها من وطىء أقدام الأنجاس بماء الإيمان، مقصورة فروقها على الثناء منها على أهل العدل والإحسان، رأى أمير المؤمنين – وبالله توفيقه – أن يطوقك طوق ولاية رجالها، ويقيم على رأسك لمزية التقدمة راية جمالها، وينوط بك أمورها كلها، ويكل إليك عقدها وحلها، وهو يوصيك بتقوى الله التى يفوز المرء فى مآبه، وبجنتها يحتمى من أليم عذابه، والنظر إلى الدنيا بالعين التى بها نظر أولياء الله الذين هم فى جناته يتنافسون، تشبيها لها بالجيفة المؤذية روائحها والكلاب عليها يتكابسون. فاجمع نفسك تحفظا من ضررها، وشمر ثوبك تصونا من وضرها، واتخذ من شريعة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم عوذة تعيذك من شرها، وفلكا تمتنع بركوبها من الغرق فى بحرها. والصلاة الصلاة فكن فى إقامة فرائضها وسننها جاهدا، وللشيطان فى الوفاء بحقوقها مجاهدا، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجدا» واعلم أن شريعة الإسلام هى سلم إلى دار السلام، مراقيها أركانها فالزم المراقى، تنج من هول المطلع إذا بلغت النفوس

(١) سورة الشورى آية ٢٣.

(٢) سورة النبأ الآيات ٣١ – ٣٣.

(٣) سورة الشعراء الآيات ٢١٧ – ٢١٩.

التراقـــى، واجتنـــب ضلة المحارم، وعقلة المظالم، وانظر إلى أبناء الجنس الذين تسوســـهم وتروسهم المضمومة إليك جسومهم ونفوسهم. أن تثلم بغير ما كسبوا مالا منهم أو عرضا. أو تحدث فى ما ضمنك الله تعالى من عهدتهم نقضا. إن المؤمن فى دنياه لفى نومة محصولها اليقظة، فليخش من ســوء صنيع تحفظ عليه الحفظة. والله تعالى يســددك لخير ما يحفظه الحافظون على عباده العاملين الخير لخير ما يؤملون، المتوجه إليهم فحوى قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]. هـذا عهد أمير المؤمنين إليك بولاية الرجال بشيرا بين يدى ما يتلوه عندما يأذن الله سبحانه به من فتح الأعمال، ودليلا على نصر من الله جل جلاله تجردا لحســامه. وعنوانا لكتاب من يد اصطناع وليه تفض ختامه. تأذن به إليك عاجلا. وأرسله طلا من سماء إنعامه يتبعه وابلا إلى أن يأتيك مــن تقليده ما تلقى به إليك المساعد تقليدها وتصدق معه لــك الأمانى مواعيدها، فالمدرج به إلى ذروة المجد أمكن مكانا، وأثبت أركانا، وأقوى أســاســا، وأزكى غرسا؛ فاعلم جمل وصايا أمير المؤمنين إليك وإقامة حجة الله تعالى عليك. واعمل بها عمل الموفقين فى المقال والفعال، والمشــفقين من خشــية ربهم مالك عالم الغيب والشــهادة الكبير المتعال. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وكتب فى صفر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة.

المؤيد ودبيس بن مزيد

وكان ابــن مزيــد[2] وقريش بــن بدران[3] انحــدرا إلى باب بغداد لإصلاح شــأنهما مع

---

(١) سورة الانفطار الآيات ١٠ - ١٢.

(٢) نــور الدولة دبيس بن مزيد الأســدى صاحــب الحلة (حلة بنى مزيد) وهى مدينــة كبيرة بين الكوفة وبغداد وكانت تســمى الجامعين. وعاش نور الدولة ثمانين ســنة. كان فيها أميرا نيفا وستين سنة. تولى الإمارة فى ذى القاعدة ســنة ثمان وأربعمائة عقب وفاة والده أبى الحســن بن مزيد، ولكن اختلفت العشيرة على دبيس وطلب أخوه المقلد بن أبى الحســن على الإمارة وســار إلى بغداد وبذل للأتراك ليعاضدوه فســاروا معه وهاجموا دبيســا بالنعمانية ونهبوا حلته فانهزم إلى نواحى واســط. ثم عاد إلى حلته وثبت قدمه فى إمارته، وفى ســنة ٤٤١ أقطعه الملك الرحيم حماية نهر الصلة ونهر الفضل وهى من أقطاع جند واســط فســخطوا لذلك وبعثوا إليه بالتهديد فقصدهم وهزمهم فاستنجدوا بالبساسيرى وبذلوا له أن يأخذ نهر الصلة على أن يدفع عنهم نور الدولة. واشــترك نور الدولة مع الملك الرحيم فى حروبه فى فارس، وصاهر البساسيرى. ولما دخل طغرلبك بغداد هرب البساســيرى إلى حلة ابن مزيد. فأرســل طغرلبك إلى ابن مزيد بإبعاد البساسيرى من بلده فاضطر البساسيرى إلى الالتجــاء إلى الرحبــة. ودعا ابن مزيد لطغرلبك فى ممتلكاته. وكان ابن مزيد يعد من حماة الشــيعة، ومن أكبر أمراء العرب فى عصره.

(٣) علم الدين أبو المعالى قريش بن بدران العقيلى صاحب الموصل، أجمع أصحابه على تأميره بعد وفاة زعيم=

التركمانـــى. فوجداه خشـــن الملمـــس منهما. صعب الذرى ممتنـــع الأركان فيما قصداه من أجلـــه. يلتمس منهما أولادهما رهينة، ويبـــومهما نقدة من المال ثقيلة. فحين اســـتقر بى القـــرار «بالرحبة» كاتبت ابـــن مزيد أهجن عليه قصده حيث قصـــد. واعتماده ما اعتمد، وأحثـــه على اللحاق بنا والســـكون معنا. فورد عليه الكتاب وهو فيما هو أشـــد من ضغطة القبر. ويتجرع مما لا يكاد يســـيغه من المتجرع المر. فســـرى عنه بوصول كتابى إليه ولمح أنـــوار الفـــرج به بين يديه، فركب متن الطريق مواصلا ليلـــه بنهاره فى الورود راكضا على خيـــل الاعجال فى القصد بموافقة مـــن قريش على فعله. وموافقة على أن يكون كل منهما فى جانب يلى ســـكانه ويحفظ مثواه منه ومكانه، فأى كفة من كفتى الميزان رجحت كان الذى هو منهما فى الراجح ردءا لمن هو فى الناقص، يحفظ الأعز منهما الأذل والأكثر منهما الأقل. فلما ورد تلقيته حذية من الطريق ولقيته بالأهل والمرحب. واعتمدت من قضاء حقه مـــا يجـــب، فما هو إلا أن اســـتقر به القرار. حتى أحاط بما لم يحط بـــه قيل من أمر أبى الحارث وتفصيل أحواله فى تقديمه وتشـــريفه، وأن المعد له أعنى ابن مزيد من التكريمات والتشـــريفات هو مما لا يخفى أثره فى تضايقه، فلبس لبوس الحســـد ومد على الكافة بعد تحررها غشاء التفحيح والتبرد.

وأول مـــن لقينى به أصحابه الســـؤال فـــى تكليف ابن صالح عبور الفـــرات إليه ولقائه والسلام عليه، فأشرت عليه بالإجابة إلى السؤال فلم يردنى فيها. سوى أنه اجتمعت عليه وجوه عشيرته وضربوا أشد الآباء فى وجهه وقالوا: نحن لا نمكنك من ذلك ولا نرى لك أن تفعله، فنهض إلى مستقرى معتصما بى من كلامهم. محتجزا بإجازتى لفعله عن ملامهم، فكانوا يدخلون إلى فوجا فوجا، ويخاطبوننى على أنهم يقومون فى وجهه، ويردون اليد فى وجه عبوره. فأخذت أضج عليهم. وأهجن قولهم إليهم. وأقول إن النصيح له والودود من يجتهد فى أن يحكم بينه وبين الناس الوداد، لا من ينشئ الأحقاد، ويمشى فيها يتضمن الفساد، وفكرت فى الأمر فرأيت أن عبوره لا يتم إلا بصلتى لجناحه وعبورى معه مساعدة

=الدولة بركة بن المقلد ســـنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وفى الســـنة التالية سار إلى العراق فاستولى على الصالحية والحظـــيرة وحلـــل بلال بن غريب وكانت تحت إمارته ووهبها الملك الرحيـــم إلى غيره فقوى قريش بذلك ولما علم بقرب وصول طغرلبك إلى بغداد أسرع بالخطبة له وفتح الأنبار ونهب ما كان فيها للبساسيرى وفتح بثوقه فغضب البساســـيرى وقصد الأنبار بجموعه فاســـتعادها، ولما دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ وثار الناس وقبض على الملك الرحيم ونهب دوابه، امتدت الأيدى إلى مخيم قريش ومن معه من العرب وعلم طغرلبك بذلك فأرســـل إليه يعتذر وخلع عليه وأمره بالعودة إلى أصحابه وحلله.

له ولن ينهاد عنه. فأخذت بيده إلى المعبر فعبرنا. وحين حصلنا فى ذلك وفكرت فى كثرة الناس فى المنع عن عبوره. وأننى أهجم به فى قل من أصحاب غيره، وهم حساد نعم، منفر بأخلاق لهم وشيم، دار بى رأسى وضاقت على أنفاسى، ومنعت أن يقرن لفظين اثنين كلم ابن مزيد بثالث دون أن يرجع فى أمان الله. فرجع وكانت هذه الوقفة صنيعة فبفضل الله بما هو أهله من الكفاية.

ثم أنه أعنى ابن مزيد أتانى بقصته وخرج على فى زينته. وكان أول ما لفظ من لسانه ما سجل به على نفسه فى الخور وضعف المنة بقوله: إن هذا الأمر الذى بصدده أمر عظيم، تقصر قوانا وقوى أضعافنا عن النهوض له. يقول ذلك على رؤى الأشهاد، وقد أتى الناس من كل فج عميق يسمعون ما نناجى فيه ويبصرون، فناهبته الكلام مناهبة وقلت: «بل العدو أضعف ناصرا وأقل عددا من أن يكون له هذا الذكر ويعترض بشأنه هذا الفكر، ومعلوم أنه ما مد باعا بشدته وقتاله وما اتخذ سلاحا مكره واحتياله اللذين هما رأس ماله. فدخلت أخماسه فى أسداسه كيف رددت الكلام فى فيه ولم أستوفه سماعا حتى كذبته فيه، فأردت أن أجهز إليه عذرا يأسو كلم الكلام الذى تمعر وجهه، واحتد به طبعه، فأسررت إليه وقلت: أيها الأمير إن الأمر لعلى ما قلت ولإفصاحك به فى هذا النادى يقع موقع الاسجال، ويضعف المشتد من منن الرجال وما الضرورة الداعية اليوم إلى أن نعتاض عن لسن القوة والاقتدار ولكن الضعف وسوء الاستشعار».

ثم أنه فتح باب الطلب، فأطال لسانه ووسع ميدانه. وسلك بى مسلك من يحاول تعلة للمفاسخة، ويبتغى سبيلا إلى المناقضة. ولم أصبح يوما من الأيام إلا على قوم كبراء أصحابه وكتابه قد بيتوا فى أنفسهم مسألة كلامية وضمروا فى قول المحال حجة معتز يصدموننى بها. فكنت بمعونة الله أطمس أعلامها وأجعل جذاذا أصنامها، وجعلوا يمنون بأمر لم تنكشف عنه أستار الغيوب. ولم نقف على سر الله فيه المحجوب. إنهم إذا ملكوا بغداد يقيمون الدعوة بها لنا. ويبتغون بما هو واقع فى ميزان هذا الأمر العظيم أجرا وثمنا. فقلت: ياقوم إن الذى يصل إليكم من إنعام الدولة أدامها الله تعالى فهو نقد، والذى يصل إليها جهتكم فهو وعد، وهذا الوعد الذى أحد طرفى حبله بأيديكم والآخر بأيدى المقادير غير مقتضى هذه المنافسة منكم فى النقير والقطمير، وإذا كنتم تبيعون السمك فى لج البحار بالغالى من السعر فخذوا خطى بأننى أعفيتكم عن إقامة الدعوة لنا ببغداد إذا ملكتموها لتكون خالصة المنة فى رقابكم. ولتكون المسامحة بها ناسخة آيات كتاب شرطكم وطلابكم. وكنت أقع معهم وأقوم على هذه النصبة مدة من الزمان وهم يتخطرون فى أذيال الترعن. قولا

أننى ألبس التشريف مرة ولا ألبس مرة. وأننى أحلف كرة ولا أحلف كرة، حتى إذا نشب فى المال الجزيل ظفره، ولم تطوع له نفسه أو يوليه ظهره. واستجاب للحضور والاستيثاق منه بالتحليف والاشتمال على ما خرج باسمه من التشريف. حضر ومعه أصحابه المتكلمون عنه وسألوا فى نسخة اليمين أن تعرض عليهم، فعفنوا فيها كل التعفين سؤالا فى كلمة منها أن تبدل وأخرى أن تحذف منها وتعزل. وكنت فى هذا العفن من صدر النهار إلى قرب من آخره. فقلت: إنى أسامح الرجل باليمين جملتها وتفصيلها، وأكفيكم مؤنة هذه المقالات وتطويلها. فأبى الله تعالى إلا أن يحكم عليه معاهدها وأن يعقد فى جيده قلائدها، فاستحلف وشرف وخرج وهو غير طيب النفس ولا مغمور الجأش بالأنس.

وكتب له من العهد ما هذه نسخته:

عهد ابن مزيد

(أما بعد) فالحمد لله ولى الحمد وأهله، الناصر لدين الهدى والجامع لشمله، والقائل وهو الصادق فى قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1] يحمده أمير المؤمنين حمد المعتصم بحبله، المتكل على حول الله وقوته، دون قوته وحوله، المنتجز لميعاد نصره، الموعود به فى أهل بيت خاتم رسله. ويسأله أن يصلى على جده محمد أشرف الأجداد، وعلى أبيه «على» العالى بفخره على السبع الشداد، وعلى الأئمة من ذريتهما آبائه الطاهرى الميلاد. الأجواد الأمجاد، الركع السجاد، شفعاء شيعتهم فى يوم المعاد. ولما استقر بحضرة أمير المؤمنين عليه السلام ما حباك الله من كرم الأعراق. وكونك بالولاء لأهل البيت عليهم السلام لمعة فى أديم العراق، وكون فم التدين به ناطقا بلسانك، وجسمه ممانعا دونه بيدى سيفك وسنانك، وتوطئتك بلادك لخائف تنزع عنه لباس المخافة، وتقرب بينه وبين مهاد الأمنة بعيد المسافة، ومظلوم يفزع من خريف الظلم إلى ربيع العدل، وممحل يقلع إلى مكان الخصب بها من محل المحل، وشفعت هذه السيرة المرضية التى أوجبت لك الذمم المرعية بإجابتك من أمير المؤمنين منادى الإيمان إذ سمعته مناديا واستضاءتك بضور فجره لما رأيته باديا، واهتداؤك بثاقب نجمه إذ رأيته شارقا، وتسرعك تحت لوائه لما رأيته خافقا. رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يفيض عليك من خاص ملابسه ما تفيض به السعادة عليك ملابسها وتطيب لك منابتها ومغارسها، ويحملك من خاص مراكب على ما تتخذ به قمم الأفلاك مركبا، وتجعل معه بيت مجدك إلى

(١) سورة التوبة آية ٣٣.

السماك مطنبا. وأن يقلد من سيفه ما هو شعلة من سيف أبيه على بن أبى طالب عليه السلام المسمى ذا الفقار، الذى صقله الله بماء تأييده ولوغا فى دماء المنافقين والكفار، وأن يلقبك «بالأمير سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفى أمير المؤمنين» رفعا بك إلى أعلى درج الاصطفاء، وإنافة بمكانتك على مكانات الأشباه والأكفاء، وأن يقلدك الزعامة على عرب العراق ممن يقتضى أن تكون أنت عليه زعيما، والوساطة لمن يبتغى أن يكون تبعا لأولياء الدولة صميما، وأن يجعل إليك النظر فى ذلك من حد شرقى الفرات إلى أقصى ما يفتح الله تعالى لأمير المؤمنين من البلاد، وأن تنقلب إلى مشاورتك فيما يتعلق بالإصدار والايراد. فاحمد الله الذى ولاك من عناية أمير المؤمنين بك قبلة ترضاها، واشكر له على حاجة فى نفسك من حسن ملاحظته قضاها، وتغتنم الدولة الطالبية التى لم تزل طالبا لأيامها، ومتمنيا أن تتجلى شمسها من غمام التقية تجلى الشمس من غمامها، وكن بسيفها ضاربا، وبرمحها طاعنا، واستنزل قطاع النصر بها مقيما وظاعنا، ودم على أحسن ما أنت عليه من نشر أعلام المعدلة فى بلادك، والنظر لمعاشك. نظرا لا يحرم من أمر معادك، واجعل التقوى خير زادك، ولا تغتر بالدنيا فإن وعدها مكذوب، وخيرها مسلوب، واكدح لدار الإقامة لا يمسك فيها نصب، ولا يمسك فيها لغوب. فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين ورسمه واعمل عليه وبحكمه، وطالع حضرته بما تتوكفه من أنبائك وتتشوفه من تلقائك إن شاء الله تعالى.

ثم إن ابن مزيد شخص ببصره إلى الخابور وديار ابن وثاب على أن يعدل إليها ويشتور بها ويقطع الزمان متوقعا ما يكون من أحداثه وتغييراته، ولا يتمرس لمخاطرة اللقاء والحرب، وأودع رحله وخزائنه ابن وثاب والمعتكفين عليه، وقام من ركاب العصبية له على ابن صالح فى النزول عن الرقة وأعانه عليه قوم آخرون من بنى ورام والجماعة الذين مالوا عليه بميله، وقالوا بقوله وحركتهم محركات الجسد لضاغنة ابن صالح ومراغمته، وقالوا إن الأمر الذى نحن بصدده من لقاء التركمانية لا ينكشف وجهه ولا يأتلف أمره إلا بتسليم هذه البلدة إلى ابن وثاب ليكون معنا، ويده مضمومة إلى أيدينا، وإلا وقف عن الإسعاد بما نريده المقدار. وعن دورانه الفلك الدوار، وكلفونى أن أنتزع من يد ابن صالح باليد السلطانية. وإلا فسخوا الجمع وانتشروا فى الأرض، ونسخوا آية إبرامهم بآية النقض. فكنت أسعى بينهم وبين ابن صالح فى دعائه إلى ما يريدون وإبائه سعى امرئ بين سباع تتهارش. وذئاب تتجارح وتتخادش، واعلم أن المطلب علاقة حجة بها يتعلقون، فيأخذ كل واحد منهم طريقا ويتفرقون. من بعد أموال جزيلة فرق فيهم جمعها، وقنوان دانية

من النعم والخيرات أبسق عنها لهم طلعها، وكنت أصبح وأمسى في أثواب من انقطعت به الحبال، وضاعت على يده الأموال، وضاقت به من الهم السهول والجبال، غير أنني أظهر في خلال ما أقاسيه جلدا، ولا أشعر بحزازات قلبي أحدا، وأصرف الأمر فيما يتعلق بالتيسير، وأنكر دواعي التوهين لأمره والتفتير.

ولما أراد الأمر في مسير العسكر أن يستدف، وركابهم فيه أن يخف، وقد عبروا إلى شرقي الفرات وردت النجدة الدمشقية من أمراء بني كلب الذين كان شاب سواد ناظري من انتظارهم، فلقيتهم وأحفيت بهم، وما نزلوا حتى تنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ولم أدر بيان ما هم فيه، حتى قام ضجيجهم بالشكوى قولا إنهم جردوا على أن يشهدوا جمع الكلابي والعقيلي والنميري خارجا عن الجمع التركي والكردي وباتفاق هذه الجموع كلها يشقون خيط الفرات، وأنهم لا يفتحون الآن عينا على جنس من هذه الأجناس ويرون بنيان الأمر في تجريدهم موضوعا على غير ثابت من الأساس. وإذا كانت الصورة هذه فهم لا يبلون من ماء الفرات في معنى العبور قدما، ولا يتخطون إلى دار عدوهم فيهدرون لأنفسهم دما؛ فرأيت أمرا منكرا، وشيئا يدع المستبصر متحيرا، وأنهم إن توقفوا عن العبور، قضوا بوقوف الأمور وكسر الحاجات في الصدور، وكان شماتة الأعداء من العسكر العراقي بهم، وهم خاصة عسكرنا إذا رأوهم في مضمار المخالفة والتخلف، وإظهار الخوف والتخوف، أشد من كل شئ. فمد لي معهم من الصداع ما لو كنت بليت به وحده لكان كافيا، وكان جديد ملبس الثياب ببعضه باليا، وقلت: فضحتمونا بورودكم فليت الله ما أوردكم، ولم يزل عنان الخصومة بيني وبينهم يتجاذب والغرض المقصود منهم تارة يتباعد وتارة يتقارب. حتى أذعنوا للعبور وركنوا إلى السير من بعد أن سألوا في نفقة شهر حملت بصحبتهم أن يحسب بها عليهم لعشرين يوما فأجبت إليه، وساروا هم والعسكر أجمعون، وهم في أذيال الفترة والونية يتعثرون، وكان سبيلهم من كنى الله عنهم بقوله في شأن البقرة ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

المؤيد وقريش بن بدران[2]

وكان قريش بن بدران في حيز التركمانية على ما تقدم ذكره وقد عقد معهم عقده، وعهد في طاعتهم عهده، ولما استدف مسير عسكرنا نحو داره من الموصول كاتبته بكتاب أذكر فيه إنعام الدولة عليه وعلى أسلافه من قبله، وأذكر أنه إن كان الله تعالى قضى لهذه

---

(١) سورة البقرة الآية ٧١.

(٢) راجع هامش ٢ ص ١٢٤.

الدولة العلوية بما وعد بإظفار وإظهار فلا ترضى لنفسك أن تكون شجى فى حلقها ونغصا فى صدرها، والمقادير أقوى منك يدا [وأبسط من] قدرتك قدرة. فلا تكن لسهام اللوائم هدفا. ولا فى وجه نهار الهدى من ظلام الضلال كلفا. فأجاب عنه جوابا ما شفى ولا كفى.

وسار العسكر إليه المسير الذى على عينه من الونية سنة، وفى رجله من التقاعد والتقاعس عقلة. وبعضهم يموج فى بعض فمنهم من فى القتال همه. ومنهم من فى التزاور عنه إلى الخابور عزمه، وكان الأرجاف بورود التركمانية نجدة لقريش متصلا غير منفصل. فلما قضى الله تعالى ما قضى به من التحام. فقام مؤذنا [بتقطيع الأرزاق والآجال] كان إرجاف المرجفين بالقلة من دون الكثرة، والضعف من دون القوة. كيما لا يصيب القلوب نخب وليصدق فى الطالبين لأعدائهم طلب، فلم يزل المقدار يحرك إحدى الفئتين للأخرى حتى التقتا، فسالت على التركمانية سيول الطعن والضرب حتى قذفتهم فى بحر الحين. فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ ﴾[1] وأفاء الله برحمته عسكرنا مغنما من حيث اتقوا مغرما وطوقهم مجدا كانوا متثاقلين عنه جدا[2]، وكتبت إلى مجلس الوزارة فى معنى الفتح بما هذه نسخته.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣.

(٢) هذه الموقعة هى التى تعرف بموقعة سنجار والتى كانت فى آخر رمضان سنة ٤٤٨ هـ (راجع الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٤٤ ومرآة الزمان حوادث سنة ٤٤٨).

وفى ابن الأثير ج ٩ ص ٤٣٠ أن ذلك فى أول شوال سنة ٤٤٨ هـ، ويفهم من خطاب المؤيد بالتهنئة بالعيد فى أن الأصح رأى ابن الأثير. والذى ورد فى ابن الأثير [ج ٨ ص ٤٣٠] عن هذه الموقعة أنه فى سلخ شوال كانت وقعة بن البساسيرى ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد وبين قريش بن بدران صاحب الموصل، ومعه قتلمش وهم ابن عم السلطان طغرلبك ومعه أيضا سهم الدولة أبو الفتح بن عمرو وكانت الحرب بسنجار فاقتتلوا بأشد القتال بينهم. فانهزم قريش وقتلمش وقتل من أصحابهما الكثير، ولقى قتلمش من أهل سنجار العنت وبالغوا فى أذاه وأذى أصحابه وخرج قريش بن بدران وأتى إلى نور الدولة جريحا. فأعطاه خلعة كانت قد نفذت من مصر قلبسها وصار فى جملتهم وساروا إلى الموصل، وخطبوا لخليفة مصر بها وهو المستنصر بالله وكانوا قد كاتبوا الخليفة المصرى بطاعتهم فأرسل إليهم الخلع من مصر للبساسيرى ولنور الدولة دبيس بن مزيد ولجابر بن ناشب ولمقبل بن بدران أخى قريش ولأبى الفتح بن ورام ونصير بن عمر وأبى الحسن بن عبد الرحيم ومحمد بن حماد =وانضاف إليهم قريش بن بدران. وهذه الموقعة هى التى أشار إليها الشاعر ابن حيوس بقوله:=

عجبت لمدعى الآفاق ملكا ... وغايته ببغداد الركود

ومن مستخلف بالهون يرضى ... يذاد عن الحياض ولا يزود

وأعجب منهما سيف بمصر ... تقام به بسنجار الحدود

وجاء فى مرآة الزمان أنه أرسل إلى مصر ألفى رأس ومائتين.

كتاب المؤيد بالانتصار فى سنجار

كتابـــى وعوايـــد الله تعالى للدولـــة النبوية أدامها الله تعالى فى النصـــر والظفر. المرصعة تيجانها من حسن نظر الحضرة السامية الوزيرية بنفائس الدرر، تذلل لها الرقاب. وتسهل الصعـــاب. ولمـــا كان قريش بن بدران الخائن مع المتعارف من إنعام الدولة أدامها الله تعالى عليه وعلى سلفه من قبله الانعام الذى سارت بذكره الركبان. وأنشد قلائد فخره الزمان ممن بدل نعمة الله كفرا وعرفه نكر. وولى ولى نعمته ظهرا. وصبا إلى التركمانية أبادهم الله الذين هم شياطين الإنس بالحقيقة. ولا يكاد يصبو إليهم ولا يرضى بفعلهم إلا شر الخليقة. لأنهم سفاك الدماء وهتاك الأستار. وآفة البلاد وعاهة الديار. وكانت الحضرة السامية لا تؤثر أن تكون غاشية الظلام لعين بصيرته تغشى. ولا ترى إلا ما يرى الله سبحانه فى فرعون حين قال وقوله الحق: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[1]. وكانت مكاتباتها تردنى بتأليفه واســـتعطافه. والاحتواء بالمواعظ الحسنة علية من جميع أطرافه. وكنت قد قبضت يدى عن مكاتبته بالجملة فرقا من أن يكون بكتبى عند التركمانية ينفق وبها لديهم يتسوق. وإشـــفاقا من كون أخيه رضى الدولة[2] ومختصها وغيره من عشـــيرته المسرعين إلى الطاعة المتمســـكين بعروة التباعة إذا شعروا بكونى أحرص على خيره وأسرع فى صلاح أمره لبسوا ملابـــس الغفور. واعتاضوا من صدق فى المخاطبة بزور. فلما رأيت للحضرة الوزيرية وجها عن التلفت إليه لا يعرض. وبدا عن المكاتبة بتأليفه لا تقتبض. كاتبته ســـرا من الجماعة مكاتبـــة الحدب البار. أجمع عليه بين الإعذار والإنذار وأنبهه لمواقع الغلط الذى يؤلف له بـــين العار والنار فى مضاهاة هؤلاء الكفار الأشـــرار وأقول له إن كان الله قضى لدولة الحق أدامها الله تعالى بالظهور وعلى أعدائها بالثبور فحاشاك أن تكون فى صدرها غصصا. وفى عينها قذى وفى عيشها نغصا. فأجاب جواب المغالط فى كلامه الخابط فى ظلامه. فحين رأيت الأمر من جهته مبتهما باليأس من صلاحه مســـتحكما اقتضت الصورة أن نفوق إليه ســـهام الطلب. وأن نسكت بلســـان السيف لسان الخطب فعبرت العساكر المنصورة الفرات نحـــو صوب داره، وصرفـــت وجهها إليه متبعة لآثاره، فكتـــب إلى الغز خذلهم الله تعالى يطلـــب النجدة وأخـــذ يعد للقاء العدة. فلم يمكث إلا قليلا حتى أتته من الغز صليبتها فى أربعـــة آلاف تتخطر فى أذيال البغى. ولحقته جمهرتها تمتطى غارب الغى فما هو إلا أن

(١) سورة طه الآية ٤٤.

(٢) رضى الدولة مقبل بن بدران.

أقبل بحر الجيوش المنصور تتدفق، ونشـرت الرايات المسـتنصرية فهى فى الهواء تخفق. ونادت العساكر المنصورة بالشعار المستنصرية نداء كاد به يخرق الحجاب وعوت التركمانية المخاذيل كما يعوى الكلاب، حتى سـيقوا فى حلبة الوغى سـوق الغنم. ونهلت السيوف من دمائهم كما ينهل العطشـان من الماء البشـم. وقتل منهم الخلق الذى لا يحصى عددا ولم يسلم إلا بقية يسيرة أصبحوا شعاعا بددا. ولولا هجوم الليل لأحاط بصغيرهم وكبيرهم سـرادق الويل. فالحمد لله الذى فتح لأمير المؤمنين فتحا مبينا. وأيد بسـيفه دين الإسلام الذى أكمله ورضيه للمسلمين دينا إن شاء الله تعالى.

خطاب آخر يذكر الانتصار

وورد سجل معظم بذكر العيد فكتبت جوابه بما أوردت فيه ذكر الفتح وهذه نسخته:

كتـب عبد مولانا صلوات الله عليه وعناية الله سـبحانه لوليـه ابن نبيه لا تزال تظهر لاعتلاقه بحبل التأييد برهانا. وتشق له من أعطاف عظم سلطانه سلطانا. وتركب فى قنا عزماته من جانب حسـن التوفيق سنانا. وتبسـط لعبيده فى مقامات القائلين الفاعلين يدا ولسـانا. ووصل ما شـرف به العبد مقصورا على ذكر العيد الذى جعل الله مولانا تحقيق مجازه، وأحله من فاخر لبسه محل طرازه. وتجلى شمس الخلافة من برجها إلى المصلى، تجللها جلال البهاء. وتجدد العهد بجلال مقام جدها خاتم الأنبياء. وأبيها سيد الأوصياء. صلـى الله عليهما وعلـى الأئمة من ذريتهما البررة الأتقياء. يزف فى حلل الإمامة وحلاها زفـا. ويذكر بنزول الحفظة الكرام لحفظها قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾[1]. يحتاشـها من عسكر الإسـلام وأهل دار السـلام الخلق الذى يضيق بكثرتهم لجسم الدنيا على سعتها المخافق. وتقشعر الأرض خوفا إذا مشوا عليها وترتج الجبال الشواهق. وتخفق على رأسها من الأعلام التى عليها أعلام نصر الله الخوافق. حتى إذا قضى مولانا - والله يخلد ملكه - وطرا من إقامة مناسـك عيده. والقيام عن ربه سبحانه بإبلاغ وعده ووعيده، ونثر درر من ذكر توحيده جل جلاله وتمجيده. رجع إلى قصره المشـمول بالإقبال المأهول بالإنعام والإفضال. والنفوس بسبوغ السلامة جذلة. ووجوه السعادة بحمد الله ومنه متهللة. ووقـف العبد عليه وقوف الحامد لله تعالى على أسـنى نعمـه فى تأييده نصر مولانا وإعلاء كلمتـه. الراغـب إليه جل ثناؤه وفى تبليغه أقصى مرامى همته، ومما قام منه الإعجاز فى

---

(١) سورة الفجر الآية ٢٢.

وقـوع إجابة مولانا خلد الله ملكه إذ هو يدعو بالنصر لأوليائه وعسـكره، وافتتاحهم قتال الغـز فـي اليوم بعينه. وهو خلد الله ملكه بالحدس قائم على منبره. فما كان إلا صوتا من دعائه أجابه صوت من حسـن الإجابة. فنهبت أرواحهم بأطراف السـيوف النهابة. فما نزع النهار عنهم رداءه المصقول، إلا وقد أجرى الله تعالى من دم أوداجهم السيول فاشتملت عدة القتلى على ألفين وسـبعمائة نسمة، ممن لو كانوا بهذه العدة غنما لكان الإتيان عليها في بياض يوم واحد مستعظما، وما أصيب من العسكر المنصور إلا دون العشرين على بسالة الغز الملاعين. وكونهم ممطرين مطر المنايا من سـحاب القسـي سـوى أن الله تعالى أوهن كيد الكافرين ببأسـه الشديد القوى كإيهانه من الحبال والعصا مؤلف كيد الحبال والعصا. فالحمـد لله الذى جعل أعداء الدولة حصائد حسـامها ومصائـد انتقامها وهو جل جلاله المسـئول أن يصفى لها مشـارب النعم ويجمع على طاعتها كلمة العرب والعجم وأن يصلى على محمد وآله والسلام.

دخول الموصل

وحكـى النـاس أنه لمـا كان يوم الحرب فـرق ابن مزيد هـوادج ظعائنه ونسـائه فى قبائـل العرب من الكلبى والعقيلى والنميرى وهن منكشـفات الوجوه ينادين: يالله العـرب!! يالله العـرب!! ملهبـات نار العصبية ومذكيـات جمرات الأنفة والحمية. فـكان هذا الفعل مـن وجوه الـرأى التى أدارت رحى الضرب والطعن، وقضت على أجسـاد التركمانية فى مطاحنها بالطحن.

فلما أتاح الله سـبحانه الظفر ضاحكة مباسمه ظاهـرة معالمه، طرح ابن مزيد من زمامه على حلل قريش وحريمه درقته. وأظهر لحسـن مراعاته شـفقته، ذلك ليزيل من حسـن عهـده عوارض الريب. وليعلمه أنه لم يخنه بظهر الغيب. فجعل يد أبى الحارث مغلولة إلى عنقه ومسدودا دون التعرض لشىء مما تعلق به جميع طرقه. فدخل الموصل قاهرا وكأنه المقهور. وغالبا وكأنه المغلوب. لا يملأ عينه من حلل قريش وماله. ولا يخطر التمسح بعد اليد إليها ببالـه. فشجرة الانقياد لابن مزيد فى هذا المجال إبقاء على صهره الذى هو ابن مزيد[1] واتقاءه مساخط الحرم اللواتى يطيعهن الأتراك طاعتهم لرب الحل الحرم. ولولاهن

(١) فى سـنة ٤٤٤ هـ زوج دبيس ابنه بهاء الدولة بابنة أبى البركات بن البساسـيرى (راجع ابن الأثير. حوادث سنة ٤٤٤ هـ).

لما ذهب مع ابن مزيد فى هذا المذهب، بل بارزه دونه بالسيف خماص البطون من الطوى خاوى عروش القوى من الجوى. يملك بلدا بالسيف. فيملكه غيره صابرا على الحيف، ويكون هو فيه بمثابة غير المكرم من الضيف، واجتمع ابن مزيد وابن ورام [1] بأبى الحارث بعد مديدة يسألونه فى مصالحة قريش ويحتجون بأن المسير من الموصل لا يمكن شد الحزام فيه إلا بمصالحته ولا يستوثق إلا بمصاحبته وموافقته، ولو أنهم لم يقبضوا يد أبى الحارث عنه فى الأول [فى الاحتواء عليه] لكان عظمه بيد الزمان كسيرا. ولكان إلى أقل نظرة من نظراته فقيرا. لكنهم ثبتوا مهيض جناحه. وأوقدوا منطفئ مصباحه. واجتمعوا وتصالحوا وجددوا بينهم من الحلف ما طال ما لعبت به يد النكث والخلف. ووصلهم من المال ما توزعوه بينهم. وساروا منحدرين إلى القيارة وكان التركمانى أيضا خذله الله سار من بغداد مصعدا إليهم فى ظاهر أمره، إن استلان منهم جانبا، ومجنبا عنهم نحو بلاده فى باطنه إن استخشن ملمسهم ومجانبا. فكان سيره سير المتوانى تقيدا بقيد العجز والتوانى لروعه من الوقعة «بسنجار» فائضا خوفها على أنفاسها، مغرقا بين جفنه ونعاسه.

خطاب المؤيد بفتح الكوفة

وبينما هم فى ذلك إذ ورد كتاب محمود بن الأخرم[2] بفتح الكوفة على ساكنها السلام فكتبت إلى مجلس الوزارة بما هذه نسخته:

كتب عبد سيدنا وما تطلع شمس بيوم مجدد، إلا ويقضى الله سبحانه فيه للدولة النبوية أدامها الله وله الحمد بفتح مجدد، وما يسفر عن وجه سعد إلا ويكون بشيرا بين يدى ما يتلوه من السعد بعد السعد، وكل ذلك بإقبال سيدنا ويمن تدبيره. وكتاب عبد سيدنا وقد وصله فى ساعته هذه كتاب الأمير شهاب الدولة مبشرا بفتح الكوفة على ساكن مشهدها السلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه وبركاته وتحياته، ومصيره فوق منبرها بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين خلد الله ملكه متوجا، وصبح سعادة أيامه فى عرصاتها متبلجا، واستبشار الخاصة والعامة بما من الله تعالى به عليهم من محو آية ليل الظلم بآية نهار العدل، والإفضاء بهم من محل المحل، إلى ربيع الانعام والفضل والحمد لله الذى [جعل شمس سعادة مولانا أمير المؤمنين من سمائها بازغة] وحجة الله

(١) هو أبو الفتح بن ورام ولم نستطع تحقيق شخصيته لعدم وضوحها فى كتب المؤرخين، ولعله كان أحد أمراء إحدى المقاطعات العديدة التى امتاز بها العراق فى القرن الخامس للهجرة.

(٢) ولكن فى مرآة الزمان أن الذى أرسل بذلك هو بدر بن على الأسدى أخو دبيس.

فـي إيراثه الأرض كما وعده بالغة، وأسـأله أن يصلـي على محمد وآله وأن يجعل مامده عليه في ظل تأييده سـاكنا وحرما في عين الكمال آمنا، وأن يبقى سـيدنا لأغلاق الممالك مفتاحا، وفي ظلم الأمور وكشـفها مصباحا، وهو ولي الإجابة والاسـتجابة برحمته، وقد طويت هذه الخدمة على ما ورد من الأمير شهاب الدولة ليرى في الوقوف عليه عالي الرأي وفـي الأمر بإجابتي عن هـذه الخدمة وتصريفي على أمثلته المطاعـة وقد تتابعت خدمي بالاسـتعانة والاسـتمداد، والتماس ما ينهض من الموصل لبلوغ تمام المراد. مادام العدو في نار ذل أحاط بهم سرادقهم، ومدرجة صعوبة ضغطته من جميع الجوانب مضائقها، فالله الله فإن الأيام في هذا الوقت فرص تنتهز وعدة تسـتنجز والله تعالى يعقب خيرا ويجعل بعد عسر يسرا برحمته.

خطاب المؤيد بإقامة الدعوة في واسط

ويعد مديدة يسيرة ورد كتاب ابن قائد بن رحمة [1] بإقامة الدعوة بواسط وضرب السكة بها، فكتبت فيه إلى مجلس الوزارة بما هذه نسخته:

كتب عبد سـيدنا ونعم الله تعالى للدولة أدامها الله تعالى منهلة السـحاب، وجنة سـعادتها بحسـن نظر سـيدنا مفتحة الأبواب، والحمد لله حمد الشاكرين، وقد كان في خبيئات المقادير، المكون علمها عند اللطيف الخبير، سـبحانه وتعالى عن الشـبيه والنظـير، من الفتوح التي يلحق تاليها السـابق، وينظم الله تعالى في سـلكها مغارب الأرض والمشـارق، ما ركض مواليانا الأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين نحوه بخيـل الاجتهاد ركضا [وهجروا وراءهم بآيات ذكر في صحيفة مجدهم غمضا] فوقف بهـم دونه الزمان. وقصر عن العروج في معارج فضله من جميعهم الإمكان، وألقى الله تعـالى وله الحمد إلى مولانا أمير المؤمنـين صلوات الله تعالى عليه وعلى آبائه الطاهرين سـهلا متاليده، وذخر لسيدنا بثقوب الرأي في حل عقوده أحاديثه وأسانيده، فلازال ملبس سـعدهما ما اختلف الجديدان جديدا، وظـل إقبالهما ما امتد الظل مديدا بإذن الله تعـالى. ومما يجب المطالعة به ذكر متجدد نعم الله سـبحانه بقيام الدعوة الميمونة

---

(١) ابن قائد بن رحمة أمير واسط وذكر في ابن الأثير ومرآة الزمان أن ذلك كان في ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ وأن الذي قام بالدعوة بواسـطة ابن فسـانجس وكان معه عدد من الديلم والترك وأنه نهب قرية الخليفة وبيض حائـط جامع واسـط ومحا ما كان على قبلته من ألقاب بني العبـاس ونصب على المنبر لواءين أبيضين وخطب لصاحب مصر وضرب النقود باسمه.

على منابر واسط وأعمالها وعموم المسرة به لمن تحويه تلك الأصقاع من نسائها ورجالها أن بدلهم الله تعالى عن دولة الجور دولة العدل، وأوى بنيم إلى حرم الفضل وجعلهم في مملكة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فألبسهم الله بهذه الأكرومة أفخر اللباس، وألحقهم بمن توجه إليهم فحوى قوله سبحانه ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [1] إن شاء الله تعالى.

موقف ابن مروان بعد موقعة سنجار

وكان ابن مروان أول من استجاب دولة التركمانية في الديار. وشرع في سطوع دخان هذه النار. فشخصوا بأبصارهم إلى معاقله وحصونه ينصبون عليها في حيلة التملك الأرصاد وسلم المكر والفساد، وطار كرى الطمأنينة لما أحس ذلك عن عينه. وعلم أنهم يحسنون المغاصة فيما يؤدى إلى حينه، فنفض عن الرصد أمر مرابطها من الأعاجم قِدَمِهم والأحداث، ولم يدع بها إلا من لا تطول إليه يد الشبهة. ولا يقع في كفة ميزان الظنة؛ وحين رآنا مجردين لسيوف العزائم في لقائهم وشادين لأزر الغلمان البغدادية الذين أخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، انبعثت نفسه لأن يقوم معنا في إبهان كيدهم وهد ركنهم. قياما يكون عليه غاشية من اللبس، ولا ينقسم جسمه إلى صفتى اللين والخشن لدى اللمس. فلما تكاثفت الجيوش من الأعراب والأكراد والأتراك بالجزيرة جرد النجدة من رجاله. وتكلف عليهم الكلف من أمواله. وهو مع فعله هذا لا يقطع خطبة التركمانية عن منابر دياره. وقد قطعت بالموصل التي هي أدنى جوار من جواره، وبواسط والكوفة كمثل ذلك. ويجعل الحجة فيه رسولا أرسله إلى مصر لأمر يبرمه، وتقرير يقرره. وأنه لا قبل له بأن يتعرض بغير نصبة حاله حتى يعود رسوله، وإضماره في ذلك أن يكون معه إمهال حتى تخرج الأرض أثقالها في أمر الفريقين، فإن كان لنا: كان وقوفه على انتظار الرسول عذره في شأن الخطبة. وإن كان علينا: امتن على التركمانية بتفرده من دون الناس كلهم بحفظ النصبة، واعتذر أن النجدة التي أنفذها لم ينفذها إلا ردءا عن نفسه. ومنافاة للجموع الكبيرة التي لو لم يفتح لهم باب المساعدة لأخذوا عليه باب بيته، فكأنه أعد لكل من المقامين مقالا. ورتب سؤالا وجوابا، ولما كان ذلك مما لا يخفى مثله على ذوى الرأى والحنكة كاتبته في فصل من كتاب بما هذه نسخته.

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠.

خطاب المؤيد إلى ابن مروان يدعوه لتأييده

وأمـا اعتـذاره عند التوقف فى معنى الدولة الشـريفة وإقامتها. ووقوع التربص بها إلى حين عودة الشـيخ أبى الحسـن بن بشـر[1] بالتقريرات التى تطمئن بها القلوب، وتنشرح معها الصدور، فعذره فى هذا الوجه يحتاج إلى عذر. وذلك أنه قام فى غيره من الأمور التى هى أشـد وطأ وأثقل محملا [وانكا نكاءً القيام] المشـهور، وسـعى السعى المشكور. وإرجاء هـذا الوجـه فطواه فى مطاوى الفتور. فإن كان التربص به توقع ما يحدثه الزمان فإن كان لنـا فتح من الله قالـوا ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾[2] وإن كان للكافرين نصيب قالوا ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3] الذى هو نص قول الله تعالى. ومثل الخبر فكذلك إن كان لنا فليس يفوتهم إذ ذلك إقامة الخطبة، وإن كان علينا والعياذ بالله كانوا قد اسـتبقوا مع العدو خذله الله فى الأمر بقية، وجعلوا ترك الأمر على جملته لديهم مأنة فهذا رأى ينافى الصواب، وطريق يباين الاسـتقامة. فهو يعلم يقينا أن إقامة الدعوة لنا وندائه لشـعارنا لا يعظم عن موقعهما إلا مع إشـراف العدو، واسـتوائه على مركب العتو. فأما إذا تفضل الله بفك أنيابه، وقطع أسبابه. واستجابة الديار، وأسعد على تذليل الصعب المقدار. فأى طعم يبقى لخطبته إذا خطب. وقد غار ماء رونقه ونضب، وأما ما يخرجه حساب التوهم الذى لا يثبت مثله العقل. ويمحوه لطف الله وجميل صنعه من أنه ربما وقف الأمر والعياذ بالله فـكان عنـده مرموقا بعين من اقتحد فى الفعـل، ولم يمل معنا كل الميل. فذلك أيضا قصد غـير صحيـح لكون ذلك متعلقا بامتداد باع العدو – خذله الله تعالى إليهم والله يعيذهم منه – أو قصرهـا. فـإن قصرت باعه كان الفكر بإقامة الدعوة شـفعا للفكر بالإنجاد. وتجريد العسكر الذى ليس بخاف أمره. وإذا لم يخلص ضرر من ذلك لم يخلص من هذا أيضا. وإن طالت باعه – لا أطالها الله – فهم الذين قال الله فيهم ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾[4] كان هذا الأمران، أم لم يكونا. ومع هذا كله فمعلوم أنه إن تفضل الله بالدفع فى وجه هذا العدو المضل المبين. فما هو إلا جرثومته التى قطعت وأنيابه التى قلعت، لكون ذلك أمرا هو

---

(١) هذا هو الرسـول الذى أوفده ابن مروان إلى القاهرة. وحاولنا أن نعرف شـيئا عن هذا الرسـول ولكن بدون جدوى.

(٢) سورة النساء آية ١٤١.

(٣) سورة النساء آية ١٤١.

(٤) سورة التوبة آية ١٠.

بنفسه حاضره. وبخيط رقبته مباشرة، وإن – والعياذ بالله – كان على أصحابنا – نصرهم الله – فإن صاحب الأمر ولى النعمة – خلد الله ملكه – على مسيرة خمسمائة فرسخ لا يحل به كثرة وهن وعلى تكاثر عدده ووفور عدده واتساع نطاق قدرته – بحمد الله ومنه – لأن يردف جيشا بجيش. ومالا بمال. فليس الحرب مما تضع أوزارها بوقفة تجرى وكلا[1]. بل هناك لزمت ملازمها وتعين على الناس عامة والمجلس الأميرى خاصة أن يتعلقوا بأذيال الدولة العلوية أدامها الله كل التعلق. ويتحققوا بخدمتها كل التحقق. عالمين علم اليقين أن الناس إذا عدموا والعياذ بالله منهم سندا، ومن ظلها ملتحدا. صاروا ملكة لهؤلاء الأشرار وصلوا فى ظلمهم وعدوانهم أحر ما يكون من النار. والسلام.

تفرق جمع المؤيد

وتكاثفت الجموع بالمحل بالقيارة والتركمانى منهم فى سرابيل الخيفة تغشى وجهه نار الذلة، والإنفاق مبسوطة يده ينفق فى الناس فمنهم الراضى ومنهم الساخط المستزيد، وأكثرهم للباطل طالبون. ولمركب الاشتطاط راكبون، وبنو عقيل تبتغى على المانعة عن دارها وحريمها أجرا، ولم تزل أعنة طلبة المحال تتجاذب حتى أجفل قوم من بنى عقيل عن ذلك المناخ. فتبعهم الباقون ومدوا الشوط حتى جاوزوا الموصل إلى قرب سنجار مهزومين بجند الخلاف والخذلان. ولو وقف عسكرنا المشتملة عدتهم على ثمانية آلاف فارس – على ما كان كتب به أبو الحارث – للثبات بمكانهم لما انكسر ناموسهم، ولا فى حدهم ولكنما انجروا بمجرهم، وانقادوا بمقادهم، والتركمانى لا يؤمن بكون ذلك إلا غدرا به واستدراجا له، حتى كشف له التأمل عن حقيقة الأمر فيما نفضهم عن مكانهم نفضا. فطمع فيهم طمعا لم يكن ينبض فيه قبل عرق فى جسمه، وحصل من اشتداد القلب على أوفر قسمه. فقطع إليهم الزابين أولا ودجلة ثانيا بعد أن كان لموح ثنايا الحتوف من لوع الأسنة والسيوف يحرم عليه أن ينال من مائها نهلا؛ أو تصادف قدمه من مائها بللا فرأيت الأرض تقشعر خوفا، وأهلها قد استشعروا هلاكا يواقعونه وحتفا. وأهل الرحبة المسكينة موتى يترددون فى زى الأحياء. قعود فى مدرجة البلاء، يتوقعون سفك دمائهم وهتك حريمهم فى الصباح والمساء، لكونهم بحيث يغشى عيونهم دخان النار من قرب الجوار. وإذا كانت هذه صورتهم وهى إلى ضميمة وعلى حملى علاوة. فكيف يكون حاله والسهام نحو أفئدة قوم

(١) الوكل: الاستسلام.

من كنانتى طائرة، وعليهم من جهتى طارئة. غير أن قعودى كان قعود المستسلم الذى لا يحدث نفسه بالنجاة من غيابة الجب. ولا يقع الكلام فيها موقع القبول من أعشار القلب، المميز بين الأمرين فى إظهار خور وعجز لا يحدثان نفعا ولا يدفعا ضررا بل يكسران قلوب الرعية، ويستعجلان لهم بالأذية. وإظهار جلد يوسع له الجلد ويرهف لسيف العزم فيه الحد. وعاجل نفعه أن يربط الله تعالى على القلوب ويثبت به الأقدام ويحفظ من الانخراق والانخلاع خاص تلك البلدة والعام. القاصد أقصد الطريقين المنتهج أوضح السبيلين، فكنت أظهر للناس ظهور من جاءه بالفتح البشير، ومن لا بنان بفزع ولا جزع نحوه تشير، وأنا فى باطن أمرى متكفن متحنط أنتظر تخطف الأيدى لى من مكانى، وأجمع أمرى على أنه إن دهمنى ما أحذره رميت بنفسى فى جانب البر فلا أزال أضرب فيه إلى أن يحضرنى حاضر الجوع والتعب والعطش فأهلك، وإن أدركنى طالب من جهة العدو أبيت أن أعطيه قيادى دون أن أقطع قطعة قطعة تفاديا من أن أقاد إليهم حيا، فكنت أوصى أكثر من صحبنى أن يأخذوا لنفوسهم، ويتفرقوا عنى من قبل أن تحل بهم قارعة بسببى، وكاتبت الجماعة المجفلين من القيارة بما هذه نسخته فمنها نسخة كتاب إلى أبى الحارث مضمونها.

خطاب المؤيد إلى أبى الحارث البساسيرى فى تهجين النكوص

وكان كتابه المشتمل على ذكر النكوص على الأعقاب، المقطع الأسباب، وصل، فأسكرنى سكرة الحيرة، وألبسنى فى بدنى ملابس الفترة، وأجبت عنه فى الوقت والحال جواب الحيران، واختبطت فيه اختباط السكران، وأنا على الجملة المذكورة متبرم بعيشى، ومأخوذ عن رأيى وعقلى. وأعلم مع اختباطى واختلاطى أن سيدنا ما برح من ذلك الموضع إلا وهو مذموم بزمام الضرورة، ممنوع بقلة المساعدة والموافقة، وأنه أحس من بعض الجهات بغدرة أوجبت أن يستظهر لنفسه ويأخذ بقضايا حزمه، ووالله لقد أفحشوا وقبحوا بانهزامهم من خرير الماء ودوى الريح بعد تجمع التركمانى منهم وإحسانه الظن بهم، وتجميده فى طريق سبعة أيام سبعين يوما وزيادة وهو فى تلك العدوة، ظنا بهم جميلا وأن فيهم شيئا، وأسجلوا على نفوسهم أنهم نهزة الطامع وطعمة الآكل، وهدموا ما بناه يوم سنجار فى قلوبهم من بنيان الرعب. وعطلوا نفوسهم من الفضيلة بلا سبب، فإنا لله وإنا إليه راجعون. والآن فلو كانوا من ذوى النحائز لكانوا قادرين على تلافى الحال، فإن التركمانى بعد أن شعر بتوليتهم الأدبار مجفلين عنه ومنهزمين منه، لا يرد وجهه عن الموصل شىء، فلو أنهم أقاموا الأرصاد

عليــه وتربصوا به العبــور فكانوا يميلون عليه ميلة واحدة فى خــلال عبوره، إذ فريق منهم عبروا وفريق لم يعبروا، فيوقعون بمن عبروا ويحيطون بمن لم يعبروا، ولكان ذلك مكيدة من مكائد الرجال، وواقعا أحسن موقع المرضى من الأعمال. فأما إن تمكن والعياذ بالله من الوصل ليدخلها ويجعل عاليها سافلها ففيه انكسار الناموس كله، وبطلان فرعه وأصله، وما عندى أن هذا الفعل يصدر عنهم، وهذه المساعدة توجد فيهم، فإن من كان خرير الماء يهزمه فصرير العوالى وبريق السيوف لا شك وتقصمه، ووالله العظيم إننى أردت مكاتبة المجلس الوزيرى فى هذا المعنى فلم أدر ما يخطه قلمى، وأى عذر يخرجه كلمى، بينما كنا نكتب إليه ألف كتاب أن التركمانى ذليل مكسور مفلول حتى تبعه الآن ثانيا، وكنا ما لمحناه من شرقى دجلة حتى انهزمنــا من غربيهــا، مخافة أن يطير إلينا. وأما اتفاق الآراء على ضد الصواب فى التخصن بالبلاد الآمدية إلى أن يستظهر أفضل الاستظهار، فالجمع الذى معنا يتعطل، الواسطية التى هى العين المنظور بها يضمحل ويبطل، فهذا عاجل الاســتظهار، ولا ندرى ما يكون آجله، وســوى هذا فإن حديث الاســتظهار صحيح ولكنه ليس لنا إلا أنه للتركمانى وهن بقدر ما به ينكشف الطريق فتصل حدته ويزول ضعفه وسكنته، وهو أولى من ترك ذلك كله جانبا وأخذ فى الحقائق والذى يذهب إليه وهمى من وجه الصواب والله أعلم أن لا يجرب المجرب ولا يســتعين بمن لا يعينه وقت الحاجة إليه ولا يســتتبع عسكره ومن يرغب فى مصاحبته من غير الجنس ويعود إلى شاطئ الفرات على الرحبة والشوى الحاصل له بها ويمضى لصوبه إلى واســط لمشاركة الأتراك الذين هم الجنس، والديلم الذين إذا طلبهم وجدهم. ويعمل بعد ذلك بما يريد الله ســبحانه له فيه مســتعينا به ومتوكلا عليه. فأما غير هذا فلا يحيط به علمى، ولا يذهب إليه وهمى ومع انتقاص النصبة التى كان يعليها وإن كان بحضرته شئ هو أجدى مما قلته إلى الصلاح أشعرنى به لأسكن إليه وأتبع مثالته فيه والسلام.

كتاب المؤيد إلى دبيس بن مزيد

نسخة كتاب إلى أبى الأغر دبيس بن على بن مزيد: كتابى هذا وقد بلغنى من الناس عن المحــل الذى كانوا فيه بالقيارة مــا صدع فى قلبى صدعا لا أقول ضيق لى لأنى رأيت أعمالى قد أصبحت هباء منثورا، وسعيى ضل وكنت أعده مشكورا، فمعلوم أننى حركت ساكن هذا الأمر حتى فاض فيض ماله، واجتمع شمل رجاله، وقد جمعت بين شــيئين أحدهما إضاعة مال السلطان – خلد الله ملكه – والآخر صرف وجه عداوة التركمانية إليه، ولقد كان يشغلها

القريب عن البعيد والحاضر عن الغائب، ولئن كان يتبغم بذكرنا فى الأوقات لقد كان تطبعا لا طبعا، وإغراء من الجهة العباسية التى ضلت سعيا وقبحت صنعا، والآن فقد استحكم الأمر واستحصد الشر، وإن كان فى حق كفاية الله سبحانه للمحقين ما يدفع باطل المبطلين، وأما أصحابنا الذين ارتدوا على أدبارهم فمعلوم أن التركمانى ما عدل عن صوبهم إلا وهو يحسن بهم ظنا فى شدة البأس، ويشتمل من أن تنالهم يده أو ينفذ فيهم كيده على لباس اليأس، فأسجلوا على نفوسهم بفرارهم أن حسن ظنه بهم باطل، والفكر بشدتهم وقوتهم زائل، وبدلوه من خوفه أمنا، وسهلوا له من طريق تتبعهم وطلبهم ما كان يظنه حَزنا. وطرقوا له فى عاجل الحال إلى الوصل وكأنى به وقد جعل عاليها سافلها، ونال كل نيل منها، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد جاءوا شيئًا إدا، وهدوا ما كانوا بنوه بسيوفهم بسنجار مجدا، ولست أدرى ما أقول وهو حاضر يسمع ويرى فلا يأمر فيه بما يقتضيه الحجى والنهى، ولا يضرب وجه المنكر فى هذا الفعل بسيف الإنكار ولا يضرب دون فساد الأمر بعد صلاحه بالحجب والاستتار، اللهم إلا أن يكون أمر فما أطيع، فلا رأى لمن لا يطاع إذن. وإذ قد جرى من هذا الأمر ما دمر الأصول والفروع، وأضر بالتابع والمتبوع. فقد بلغنى اتفاق العزائم على التحصن ببعض الحصون الآمدية إلى أجل معلوم ليستظهروا أفضل استظهار فوجدت القصة فيه تزيد قبحا على ما سبق وهجنة، فإن التركمانى أضعف ما يكون اليوم وهو فى عقال، قل وذل وكسر وفل، وبينه وبين قوة شوكته ووصول نجدته هو القدر الذى أزمع أصحابنا التفسح عنه، فما هو إلا حاجة له تقضى ومنة إليه تسدى لا غير. وأما صمدهم ليستظهروا أفضل استظهار فمن أين يقع لهم من ديار بكر استظهار يوازن ما يفوتهم بالعسكر الواسطى والعسكر الخفاجى من الاستظهار وأين تقع تلك المنفعة المأمولة فى عاجل هذا الحساب، وسيدنا يميز ما أوردته بعقله الثخين[1] ورأيه الرصين يجد عليه مسحة من الحق ونورا من الصدق، ويجتهد فيما يمنع الشمل من الشتات، والحبل من البتات، ويبعث على انتهاز الفرصة عند الإمكان، من قبل ضيق القدرة والزمان، وهذه قصيرة عن طويلة والسلام.

كتاب المؤيد إلى ابن ورام

نسخة كتاب إلى أبى الفتح بن ورام: كتابى هذا والله يعلم كنه اشتياقى إلى طلعته المباركة، وقرمى إلى مباسمته ومحادثته، والله تعالى يسعد حله ومرتحله، ويبلغه من كل منزل

(١) الثخين: الحليم.

ينزلـه وكل محـل يحله أمله. بمنه وعطفه. وقد بلغني من ذكر فضيحة الإجفال عن المحل بالقيارة والنكوص على الأعقاب ما ملأني قلقا وأسـفا على ضياع سـعى سعيته. ومال عظيم للسـلطان خلد الله ملكه أتلفته، لو كف لسـاني عن الفضول فيه لم يبرح من كفه، ولم يكن عليه سبيل في تلفه، ولم تقم معه داعية تثني وجه الحرب والخصومة إلى أنفسنا بعد أن كنا بعداء عنها، وإنما كان يترنم بنا ترنما، ويتبغم في وقت بعد وقت تبغما، لا عن جد وتصميم وشـد حيازيم، فغرمنـا عليه الأموال والخلع حتى رددنا الهزل فيـه جدا والمجاز تحقيقا. والله المسـتعان وعليه التكلان. ثم إني والله العظيم مالك يوم الدين-أنفت لكم واستحييت من هزيمتكم، فلقد هدمتم مجدا بنته سيوفكم يوم الوقعة بسنجار بهذه الهزيمة الفضيحة ولما لقي وجه لوجه، ولا وقعت عين على عين، ولا أدري ما الذي شردكم وبينكم وبين عدوكم حاجز مـن بحر لجي، اللهم إلا أن تكونوا رعبتم من خرير الماء. فيكون ذلك عذركم، وجملة تغني عـن التفصيـل. إنكم ملأتم أفئدة عدوكم بعد أن كانت هواء، وأعدتم يومه صباحا بانفسـاح الأمـل ولقد كان مسـاء، وقدمتـم إلى ما عملتموه من عمل فجعلتموه هبـاء، وإنا لله وإنا إليه راجعون وبلغني اسـتقرار العزائم المباركـة الآن على قصد بعض الحصون الآمدية، والتحصن بها ريثما يتفرق الجمع الذين هم معكم اليوم فتزدادون ضعفا، وتصل نجدة عدوكم فيتضاعف قوة، فوجدت ذلك من الآراء الفاسدة التي ثمرتها في عاجل الحال تكريب الموصل أن يجعل عاليها سـافلها. وسماع العسكر الواسـطي وغيرهم به وبذكر هزيمتكم فتقطع بهم الأسباب، وتسـد في وجوههم الأبواب. فالله الله يا سيدنا، فإنك أكثر الناس بهذه الأمور خبرة، ولها ممارسـة وبهـا بصيرة، تجرد للمنع عن هذا كل التجـرد، وعيب على قائل الرأي فيه. وقد كتـب إليّ الأجـل بوقوع الإحصاء على من تضمه الصحبة واشـتمالها على نحو ثمانية آلاف رجل، فعسـكر تكون بهذه العدة ما الذي يضطره أن يتخذ من الجبال بيوتا، ولم لا يزحف إن لم يكن فيه اللقاء إلى بغداد، فيجمع بالواسـطية شملا، ويشـتد بها أزرا، ويبرم معها في دفع العدو أمرا، وهذه قصيرة عن طويلة، وإن أفضت معه في مثل هذا القول فكأني أقرأ سورة يوسف على يوسف ولكنه نفثة مصدور يتحسر على ضلال سعيه والسلام.

كتاب المؤيد إلى قريش بن بدران

نسـخة كتـاب إلى أبي المعالي قريش بن بدران: قد كان نفـذ كتابي ذاكرا ما بلغته في خدمـة مكاتبة على يد فلان في خاصتي بما ينجح بإن الله مسـعاه، ويؤذن ببلوغ الغرض

فى مقصده ومنحاه، ومعاتبا على قبضته يد المكاتبة عنى على تشوقى لها. وتوقعى لتلوح السعادة فى فحواها ومضمونها. وشاكرا على ما تواصل من شكره له وثنائه عليه، وحامدا الله تعالى على نسخته آية الجفاء بالبر والشكوى بالشكر، وأرجو أن يصل إليه ويقف عليه ويرد من جوابه ما يحقق الظن بمكرمته. والمخيلة فى كرم طبعه ومروته. وبلغنى بعد نفوذ ما نفذ من إجفال الناس عن المحل بالقيارة ونكوصهم على أعقابهم ما غشينى منه غاشية من الحيرة، وأحاط بمهنتى سرادق من الفترة. وتعجبت من قوم يشاهدون البلاء مطلا عليهم، والعدو نازلا بهم وسائرا إليهم. وهو مع ذلك على تخوف منهم واستراق نفسه من التهجم عليهم، والاحتجاز بالبحر حائلا بينه وبينهم لجسوم من عسكره بسيوفهم فى القاع صرعى. وكلوم هى إلى الآن تدمى. كيف طوعت لهم أنفسهم أن يولوه الأدبار منهزمين فيردوا إلى صدره قلبا طائرا. ويجردوا من دولفه إليهم عزما فاترا. ويجعلوا فى كفه من الاقتدار عليهم لفشلهم سيفا باتران إنا لله وإنا إليه راجعون. أين المفر أين المفر، وإلى أين تذهبون. وهل تجدون كالعسكر العراقى ردءا، وكالدولة العلوية أدامها الله تعالى وزرا وكهفا، تبذل جسيم الأموال فيما صان ديارهم وحريمهم بذلا. يا سيدنا أنت الرأس وأنت لما يبنى من خير أو شر – والعياذ بالله – الأساس. فراقب الله جل جلاله الذى إليه إيابك وعليه حسابك. وأصلح فاسد هذا الأمر وكن آكد سبب من الأسباب للخير. واعلم علم اليقين أن الذى فى أكمام المقادير من ثمراتها خارجة إلى الوجود. ثم أنها تنقسم إلى أحد القسمين: من سبب مذموم أو سبب محمود، فكن من خير الأسباب وأوجوف على طلب المصلحة للدولة العلوية ومصالح المسلمين خير خيل وخير ركاب. ولا تزرع فى مزارع البر الجفاء ولا تبغ من مكان الغدر الوفاء. وما أقول هذا – علم الله – وأنا أسىء بسيدنا ظنا، وأعتقد من جهته خلفا. بعد ما تقرر وتحرر من الاستظهار عليه بالمواثيق والإيمان التى قول من يجرى مجراه ويطير فى آفاقه يمين بلا يمين، وكيف إذا استظهر عليه بيمين. والذى أقول له لو لقى القوم بصادق الزجر والنكير والتخويف والتجشيم والقول انكم بأجفالكم هذا تمكنون من بيوتكم وديياركم وتملكون العلوج نواصى نسائكم وولدانكم. لعقلتم من الأنفة عقلا وشكلتم من الحياء والحشمة شكلا. فإن الناس بزعمائها وسراتها. والرعية مذ لم تزل برعاتها. والآن فحقيق على كرمه أن يفعل فى هذا الباب ما يقضى بسعادة الأولى والعقبى. ويثبته فى صحيفة المحسنين الذين لهم الحسنى وزيادة على الحسنى، ولا أزيد على هذا من القول والسلام.

رد المؤيد على خطاب ابن ورام

ولما أنفذت كتبى إلى القوم بما صدع بالحق. وقمع بمقامع الصدق، دخلت أخماسهم فى أسداسهم. وكتبوا من الأجوبة بما جرشوا ألفاظهم فيه. وخشنوا ودسوا ابن ورام على أن يكون كتابه أغلظ ألفاظا. وأكثر لمستصعبات الكلام جمعا، فاتفق على من ورد بهذه الكتب من الوقوع فى الماء عند عبور الفرات ما بلّ كتبه جميعا، وصير كتاب ابن ورام خاصة الجامع نفثة صدور جماعتهم عجينا. حتى لم يمكن استخلاص الكلمة إلا بشق الأنفس وكتبت أجوبتها بما هذه نسخته:

جواب ابن ورام: ووصل كتابه الحاكى حامله على ما بلغنى عنه أنه وقع فى الفرات فوجدته بالحقيقة قد لعبت به يد أمواجه. فقطعت أوراقه، ومحت معالمه. واجتهدت فى أن أصل أسبابه وأؤلف بين أسطره فأعيتنى الحيلة فيه إلا أن أعرب عن ذكر سلامته التى هى نهاية المحبوب وغاية المطلوب. فحمدت الله تعالى عليه حمد أمثالى من المغرقين فى محبته، المعلقين بحبل مشايعته، اللاقين ضد ما هو عليه من حسن الاعتقاد بطول لسان ثبوته [ولم أفكر بعد ذلك بما محى من السطور وذلك أنه أثبت] من آية التجنى فى غير حقه وواجبه ما الله محاه. ورضى من بسط اللسان وتغليظ القول ما أنكره سبحانه وأباه. وكنت بشهادة الله وعلمه ليلة أتانى كتابه من غد أقطع الزمان بذكره وتشوق حسن أخلاقه ووصف لياقته فى نفسه وجزالته فى عقله وكمال أدواته؛ فلما كان من غد أتانى هذا الكتاب الذى صار عجينا بالحقيقة فمازلت أثقب فيه نظرا. وأسلط عليه فكرا. حتى ظهرت من مضمونه على ضيق صدر منه وغيظ أنشىء عنه. كيف عاتبت الجماعة على تراجعهم ونكوصهم على أعقابهم وتسليطهم الموصل [إلى العدو] لولا أن الله تعالى غل يده أولا، وتغييرهم فى وجه اليوم الأغر المحجل بسنجار ثانيا. فقلت: سبحان الله هذا حظى من حيث صرفت إليه وجه الثناء، وبسطت فيه لسان المدح والإطراء. وقلت: يا نفسى صبرا جميلا!

وكان استقر فى نفسى أننى بهذه السفارة وقد زرعت فى نفوس الجماعة محبة، وأوجبت عليهم ذمة، وأنه خاصة من حيث جمع بينى وبينه المخيم تلك اليوميات، وكشف قناع الحشمة بيننا وكنا نتجارى أيضا فى الأمور الدينية والأسباب الإلهية وسمع من لفظى ما سمع. وقد عرفنى أكثر مما عرف الغير ممن ليس بينى وبينه أنس.

وعلم أن لى يدا فى العلم – بالقياس إلى غيرى – طولى، وأننى ممن أنعم الله تعالى عليه وألبسه لباس التقوى، وعرف لى على نفسه من الحق ما لا يعرفه غيره، والتزم من التوقير ما لا يلتزمه سواه. فإذا هو قد حمل بجميع سلاحه علىّ وحشد حشود احتجاجه على وجه التثريب والملام إلىّ، ونسى أننى لو أردت الإجابة عن جميع ما قاله لعملت بالجواب سيرة. ووجدت فى أرضه مراغما كثيرا وسعة. ولكنى أصونه عما لم يصنى عنه، وأرعى له مالم يرعه فى رضيعه. وأقول إن كان صوابا الرجوع عن ذلك المنهل وتسليم الموصل وغير الموصل، ورمى الديار برجفة ووقفت الهمم من أهل هذه الرحبة التى أنا أسيرها على تحصيل المحابر والمحامل للهرب بنفوسهم وأهاليهم وهم موتى من الخوف لا ينامون ولا يقيمون ولا يستريحون، وقد كذبت بقولى وأفكت وقبحت بعذلى وأفحشت، وأنا أعتذر إلى سيدنا وإلى الجماعة منه، وإن كان غير صواب فما استوجب ذلك كله؛ وقبل وبعد، فأنا أحمل ما كرهته منه على الحدق، وأسلك فى تحسين الأمر أمثل الطرق. وأمنع مشربى من وده أن يتكدر، ووجه مقتى له وثقتى به أن يتغير، بإذن الله والسلام.

رد المؤيد على دبيس بن مزيد

جواب كتاب دبيس بن مزيد: ووصل كتاب حضرته. أحضرها الله السعادة وملكها لأمانيها المقادة، ناطقا بشمول سلامتها، دام وجهه بها ناعما، وعموم سعادتها لازال برهانها له قائما، وقرأته وأحطت علما بمضمونه. وحمدت الله تعالى على سوابغ نعمه فى ذلك حمدا يكون لحسن المزيد مستجلبا، ولخيامه بحبل الدوام مطنبا، وفهمته. وأما ما ذكره من توزع سره الكريم لما جرى به قلم الشكوى إليه من حديث الانتزاع عن المناخ الذى كانت الجماعة به مخيمين، وما اتفق من اتفاق التأخر بعد أن ظنهم متقدمين. فلو شهدت عين سيدنا ما كان الناس عليه من هذه البلدة التى أنا حبسى فيها كيف يموج بعضهم فى بعض، وكيف يرتجفون من خوف على مال وعرض. وكيف يتحيلون للهرب بعيالهم وحريمهم فى ذلك الليل، وكيف يتناجون فيما بينهم بالخزى والويل، لرأى من ثباتى فى حملة هذه سبيلها عجبا، ولم يوجه عتبا على ما كتبت به ولا تعتبا، فأما حديث العشيرة العقيلية والقول إن التنازع بينها حسد من لم يأخذ لمن أخذ، وهو الذى قلع الخيام وأفسد النظام، فقد عرفت ذلك. إلا أن الناس أجمعوا على أنه لو ثبتت هذه

الجماعة الذين هم أصحاب القريحة مكانهم، ولم يقوضوا بالرحيل بنيانهم، على كونهم آمنين من بغتات العدو لحاجز الماء بينهم. لما كانت الأرض بالحقيقة تقشعر من الخوف، ولما حصلت المنن والقلوب في ملكة الضعف، فإن كانوا صادقين في قولهم فلا تثريب عليهم، وإن كانوا كاذبين فأنا أستغفر الله مما كتبت، ولا أملك إلا نفسي؛ وأما قولي في ضياع مال السلطان خلد الله ملكه فما عنيت به إلا المال الذي فرق في الناس بالوصل لا ما وقع التثريب به عليّ من وقعة سنجار المشهور مقامها، المرفوعة بالفخر أعلامها، وبين ما قلته وما نسبت إليه بون، ولا ينكر موقع قصدي فيه إن لحظتني من النصفة عين، فأما قوله في معنى التركمانيين خذلهم الله وأنهم كانوا يتبغمون بالشام يومئذ وهم بأصفهان، وأنه لولا الواقعة لكانت عساكرهم إلى الآن أصعدت. فقد عرفته؛ وسيدنا في قوله صادق، وعلم هذا الخبر إلى أسماعنا من قبل ذكره سابق، ولكن عسى أن ظن القوم – بل ظنهم بلا عسى بحول الله وقوته – كاذب. والعقل والدين لا يوجبان أن يكون لهم إلى سماء ما منتهم أنفسهم من ذلك معرج، ولا في سبيله مدرج. وصاحبنا خلد الله ملكه بكونه سلالة العترة الطاهرة عليهم السلام وعمدة الحرمين وعصرة أهل العصر، وقرارة العدل والفضل، أقرب إلى أن يملك ما في أيدي الناس منهم أن يملكوا ما في يده، والأرض ميراث عباد الله الصالحين عدة منه سبحانه لا تطول الأيدي التركمانية لإخلافها، فهذا باب؛ والباب الثاني أنني بالعدوة القصوى، وجاعل الخيفة على من هم بالعدوة الدنيا، ولو كف السلطان خلد الله ملكه عن إغاثة المستغيثين وإصراخ المصطرخين لكان إلى أن ينتهي دخان هذه النار إليه بعيدا، وهو والله يديم ملكه لن يعدم في الحالات كلها ركنا من معونة الله شديدا. وأما المذكور من حديث المال وتراخيه وورود مقطعا قاصرا عما يفيض على الكافة ويعم الجماعة. فسيدنا يعلم أن على نفسي تعبي وصبري واجتهادي ومكاتبتي واستدعائي وهو غاية ما تشتمل عليه قدرتي، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، على أنه ورد إلى الغاية الشيء الكثير إذا اجتمع بعضه إلى بعض؛ ثم أنه إن جرى الأمر على ما يتمم الله به فضله ورحمته على العالمين فهو المأمول من جميل صنعه، وإن تكن الأخرى فمبلغ نفسي عذرها مثل منجح، ونفسي واثقة بالله تعالى بإشراق صبح الفرج وبانكشاف قتام هذا الرهج. مادام القصد فيما نحن بصدده مرضاة رب العالمين سبحانه وصلاح الإسلام والمسلمين بإذن الله.

رد المؤيد على قريش بن بدران

جواب كتاب قريش بن بدران: وصل كتاب حضرته ناطقا بذكر شمول السلامة والسعادة بها فاهتز لمعرفته عطف مسارى، واخضر روض جذلى واستبشارى، وقرأته وأحطت علما بمودعه، وحمدت الله تعالى على سلامة جلله جلالها، ومد عليه ظلالها. وسألته جل اسمه أن لا يخليه من متجدد سرور فى صحة مهجة، وأن يبوئه من حسن توفيقه حدائق ذات بهجة، إنه ولى الإجابة بمنه ورحمته، فأما اعتذاره الكريم عن تأخر المكاتبة فمقبول بالشكر محمول على أحسن ما يكون من الأمر، غير أن المحبوب منه أن يوعز بالمواصلة وترك الأعتاب بالمكاتبة، وألا يخلينى من تحفة بها بعد تحفة. ومسرة يشفعها بمسرة، وأما تقبضه مما كنت خاطبته عليه فى معنى الانتزاع عن الموضع الذى كان للجماعة مجمعا. وإلى لقاء العدو مهيعا، فإننى ملئت من هذه الحالة رعبا، وبت لها فى بردة الهم والفكر متقلبا وسؤالى لسيدنا أن يداوى هذا الداء بلطيف طبه. ويجلى فيه ليل الهم الذى يكاد يحول بين المرء وقلبه، وأما تعيينه على السبب الذى أنشأ هذه الحالة التى اتفقت، وكونه من وراء ما يأسو الكلم، ويسد الثلم. تأليفا للكلم، وحشدا لأفانين الأمم، إلى كسر نواجز العدو، وإنزاله عن صياصى البغى والعتو. ودخولا تحت أثقال الكلف فيما يسر بإذن الله تعالى مراما، ويبرم بسبب الإبرام إبراما، فقد عرفت جميع ذلك وما حدانى على مكاتبة حضرته بما كتبته إلا قيامة فى هذه البلدة التى أنا ساكنها قامت. ونفوس فى لجج الحيرة من أهلها عامت. وأراجيف بكل عظيمة اتصلت، وقلوب على كل رجفة وخيفة من أهلها اشتعلت، وسيدنا أعلم الناس بموقع ضرر الرجوع بعد الإقدام، وكونه مؤذنا بتزلزل الأقدام، وأما تأله لما وقع له من اتهامى إياه من حدوث ما حدث، فكلا وحاشا، فإن الله تعالى رفع عن ذلك قدره. وأجل عن أن يتسم بسمة أهل التهم ذكره، وهو الموضوع فى مهد الرياسة، والمربى فى حجر المجد والنفاسة. والنابت من أكرم نبات العرب، الطاهر من الخنا والريب، وقد كنت أودعت كتابى إلى حضرته أننى ما أوردت الذى أوردت ويتخالجنى ريب فى نيته. أو تعرض لى شبهة فى صفاء طويته، وأن كلامه عندى بلا يمين، ومكان قوله ووعده من الوفاء مكين، وإذا رجع سيدنا إلى الكتاب الذى ذكرته لم يجد على مغمزا فيما جعلنى إليه منسوبا. واتخذه حسابا من سوء ظنى محسوبا، وجملة تغنى عن التفصيل. فلم تزل الشيعة التى هو وأسلافه من أرفع

بيتنا وأزكى نبتها يتمنون مثل هذه الأيام التى قد أتيحت له. وحقيق على الله تعالى أن يجمع بفخارها شمله. وقد جاءته صفوا عفوا فأى عذر له إن لم ينهض لها نهوضا يؤرخ به مجده إلى الأبد. ويشد ساعد المقادير معه شد العضد، ولا سيما وعين الخلافة العلوية إلى فعله ناظرة. ووجوه الثقة بنصر الله سبحانه بعد ذلك ناضرة. والله تعالى يوفقه فى ذلك لسعادة الدارين وشرف المنزلين برحمته: وأما قوله إننى لو نزلت المنزل الذى نزلوه من مصاقبة العدو وملازقته، وحيث تهب سمائم بأسه وسطواته لعذرت من ولاه دبره لا سيما منحرفا لقتاله أو متحيزا إلى فئته، فقد عرفته فلو كنت حاضرا الموضع معهم وأنا أعلم أننى فى دارى وهم فى الغربة، ومعى الكثرة وهم فى القلة. وأنا الذى أرجفت قلوبهم يوم سنجار بعظيم الفتكة، وأننى أدفع عن حريم الإسلام والمسلمين وأنهم قاسطوه بالهتكة. وأننى من أصحاب العدل وأنهم أهل البغى [لئبت أحسن الثبات] متكلا على الله سبحانه رب الأرض والسموات وأريد أن يرمقنى سيدنا بهذه العين فإننى وإن كنت ضعيف القوى فى الجسم فقوى النفس، وإذا انتهت هذه النوبة فعينى شاخصة إلى ما يكون من سيدنا من الفعل الفائح رباه، والجميل محياه، الذى يحله فى الدنيا فوق الفرقد. ويقضى له فى الآخرة بنعم الأبد إن شاء الله تعالى.

كتاب المؤيد إلى أبى الحارث

فصل من كتاب الأجل أبى الحارث أرسلان المستنصرى: وأما وقوع ما كاتبت به الجهات الجليلة من حديث الرجوع بالكراهة فليس يخلو فعليهم من أحد القسمين: إما محمودا أو مذموما، فإن كان محمودا ما وقع فى الناس بعودهم من الرجفة حتى أقبلت الخاصة والعامة يعدون همّ المحامل والمحارب للهرب بنفوسهم وحريمهم، فذاك أمر يجب تقريره مع الناس هل حمدوه أو ذموه؟ وأنا واحد منهم، وأستغفر الله من جزء خطيتى من بينهم، وإن كان مذموما فيتجنى على بالقول ولا يتجنى عليهم بالفعل، وقد كاتبنى كل منهم بما بسط فيه لسان المقال والملال. ولوم الأخذ بآداب الحلم والملاطفة وكظم الغيظ لكنت فى الجواب أمد باعا وأبسط ذراعا وأطول نفسا، وقد عرضوا بل صرحوا بكون قصد التركمانية إليكم وإلى دياركم وجعلوا المال ممنونا عليه، والمحسن محسنا إليه، فصبرت وسكت واحتسبت لا سكوت عى بل سكوت حلم وكتبت واعتذرت وتنصلت والسلام.

الفتنة بسبب المال

ثم إن أصحابنا تجمدوا بمكانهم وتعقدوا. وبقيد المقام تقيدوا. وكانت الأموال واصلة إلى مستقرى بالرحبة. وأنا أسوقها إليهم تواليا؛ فوصل شيء منها فى بعض النوبة فحملته على السنة الجارية فى مثله وهم يستقلون كثير ما يصل. ويستقصرون دون ما يريش فينهض. فأوحى إليهم بعض الشياطين المفسدين أن المحمول فى هذه النوبة لم يحمل بكماله. واقتطع منه شيء فى الرحبة. فأذكت هذه البلاغة من نار الخرق والطيش ما كاد يكون له حطبا، فما راعنى إلا دخول من أذن بوصول أبى الحارث قرب الرحبة. فأحسست فى قلبى رجيفا كاد يقضى على نائرته بالهمود، ويفضى به إلى حيز العدم بعد الوجود. فقلت إن الأمر الذى حثه هذا الحث وسامه هذا الورود لأمر نستعيذ بالله من شره، فتكشفت له إلى شاطىء الفرات. فإذا هو قد استتبع من كل فرقة رسولا، وعبأ كلامه معسولا يعدل به عن القصد الذى قصده فى كون الارتياب لقطع شيء من جملة المحمول هو السبب الذى أورده. فقال: إنه قد جرى من هذا الأمر ما يضعف القوى ويفصم العرى. وجئتك سائلا أن تزيدنا بما يحصل لنا مخرجا من الأمر فأنا خليفة السلطان، ومعى من كل جهة تلحظ ما يتقرر. ولسان يؤدى خبر ما يتحرر. فكن إما رجلا يعطينا مائتى ألف دينار لا أقل منها تسد بها فوهة هذا السبيل، أو لا. فنلقى حبلنا على غاربنا ليسعى كل منا فى شغله ويدير تدبير أمره. فسمعت كلام المسرف المشتط الذى يؤثر أن يداحضنى مداحض التخبيط ويسد فى وجهى مذاهب الرأى والبصيرة ويجعل لسانى فى عقلة بين عهدتى لا ونعم، فأجبته إجابة بديهة لا روية فقلت: كلامكم هذا كلام من يبتغى حجة، ويحاول تعلة، وتظنون أنكم أخذتمونى فى مضيق لا مخلص منه، وليس الأمر على ما تظنون. فإن نفسى بطلف الله قوية، وأبواب الخلاص بين يدى مفتحة. ومائتا ألف دينار التى تطلبونها فلم أطلع على معرفة الكيمياء فأخرج ما تلتمسونه إليكم. فإن على كل يد رد ما أخذت. والمحمول إلى يقترن به كتاب يدل على مبلغه. فإذا أخرجت الكتاب وعرضته عليكم لن تبقى علىّ حجة بعده، فإما إلقاء الحبال على غاربكم «فولّ حارّها من تولى قارها» كذلك يلقى حبله على غاربه من صارت أموال السلطان خلد الله ملكه إليه، وجرى الأمر فى صلاحها وفسادها على يديه، فهو أحق وأولى أن يلى تدبير أمره من غيره. وليس على المسالك والمنافذ من جهتى أقفال ولا دروب فتحاول منى أن أفسح لهم فى المذاهب وأتخلى

عن المسارح والمسارب.

فلما رأوا جنة الحجة عندى حصينة. والفكرة بما ألقوه من حبالهم وعصيهم قليلة، رجعوا على أدراجهم، ونكصوا على أعقابهم، ولم يحصلوا من ربح التجارة من صدورهم وورودهم على غير وقوع الشناعة بهرب أبى الحارث من عسكره ليلا. وازدياد التركمانى به قوة وحولا. بعد أن كان يمارس قلا وذلا. فجعل يضايقهم منزلا منزلا. ويدنو منهم يوما فيوما، تجره من ناحيته أفانين من الخديعة والمكر، ومن صوب عسكرنا ارسان الخيانة والغدر، وكانوا بالنسبة إلى القوم الذين هم فى حيزنا الفائضة عليهم سجال أموالنا كالجزء الذى لا يتجزأ قلة. وكانوا هم بعدد الدَّبى كثرة، لولا أنهم بيوت من الجسوم خاوية ومن النحيزة خالية، يأخذون على الدفاع عن حريمهم وأموالهم أجرا، ويعطون مكان الوفاء غدرا، ويسكنون فى مساكن الذين بدلوا نعمة الله كفرا، فلم تزل كل فرقة من أصحابنا ومن التركمانية تضايق أختها حتى دنا أن يتواخذوا باللحى والحلاقيم.

وكانت العيون شاخصة إلى مال محمول من الباب الطاهر إلى حلب على أن يصل إليهم ويتوزعونه فيما بينهم، فيجعلونه مركبا للمناجزة ويعبون معه صفوف المنابزة والمقارعة. فلما وصل إلى ابن صالح المال سلمه إلى أخيه المسمى عطية[1] ليوصله منى إلى حيث ينساق إليهم، ويستطلق مغلول يد أبى الحارث بحصوله لديهم، فغدر عطية به وزواه إلى بعض حصونه. وقطع اللقمة فيه عن حلقومهم، ولو وصل إليهم لكانت التركمانية فى أفواههم لقمة. ولكان يكشف الله تعالى فى أمرهم غمة عن الخلق أجمعين وظلمة. فحين أتانى الخبر بذلك رأيت وجه نهارى أغبر أقتم، ولسان فكرى وبصيرتى وتدبير حالى أخرس أعجم، بحصولى فى ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾[2] من مجاورة التركمانى على علمى بانبساط يده إذا سمع بانقباض يد المال، وارتتاج باب حلب فى وجهى وكانت وجبتى إذا جرى ما يؤدى إلى الإجفال، وكون السلوك فى برية دمشق مع حر الهجير وعدم الماء ومنبت الحبال إن أردت الهيمان فى واديها على تصارد الأحوال وآثرت المنية فى معاطشها على

---

(١) أبو ذوابة عطية بن صالح بن مرداس وهو الذى أوصى إليه أخوه ثمال بن صالح بحلب فى ذى القعدة سنة ٤٥٤ هـ. ولكن انتزعها منه ابن أخيه محمود بن شبل الدولة نصر بن صالح وسار عطية إلى الرقة فملكها ولم يزل بها حتى أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش سنة ٤٦٣ هـ وغزا عطية الروم فمات بالقسطنطينية سنة ٤٦٥ هـ.

(٢) سورة المرسلات آية ٣٠، ٣١.

موتة بأيدى التركمانية محفوفة بالانكال، ثم أننى مددت فى الصبر والتماسك نفسا وقيدت نفسى تعليلا لها بلعل وعسى، فصادفت وجوه الصبر ناضرة، وعين التوفيق بتعلقى بعلائقه ناظرة، وطال أمد مقام الفريقين من عسكرنا وعسكر التركمانية أحدهما [لا يلقى] الآخر، والمسافة بينهما [دون يوم كأنهما بحران جعل الله بينهما] حاجزا من الذل، فهذا جامد مع الكثر وذلك جامد على القل، ولما رأيت بواعث النحائز بينهما لا تنبعث والغصة فى الحلق من الدست لا تبتلع، كتبت إلى وزير التركمانى المعروف بالكندرى ما هذه نسخته:

كتاب المؤيد إلى الكندرى

يعلم سيدى الأجل عميد الملك أننى كنت خاطبت حضرته بكتاب وهو يومئذ مقيم بالرى خاطبا لمودته، وطالبا لا تشاج الحال بينى وبينه لما كان يبلغنى من محاسن أوصافه، وجميل خلاله وخصاله، ولأن يكون التعارف بيننا سلما إلى التعارف بين سلاطيننا خلد الله ملكهم وتأكد سبب المودة بينهم انتهاء منا إلى ما قال الله سبحانه ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[1]. واتفق من الأمر سبق ابن المسلمة إلى باطله حتى عمل سحره ونفذ كيده وحصل الركاب العالى ببغداد وانبثت الكتب يمينا وشمالا بكون قصده لقضاء حق الخليفة والسلام عليه والتبليغ بعده إلى مصر، فحين استمر جرى هذا الكلام فى مسامع سلطاننا خلد الله ملكه ووزيرنا أدام الله أيامه ضاقت صدورهما من سماع هذا القول الجافى من غير داعية إليه، وكثر العجب من السيد على ما قرأه من السير وعرفه من أنباء الأمر أن يكون العباسى عنده خليفة الله، فإن أباه الذى أجلسه من أجلسه خليفة الله كان الذى بوأه هذا المكان ومهد له هو تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. ومتى كان العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه خليفة حتى يكون أولاده خلفاء، وإن صلح أن يكون أحد خليفة صلح أن يكون من استخلف النبى صلى الله عليه وسلم أباه عليه السلام [وأنزله منزلة هارون من موسى] بقوله «على منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى» هو الخليفة، وهذا إجماع من المسلمين كلهم يؤكده قول الله تعالى فى كتابه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾[2] ولم تعتقد فرقة من فرق الإسلام أن العباس خليفة أصلا، وسوى هذا فإنه على عدم الخلافة عادم لصدق القول

---

(١) سورة النساء آية ١١٤.

(٢) سورة الأعراف آية ١٤٢.

وصدق اليمين وحسن الوفاء إذ كان فى رقابهم لمحمود بن سبكتكين من العهود والأيمان ما ضيعوه فى أولاده ولم يفوا به، ومالوا عليه وعليهم[1] وبالأمس نقضوا العهود والأيمان مع بنى بويه الذين كانوا نزلاء دارهم ومتقلبين على إحسانهم[2] فالأمانة معدومة عندهم كعدم الخلافة؛ فأما الذى يتبرج بزينة العصبية لهم فإنما يكتسى كسوة العار، وهو كما قال الله سبحانه حكاية عن قول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾[3] ومعلوم للسيد أن ورودهم بغداد اغترارا بقول ابن المسلمة كان إثمه أكبر من نفعه، ومفسدته أوفر من مصلحته. من حيث أن السلطان ملك من شط جيحون إلى العراق موضعا فلم يوكس جاهه ولم يدخل عليه معرة إلا فى هذا الأمر، فإنه بطل ناموس ملكه من الدرهم ثلثاه: فالثلث بوقوع الفتك على خيار عسكره بسنجار والثلث فى توجه مثله بنفسه على عظم قدره طالبا الموصل واستينائه من مسافة سبعة أيام أربعة أشهر وزيادة لا يجد متقدما ولا متأخرا، وبقى فى الأمر الثلث وهو أن يصدم بنفسه على من هم بلقائه من خصومه، فيكون مثله مثل الذى يتناول السم بالتجربة، وقد قالت الحكماء التجربة خطر، ولا يليق بمثل ذلك الملك العظيم أن يغرر بنفسه فى مثل هذا الأمر إلا أنه ليس يخلو من أحد وجهين إما أن يدفع فى صدره ومعناه مفهوم والله تعالى يكفيه ما يحاذره ويقى نفسه ويكره إليه ما هو بصدده من الاجتهاد فى غير موضعه. وإما أن يكون له اليد وليس يكاد مع ذلك يحظى بطائل لأن سلطاننا خلد الله ملكه رجل علوى طويل اليد

---

(١) السلطان يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين ابن الأمير ناصر الدولة أبى منصور صاحب خراسان وغزنة، وفاتح عدة بلاد من الهند وغيرها واتسعت مملكته وكثر ماله، توفى سنة ٤٢٢ وتولى بعده ابنه مسعود بن محمود الذى سار نهج أبيه فى الفتوحات فى الهند وتوفى سنة ٤٣٣. والذى يقصده المؤيد هنا أن محمود بن سبكتكين لما غزا ما وراء النهر وجد زعيم السلجوقيين ذا شوكة وعدة يتصرف فى أمره على المخادعة والمراوغة فاستجاب له بعض السلجوقيين وفر منه آخرون ومازال يحاربهم حتى توفى فقام ابنه مسعود فى مطارتهم فسألوه الأمان وسألهم الطاعة ولكنهم سرعان ما عادوا إلى فسادهم فاضطر مسعود إلى تأديبهم وكان طغرلبك إذ ذاك فى بلاد ما وراء النهر وكاتب مسعودا للحاق به فاستدعاه فوفد على خراسان بجيش كبير فصار للسلجوقيين قوة استطاعت أن تملك البلاد من مسعود بعد ما أعطوه من العهود والمواثيق ومازالوا يستولون على البلاد حتى تم لهم الغلبة ولم يقم العباسيون بمساعدة مسعود بن محمود وفاء لعهده وعهد أبيه من قبل، بل استقبل العباسيون طغرلبك وملكوه على بغداد نفسها. (راجع ابن الأثير – النجوم الزاهرة – ابن خلكان).

(٢) سبق أن ذكرنا كيف قبض على الملك الرحيم بن أبى كاليجار البويهى وكيف انتهت بذلك دولة البويهيين. فالمؤيد هنا يذكر أن العباسيين لم يستطيعوا أيضا أن يحموا البويهيين.

(٣) سورة مريم الآية ٤٢.

وطويل اللسان ولكونه ابن بنت رسول الله عليه السلام وولد على بن أبى طالب عليه السلام ولكونه حافظا لمكة والمدينة حرسهما الله تعالى حرمى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والأب والأم العلويين والعلويات الذين يجمعهم ذلك المقام الشريف الذين يتصرف إليهم وإلى نفقاتهم فى كل سنة من خزائنه زيادة على مائتى ألف دينار والرجل الذى يمسك فريضة الحج الموجبة على الخلق من دثورها وبطلانها. فلولا قيامه بماله وسيفه لكان طريق الحج منسدا من جوانب البر كلها، فهذه نصبة حاله. وسوى هذا فإنه الثامن من الملوك آبائه[1]، الوارث عنهم من الأموال والأسلحة والخزائن مالا يحصره حد ولا يحصيه عد وليس يكاد بعد استفتاحه فى هذا الأمر وثقته من الله تعالى بالنصر يرده عن أن ينظم الطريق بالأموال والعساكر شيء إلى أن يبلغ الكتاب أجله ويقضى الله أمرا كان مفعولا؛ ويتعين على السيد عميد الملك أن يتأمل هذه القصة بعين البصيرة، ويعلم وضوح الحق فى مضمارها، وأن يشير بقبض اليد عما لا يثمر شيئا غير سخط الله وخراب البلاد وهلاك العباد وليقف الحال حيث بلغت. وإن كانت فى بغداد فائدة فهى التى حوتها أيديكم مما كانت مودعة فى دار العباسى فخفر الأمانة فيها، وجعل إليكم سبيلها، وما بقى غير الصداع والفساد فى الأرض؛ وقد كاتبت حضرته بهذه الحروف لما وثقت به من دينه وفضله وحبه للصلاح والخير ليتوسط القصة على ما فيه مرضاة الله سبحانه ومصلحة عباده وكساد سوق الفتنة والإمساك عن اتباع خطوات الشيطان. وأنا أنتظر جوابها الذى يلوح منه نور الخير فيرجع بإذن الله تعالى لبداءة الأمر ونسج المودة بين الأصحاب حرس الله أيامهم والأخذ فيها إلى سبيل الرشد والصواب بمنة الله وعونه إن شاء الله تعالى.

دسائس الكندرى

وصادف وصول هذه المكاتبة أن الوزير المعروف بالكندرى كان يدس إلى القوم دسائس المكر، وينصب لهم شرك الغرور، بما يؤدى إلى تفريق الشمل وتعكيس الأمر، ويضمن لواحد ولاية الموصل، ولآخر ولاية البصرة وواسط، فأصاب سهم مكره المقتل وضرب سيفه منهم

---

(١) نلاحظ هنا أن المؤيد ذكر أن المستنصر كان الثامن من الملوك آبائه أى أنه جعل أولهم عبيد الله المهدى الذى ظهر بالمغرب، ولم يشأ المؤيد أن يذكر عدد المستنصر فى سلك الأئمة حتى لا يضطر إلى التحدث عن الأئمة المستورين الذين كانوا بعد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. وبناء على عقيدة طائفة البهرة يكون المستنصر الثامن عشر من الأئمة والثامن من الخلفاء الفاطميين.

المفصل ولعب بعقول القوم فعصفت بهم عاصفات التفريق والتمزيق. وأرعب أبو الحارث من كـون العمـدة عليه وأنهم هموا به ليأخذوه. فركض برجله منصرفا عنهم ومفارقا لهم. فلما قطع حبله من حبالهم دفع فى صدر ما كانوا عليه شـورطوا وعوقدوا، فلم يحصل إلا على غدر وسموا به جبينهم، وأيمان نقضوها بعد توكيدها، وقد جعلوا الله عليهم كفيلا، فخسروا دنياهم ودينهم. وخلع ما كانت أفيضت عليهم وعلى أولادهم وحريمهم من الحضرة العلوية على الفور تعوضوا عنها خلع ربقة الوفاء من الأعناق، فطوقوا طوق العار فى إضاعة الحرمة عقيب ما طوقوه فى تلك الأطواق، ورجع أبو الحارث ومن معه إلى الرحبة[1].

ووردت على كتب القوم المسـخور من عقولهم باعتذار لكن لسـانه مقطوعة بنانه منهدة أركانه، فأجبت عنها بما هذه نسخته.

كاتب المؤيد إلى ابن مزيد فى تهجين صلحه مع طغرلبك

نسـخة جواب كتاب ابن مزيد: وصل كتابه مشـتملا على ما سـرنى من ذكر سلامته وعافيته، وقرأته وارتحت لمعرفة مضمونه. وسـألت الله تعالى أن يشـفع سـلامة جسـمه بسـلامة النفس والديـن، وأن يصون كريـم عرضه من ضرب ألسـن اللائمين، ومضطرب

(١) ورد فى ابن الأثير فى حوادث سـنة ٤٤٨: أن طغرلبك سـار عن بغداد عاشر ذى القعدة. ومعه خزائن السـلاح والمنجنيقات، فلما بلغوا (أوانا) نهبها العسـكر ونهبوا عكبرا وغيرهما، ووصل إلى تكريت فحصرها وبها صاحبها نصر بن على بن عيسى فنصب على القلعة علما أسود وبذل مالا فقبله السلطان ورحل عنه إلى البوازيج ينتظر جمع العساكر ليسير إلى الموصل. وأقام بالبوازيج إلى أن دخلت سنة ٤٤٩ فأتاه أخوه فى العساكر فسار بهم إلى الموصل. وأقطع مدينة بلد لهزارسـب بن بنكير. وتوجه السلطان إلى نصيبين، فقال له هزارسب: قد تعادت الأيام وأرى أن أختار من العسكر ألفى فارس أسير بهم إلى البرية فلعلى أنال من العرب غرضا. فأذن له فى ذلك. فسار إليهم فلما قاربهم كمن لهم كمينين، وتقدم إلى الحلل فلما رأوه قاتلوه. فصبر لهم ساعة ثم انزاح بين أيديهم كالمنهزم فتبعوه فخرج عليه الكمينان فانهزمت العرب وكثر فيهم القتل والأسـر. وكان قد انضاف إليهم جماعة من بنى نمير أصحاب حران والرقة وتلك الأعمال وحمل الأسرى إلى السلطان. فقتلهم إلا صبيا أمرد.

ولما ظفر هزارسـب بالعرب وعاد إلى السـلطان طغرلبك، أرسـل إليه نور الدولة بن مزيد وقريش بن بدران يسـألونه أن يتوسـط حالهما عند السـلطان ويصلح أمرهما معه فسـعى فى ذلك واسـتعطف السـلطان عليهما فقال: أما هما فقد عفوت عنهما. وأما البساسـيرى فذنبه إلى الخليفة، ونحن متبعون أمر الخليفة فيه، فرحل البساسـيرى عنـد ذلك إلى الرحبة وتبعه الأتراك البغداديون ومقبل بـن المقلد وجماعة من عقيل. وطلب دبيس وقريش أن يرسل طغرلبك إليهما أبا الفتح بن ورام. فأرسله فعاد من عندهما وأخبر بطاعتهما وأنهما يطمعان أن يمضى هزارسب إليهما ليحلفهما. فأمر السلطان بالمضى إليهما فسار واجتمع بهما. وأشار عليهما بالحضور عند السلطان. فخافا وامتنعا فأنفذ قريش أبا السداد هبة الله بن جعفر وأنفذ دبيس ابنه بهاء الدولة منصورا فأنزلهما السلطان وأكرمهما وكتب لهما بأعمالهما.

طعـن الطاعنـين. وهو فاعل ذلك برحمته، وأما اعتذاره عما ذكر أنه أحدثته الأيام والليالى اقتصارا على التلويح وإضرابا عن الصريح، فقد عرفته، ولم تزل الأيام والليالى سـريعة اليد لعمـرى فى فعل الجنايات، خفيفة فى إتيـان المعضلات. ولا كهذه التى توجهت نحوها الإشـارة. وذلك أن رجلا هو من العرب اليوم شـيخها وعينها الناظرة ويدها الباسطة وبيته منهـا أجل البيوت وغرسـه فيها أزكى الغراس، وله فى ولاء أهل بيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قدم صدق وراثة ورثها أبا عن جد وكابرا عن كابر. فصدور الجاهلين منهم لاشـتهار ولائهم موغرة. وقسـى المعاندة نحوهـم موترة، وهم مع ذلـك لا يتوجهون غير وجهتـه، ولا يصلـون إلا إلى كعبته، ويتمنون طول زمانهم رايـة علوية تقوم ليكونوا طلعة علـى رأسـها. وحربا لها مع أعدائهـا تقع ليصبحوا جمرة لمراسـها. وبينما هم كذلك إذ انخرم عليهم سـد يأجوج ومأجوج فرأوهم من كل حدب ينسلون. سباعا فى صور البشر لا يحرمون ما حرم الله ولا ما حلله يحللون، يسبون الحريم والرجال يقتلون، يؤتمون الأولاد والأمهات ينكلون، حتى إذا دهمهم من هذا الأمر مالا يطيقون. واستووا على خيل الهرب يركضـون. لا يـدرون أين يقومون ولا أين يقعون. هتف بهم هاتـف من البيت[1] الذى لم يزالوا لأهله يوالون. فقال: امكثوا ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2] فسكن رجيفهم وأمن خوفهم وواساهم من فضل الله تعالى ما أفاء الله عليه، وقال أفتح باب الإطلاق والإنفاق واجمع الأيدى معكم حتى أوردكم إلى معادكم. وما أترفتم فيه من مساكنكم وبلادكم. فإن أمكن الله تعالى من ذلك فمعاهدكم أولى وديباركم آنس بكم، وإن قصـرت يـد القدرة دونه مهدت لكم من جنابى مكانـا، وعوضتكم عن دار دارا، وعن جـيران جيرانا. فلم تزل سـحاب كفه يهمى بالنيل، ويجـود بالانفاق والبذل، حتى أتى الناس من كل طريق، واجتمعت الجموع حيال العدو من كل فج عميق، وكادت الريح تهوى به من مكان سحيق، فحين رأى الشيخ المقدم ذكره أنه قد قام بهذا الجمع العظيم عموده، وتوثقـت عقوده، وتندى بعد الجفاف عوده. لم يرع لمن أنشـره مـن قبر الإضاعة حرمة، ولم يرقب فيه إلا ولا ذمة. ونكث أمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشـفقن منها وحملها الإنسـان. وجعل المنفق عليه من عظيم المال والمجموع من جموع الرجال سلما إلى مسالمة عدوه، ومفاسدة المنعم عليه وليه ولى الله وابن نبيه صلى الله عليه وسلم. فقبحا لزمان تنزع يده لباس الفضائل عن الأفاضل، وتسم نواصيها بأقبح رذائل

(١) المؤيد هنا يقصد نفسه.

(٢) سورة النمل الآية ٧.

الأراذل. والله لقد غمنى فى سيدنا أن تكون هذه الأفعال عن مثله تصدر، وهذه الأخبار عنه تؤثر وتنشر. أيستحق من شملك بر افتقاده بالأمس القريب فى نفسك وأولادك وحرمك وحواشيك يا شيخ العرب أن تجازيه هذا الجزاء، ولو أنه من بنى يزيد بن معاوية الذين تبرأ منهم فضلا عن بنى على عليه السلام الذين تتوالاهم. فما عذرك عند رب العالمين؟ وما احتجاجك عند المخلوقين؟ لا سيما وأنا مفكر فى أمر الثروة والألوية والمنحرفات القريبة العهد يحملها إليك أيكون زينة لك أم هجنة. إنها إذا كان لها قياما عندك كانت على سكوتها أبلغ خاطب فى مذمة من يهدى له مثلها فيكون الغدر جزاءه، فإن طويت فى مطاوى الخفاء أنفة من هذا القول واحتقرت كان معلوما أن الاحتقار لها يصح ممن يملك يوما مثلها وهم مالم يملكه ملوككم فضلا عنكم.

وأما رسالته بأن تقاعد العرب بهم وقلة انبعاثهم لمساعدته أخذت سيدنا إلى ما كرهه من هذا الأمر. وأنه إذا نصبت نصبة جديدة تنافى هذه بانتداب أحد الأمراء أولاد أمير المؤمنين خلد الله ملكهم لها، ونهوض وزيره حرس الله أيامه بفيض الأموال والخزائن والرجال فيها، كان هو أول مساعد على هذه الخدمة وقائم بأحكام الطاعة فقد عرفته، ولقد كان الإمساك عن هذه المعذرة معذرة. والكف عن هذه المقالة فضيلة، فليس تقاعد العرب به لو تقاعدوا مما كان يحتم عليه أن يتقنع بهذا العار، ويتعصب بهذا الشنار، ويصده عن أن ينكفئ إلى باب سلطانه خلد الله ملكه كما انكفأ غيره. ومعلوم أن الذى يستنكف من الأمر لم يكن ابن ساعته، وإنما كان رأيا مخمرا وشيئا مقررا، وكلما برق للأجل المظفر منه بارق وكادت القصة معه تنفسير وتنتشر، مدوا عليه من الخديعة سترا وقدموا بين يديه بالباطل عذرا. فلم يزل الأمر على ذلك مستمرا حتى أخذ بحق النضاج. وانتهى إلى كشف الحجاب عن وجه الرتاج. وأما النصبة الجديدة التى يكون أحد أولاد أمير المؤمنين خلد الله ملكهم متوليها ووزيره أدام الله أيامه الناهض فيها. فهى نصبة إن بسط لها واحد فى العمل بها لكانت قائمة بنفسها مغنية عن أن يكدح كادح إلى المساعدة عليها فمعلوم أن الإمام المعز لدين الله قدس الله روحه لما سار من القيروان إلى مصر كانت معه عدة جمال[1] – استحى من ذكرها – مثقلة بأكياس المال التى فرغت، وإن كانت لهم حركة فيه تكون على مثل هذا السبيل

---

(١) سير المعز إلى مصر مع جوهر ألفا ومائتى صندوق من الأموال على الجمال. وجندا يربو عدده على مائة ألف [ابن خلكان ج ١ ص ١١٩]. وفى اتعاظ الحنفا نقلا عن ابن زولاق أن أبا جعفر العلوى سئل عن مقدار عسكر جوهر فقال: مثل جمع عرفات كثرة وعدة ويذكر المؤرخون أن المعز خرج إلى مصر ومعه الأموال والذخائر والكتب وجثث آبائه وأهل بيته وكان ذلك محمولا على عدد كبير من الجمال والعشاريات.

أو بعضهـا أولا فـلا حركة. وما خفى على مـن أول يوم أن هذا الأمر يقف وأنه على ما قال القائل «يد شلاء وبيعة لم تتم[1]» فإنى رأيت فى التمريث للأمر والتمريض ما علمت السبب فيه، وخبرنى أيضا المخبر به، ودارت بينى وبينه نوب فى معناه، وقلت إن السلطان يكون من يتدبر بغداد ويلى الأتراك والأجناد الذين هم سكان المدر دون الوبر. ولو كان جرت عادة بملك أصحاب الوبر لأصحاب المدر لما غيرت ولا بدلت، ومع هذا كله فليس على المنعم فى حكم من الأحكام إذا أنعم على هذا بدرهم وعلى ذلك بعشرة أن يكون صاحب الدرهم كافرا لمـن أنعـم على غيره بأضعاف مـا أنعم به عليه، ولو جاز هذا لكان هذا يسـقط عن جمهور الناس فريضة شكر نعم رب العالمين سبحانه إذ لم يجعلهم كلهم ملوكا بل فضل بعضهم على بعـض فـى الرزق تفضيلا، وما رحل القوم عن الرحبة إلا بنيات فاسـدة، ونفوس متباغضة متحاسدة، ولبثت فيهم ما لبثت أرى كلا منهم يتخذ لنفسه سبيلا، وأتوقع قبيح ما هم عليه بكرة وأصيلا. وما سـاروا لما ساروا إلا متعثرين فى أذيال الفتور، ومحدثين أنفسهم بالعدول إلى جانب الخابور، ثم اعترضت لهم التركمانية فلزمت ملازمها وسـاق الله إليهم من النصر فضيلـة كانوا عنها مبكين، وعن النفوذ فى صوابهـا مجنبين وقلدوا المنة بها جيد من ألف شملهم بعاله ليعودوا إلى أوطانهم فتقلدوها والمنة له عليهم واعتدوا بها حسنة والاحسان منة إليهـم. ثـم انتهى الأمر إلى ما انتهى إليه بعد طول الخبط وامتداد الشـوط والله تعالى يخير للدولة العلوية ويجريها على حسن عوائده ويضاعف حظها من سنى نعمه وفوائده. فوالله ما توخت إلا إجارة المستجيرين لمراحمها، ولا طالت بالبذل يد أنعامها ومكارمها إلا قصرا ليد طالت إلى دماء المسـلمين وحريمهم أن تفجعها ببراجمها، ولو كان ملك العراق قصدها لكان ورده مـوروداً ببعـض هذه الأموال فى زمان اختصاصى بخدمة الملـك أبى كاليجار. وكونى معه مستقيم الحال وبعد طول هذه النوبة من محاورة سيدنا فلابد من كلمة أخرى أتكلم بها وأتفهـم بهـا ما عنده فيها، هذا الصلح المبارك المسـتقر بينه وبين التركمانى ليس يخلو من أحـد أمرين: إمـا أن يكون مقامهم ببغداد فيكونون ردءا لـه، فليقر عينا بطيب العيش فى جوار خير حمى وخير عشيرة، وليعلم أنه انتقد الرأى فى احتمائه بهم انتقاد بصير، وإما أن يخلو الدار منهم فعليها من أبى الحارث والعسكر البغدادى رقيب صقر على فريسته يحلق؛ ولأنيابه ومخالبه عما قليل يعلق، بحول الله وقوته إن شاء الله تعالى.

(١) فى كتاب الإمامة والسياسـة المنسـوب لابن قتيبة ص ٥٢ (طبعة المكتبة المصرية سـنة ١٣٢٥ هـ) أن عليا أقبل إلى المسـجد وكان أول من صعد المنبر طلحة فبايعه بيده وكانت أصابعه شـلاء فتطير منها على فقال «ما أخلقها أن تنكث ولكن مؤرخى الإسماعيلية رووا أن عليا قال: يد شلاء وبيعة لا تتم».

كتاب آخر إلى ابن مزيد

وكتبت إلى ابن مزيد بعد الفراغ من كتب الكتاب. أوقفنى صاحب على كتاب حضرته إليه. وفى آخره فصل يذكرنى فيه. وأما صدر الكتاب فقد دل على أن الضرورة دعته إلى ما فعله بحصوله بين ظهرانى عشيرة عنها الرأى عازب. وعليها الخوف غالب. إن تخفف تثاقلوا. وإن تقدم تأخروا. وأن شاهده بهذا القول جابر بن ناشب. وهو حاضر فيسأل أنه أنه لا يأبى الشهادة وأنه كان المشير بفعل ما فعل أيضا. فكلامه فى هذا الباب كلام يجيب عن نفسه ولا يحوج إلى معبر يعبر عنه. فقد كان ذلك المقام كما قال الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[1] ما غاب عنه البدوى والحضرى والملى والذمى فى مائة ألف أو يزيدون كلهم على كلمة سواء أن خميرة القدر هى التى قادت العدو بمقادة الاسترسال إلى العبور والإناخة بفناء عظيم ذلك الجمهور. وأنه لو ترك بعد ذلك حتى تعصف بهم رياحهم لأصبحوا شعاعا بددا. ولما كانت تقوم لهم قائمة أبدا. وخبر الإجماع لا يبطله خبر الآحاد. فأما جابر بن ناشب فممتنع أن يكون أشار بشىء وعمل هو بخده. وما معنى مفارقته لكم إن كان مصوبا لفعلكم. وأما ما تقدم به إلى صاحبه أن يقول لى اسمع كلامى وأجب عنه جواب منصف. وقوله بعد ذلك الله تعالى يعلم صدق ولايتى ومحبتى ومخالصتى واعتقادى باطنا وظاهرا قديما وحديثا فقد عرفته. وأنا أجيب عنه جواب المنصف عن .. ما مثله فأقول: إذا كان هذا فعله مع أوليائه فما الذى ادخره لأعدائه. وأما قوله إنه قصد الرحبة مع هذا الاعتقاد يرجو نيل كل طلبته فلم يحظ بطائل. وأن ابن عمه أقام بمصر المدة المعلومة فعاد بلا درهم. وأن اليمين التى حلف بها ما كانت معلقة بشروط القيام بنصرته ومساعدة عشيرته. فالجواب أنه بسلامته ما ثنى وجهه من تكريت[2] إلى الرحبة إلا وهو لا يعقل من الفرح إذ كان صاحب التركمانى قد لزد إلى تسليم الرهينة بالتزام المال فلما ورد عليه كتابى وكتاب الأجل المظفر ما ظنه إلا صحيفة من السماء نزلت عليه فقام يركض على خيل الأسراب. ولم يفارق الموضع إلا بموافقة علم الدين على أن يحفظ الأعز منها الأذل والأقوى الأضعف. وقام دليل ذلك بسنجار بعد الفتح. فلما ورد الرحبة ووجد حظ غيره أرجح من حظه أخذته العزة وتداخلته الأنفة فجعل يعكسنى ويجرى على

---

(١) سورة هود الآية ١٠٣.

(٢) تكريت بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب.

الشـوك والشـجر نحو أربعين يوما. ويردد القول فى معنى تشريفة ترديد بنى اسرائيل فى شأن البقرة حتى انتهى إلى مثل قول الله تعالى ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[1] وأنا أعلم العلة فيه وأما اليمين فقد كنت أسامحه بها تبرعا فأبى الله إلا أن يطوقه أطواقها، ويسمه باسمه الحنث والنكث فيها، وأما احتجاجه بكونها متعلقة بشروط النصرة والمساعدة فهبنى الملك القول له. هل يكون فى المساعدة أكثر من خمسين ألف دينار قد أخذها وكان الملك أبو كاليجار حمل مع ابن مرشد وأبى البقاء لامتلاك بغداد مثل هذا المبلغ. إلا أنه كان شاهية، فإذا كان هو وحده أخذ خمسين ألف دينار مساعدة له ولعشيرته على الرجوع إلى بلادهم، فما الذى يطلبون بعده؟ وأما النصرة فهل يكون فيها أبلغ من جمع الأيد التركية والعربية والكردية والأجناس المختلفة الذين جمعهم قبض الأموال حتى يردوه إلى بلاده فجعلهم سبيلا إلى إصلاح أمره ولم تنهه نواهى الغيرة على اسمه أن يقبح ذكره وأما ابن عمه فقد وصل إليه من فضل الدولة العلوية- نصرها الله- وأنعامها ما جحده وكفره وقابل عنه بما اشتهر عنه. وكل يعمل على شاكلته، وأما قوله إن الذى فعله توخى به المنع عن بلاد الشام وإنه خدمة حاضرة فما عندى إلا أن أقول أحسن الله جزاءك والسلام.

خطاب المؤيد إلى ابن ورام فى تهجين موقفه[2]

نسخة كتاب ابن ورام: وكنت كاتبته بذكر ما بلغنى من تواصل مكاتبات أخيه إليه يدليه بغرور، يعده ويمنيه كما يعد ويمنى الشيطان بالزور، ويضمن الإحسان إليه من موضع لايصح منه الإحسان، وأن نفسه تكاد تصبو إلى قوله، وتسكن إلى وعده وبذله، وعوذته بالله السميع العليم أن يصير على شيخوخته وحلبة الدهر أشطره مخدوعا، وأن يصادف قول الباطل فى نفسه وقوعا ونجوعا، فأجاب عنه الجواب الذى كاد أن يليق به لو لم تكن خديعة. وشفعة بالايمان التى لايعتمد الكذب فيها إلا من قطع رحم الأيمان قطيعة، فسكنت إلى قوله سكون من ينزهه عن شين التحريف، وأن يستفز الشيطان مثله من ذوى الحصافة بكيده الضعيف، فبينما أنا جار على عادة حسن الثقة به، والسكون إلى جهته إذ كشف التراب عنه دفين جيف الفعل بما غشى النفوس، وأدار نتنة الرءوس، وما اشتد على

---

(١) سورة البقرة آية ٧١.

(٢) راجع هامش ١ ص ١٥٣ إذ يفهم من رواية ابن الأثير أن ابن ورام كان أسبق الأمراء إلى نقض عهده مع المؤيد والاستجابة إلى طغرلبك مما فت فى عضد غيره من الأمراء.

أننـــى كنـــت بصدد تمام أمر كنت أرجو تمامه فوقف. وحيل كنت أوثقت إبرامه فانتكث، كما اشتد على أن أمراء لم يزالوا مرموقين بعين الوفاء والإنسانية والمروءة. قد انقلبت منهم فـــى هـــذا الأمر الأعيان. ونقض الخبر عنهـــم العيان. فوالله العظيم مالـــك يوم الدين أيها الأمـــير لو رجعـــت إليك بلدك وهى تنبت ذهبا لما وفت ببعض ما ذهب من مائك وبهائك، ولا جـــددت رسما مما خلق فى ديباجة وجهك. إن اكتســـاب المرء بإخافة الســـبيل وقتل النفس المحرمة لأشبه بأحكام الرحلة من اكتساب المرء بالغدر بمن وفى له والاساءة إلى من أحســـن إليه ونقض الأيمان بعد توكيدها. وقد جعلتم الله عليكم كفيلا لاســـيما والمغدور به هو ابن فاطمة الزهراء الذى نعش صريعكم، وأجار مستجيركم. وقام فى العصبية معكم فيما يحميكم ويحمى المســـلمين، وينجى الكافة من عوادى القوم الظالمين. ولقد كان الأولى بكم والأزين لكم أن لا تضيعوا له المعروف إلى صلاحكم وصلاح المســـلمين إضاعة، ولا تجعلوه لتنفق كاسد سوق بضاعتكم لولاه بضاعة. ولا تغلوا بغدركم بعد القتال فإن أسغر عن النصر كان صلاحـــه لكـــم، وتأخذون بعده ثوابا. وإن وقف تيممون حمى كريما له وجنابا. وكنتم تتمهدون بها الأكرام، وترتضعون درّ الإحسان والإنعام.فأما وقد فعلتم ضد ذلك مما أغضبتم به أحســـن الخالقين. واســـتطلقتم بذمه ألسن المخلوقين فما يؤمنكم أن الذى بعتم من أجله الإنسانية والدين والمروءة يحال بينه وبينكم من إحدى جهتين: إما من جهة من واصلتموه، وإمـــا من جهة من فاصلتموه. فتكونون لا فى حزب الشـــيطان ولا فى حزب الرحمن. ولو لم يكـــن الأمر مترجحا بـــين هاتين المنزلتين لا ثالث لهما يعرف لكان حقيقا لمن بغى عليه أن ينصره الله [وقبل وبعد] فقد كشـــف الزمان لســـيدنا عن محبتى ومخالصتى ومناصحتى وشـــفقتى وأرى له من الرأى أن يأتى بما يغســـل به عنه هذا العار. ويعمل بقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[1] والسلام.

كتاب المؤيد إلى قريش بن بدران فى أمر الهدنة

نســـخة كتاب إلى قريش: ووصل كتابه ناطقا بذكر ســـلامته أدامها الله تعالى لله. ووفر أقسامها عنده، وقرأته وأحطت علما بمودعه، وسألت الله جل اسمه أن يجعله ممنوحا من فضله بحســـن الزيادة. مشمولا فى مســـاعيه ومناحيه بالسعادة. وفهمته. فأما ما ذكره من نفوذ كتابه مع الأمير شهاب الدولة إلىّ، وقصور جوابه دونه. فكتاب حضرته مقبول بكلتا

(١) سورة هود آية ١١٣.

اليدين. محمول على الرأس والعين. ومعلوم أنه ما أحد منى ولا ممن صاحبنى حرس الله أيامه ثانيا إلا وهو يحبه محبة الآباء للأولاد، ويعتقد فيه ما لا يكون وراءه غاية من حسن الاعتقاد، وما قعدت عن الإجابة عن كتابه إلا وأنا مترجح بين أن أكتب بصدق مر فى مذاق سمع السامعين. أو كذب لا يليق لى أن أهم فى واديه. وأدهن مع المدهنين. وإلا فقدره الأرفع الأجل، وإلى بيته الكريم ينتهى الفخر والفضل. وأما اعتذاره عن الضرورة التى خرقت ستر اجتهاده. وصدت عن بلوغ مراده. وأدت إلى الحالة التى أخرجتها المقادير عن أكمالها. وقضت بنقض الرأى الأول فى إبرامها، وإشارته إلى قصد مصلحته هى وراء الحجاب تنهج الأيام سلبها. وتضع ذات حمل بكشف مطاويها حملها، فقد عرفته. وأقول ما قال الله عز وجل: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾[1] وكل ما يعلم سيدنا قيام عذره فيه عند ربه سبحانه الذى هو أحسن الخالقين. فلا حاجة به إلى المعذرة عنه إلى المخلوقين. لاسيما إذا كان بشيرا بين يدى خير يتفتق نواره وتلمع عن كثب أنواره. وهذه جملة الجواب [لوارد الكتاب]. وأما شروعه فى تقدير أمر الهدنة بين الدولتين. نصر الله الحق منهما، مجتمعا فيه مع سلطان ملوك العرب لكون ذلك مفوضا إليهما. ولا يعود فيه عليهما، وكون استقرارها مؤذنا برحيل السلطان من بغداد إلى ديار. ووقوفها مؤديا إلى ثبوته بمكانه واستقراره، فقد عرفته. ومن أولى منهما أن يشد به مثل هذه الأمور العظام ويحزم، ويبدأ بجميل سعيه الذكر الجميل ويختم، وأنا أنتهى إلى محدوده فى إنهاء ذلك إلى الباب الطاهر خلد الله ملكه وأعلامه. ما يرد من جوابه علة أننى وجدت لفظة الهدنة التى أشار إليها خرساء عمياء لا تؤدى معنى من المعانى، وكان وجب أن أشعر بذكر هذه الهدنة المباركة كيف يكون وقوعها. وعلى أى نصبة موضوعها. وأين الخلف فى ألف ألف دينار فاضت فى هذه المحجة. وغاصت فى هذه اللجة. وأين موقع العسكر البغدادى الذين استجاروا بالدولة العلوية فأجيروا من الجملة. وأين موقع أقدامهم من هذه الحلبة. ومكان ثبوتهم من أسطر هذه الصحيفة. وإذا تفضل وفصل لى الكلام فى هذا المعنى كان الانهاء طالعا من آفاق البيان، وواقعا مع سمع السامع بموقع ومكان، فإن رأى. أراه الله المحاب والأنعام. بالمبادرة بالجواب الذى يزيدنى علما، ويلقح لى بفضل التعريف والتبين فهما، وتصريفى على أمثلته المطاعة فعل. إن شاء الله تعالى.

ولما أنفذت هذه الكتب لقيتهم فى بعض الطريق وهم راجعون، وعلى خيل الهزيمة من التركمانية شادون. والمحصول منهم على وجوه بالغدر مسودة. وظنون فيما أملوه من

---

(١) سورة القيامة آية ١٤/ و ١٥..

التركمانية منعكسة وحاجات فى النفوس منكسرة[1]. ووقفوا على الكتب فأثابهم غما بغم. وجرعتهم قانعا من سم. وكتب إلينا بعض المنصحين يذكر أن قضية الحال تقتضى أن يسحبوا على ما فعلوه ذيلا، ويحسنوا لهم قولا. ويكاتبوهم بما يداوى ما وقع فيهم من جراح العذل. ويوجه نحوهم من حسن القول. فكتبته بما هذه نسخته.

كتاب المؤيد إلى قريش بن بدران

وكانت رسالته وردت على لسان فلان بما جعلنى بالحيرة مغمورا، وأخرجنى فى صورة من كنى الله فى كتابه ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[2] لأننى كنت من تسع عشرة سنة أقيم عليه بالحضرة العلوية خلد الله ملكها سوق الثناء، وأصفه صفة الأولياء الأوفياء، حتى سقت الحال إلى أن فتحت إليه وإلى الجماعة هذه الخلجان، وأخرجت من بحر كرم ذلك الجناب الطاهر اللؤلؤ والمرجان، وبحسبه أنه لما ورد الخبر بما ورد على مشهد موسى بن جعفر عليهما السلام[3] حملتنى حرقة القلب على نظم الأبيات،

---

(١) جاء فى ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٨ أن هزارسب الذى أقطعه السلطان مدينة بلد أرسل إلى نور الدولة بن مزيد وإلى قريش بن بدران يعرفهما وصول إبراهيم نيال ويحذرهما منه. فسارا من جبل سنجار إلى الرحبة فلم يلتفت البساسيرى إليهما فانحدر نور الدولة إلى بلده بالعراق، وأقام قريش عند البساسيرى بالرحبة ومعه ابنه مسلم بن قريش.

(٢) سورة الفرقان آية ٢٣.

(٣) ورد فى ابن الأثير [حوادث سنة ٤٤٣] فى هذه السنة فى صفر تجددت الفتنة ببغداد بين السنة والشيعة. وكان سبب هذه الفتنة أن أهل الكرخ شرعوا فى عمل باب السماكين، وأهل القلائين فى عمل ما بقى من باب مسعود، فمنع أهل الكرخ وعملوا أبراجا كتبوا عليها بالذهب «محمد وعلى خير البشر» وأنكر السنة ذلك وادعوا أن المكتوب «محمد وعلى خير البشر» فمن رضى فقد شكر ومن أبى فقد كفر» وأنكر أهل الكرخ الزيادة وقالوا ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا فيما نكتبه على مساجدنا. فأرسل الخليفة القائم بأمر الله أبا تمام نقيب العباسيين وعدنان بن الرضى نقيب العلويين لكشف الحال وانهائه. فكتبا بتصديق قول الكرخيين. فأمر حينئذ الخليفة ونواب الرحيم بكف القتال فلم يقبلوا. وانتدب ابن المذهب القاضى والزهيرى وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبد الصمد بحمل العامة على الإغراق فى الفتنة، فأمسك نواب الملك الرحيم عن كفهم غيظا من رئيس الرؤساء – ابن مسلمة – لميله إلى الحنابلة، ومنع أهل السنة من حمل الماء من دجلة إلى الكرخ. وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة. فمحوا «خير البشر» وكتبوا «عليهما السلام» فقالت السنة لانرضى إلا أن يقلع الآجر الذى عليه محمد وعلى وأن لا يؤذن «حى على خير العمل» وامتنع الشيعة من ذلك. ودام القتال إلى ثالث ربيع الأول وقتل فيه رجل هاشمى رمن السنة فحمله أهله على نعش وطافوا به فى الحريبة وباب البصرة وسائر محال السنة واستنفروا الناس للأخذ بثأره ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل وقد اجتمع معهم خلق كثير. فلما رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التبن فأغلق بابه فنقبوا فى سوره وهددوا البواب فخافهم وفتح الباب، فدخلوا ونهبوا=

على أنى لست بشاعر ولا متشاعر، وفى جملتها ذكر الافتخار لعشيرته[1] فكانت هذه الكلمة تنشد فى قصور الخلافة، وما قصدى بهذا القول إلا الإبانة عن محبتى له من حيث الولاء والتشيع، لا عن جميل كان له عندى فى الأول، ولا ظننت أن سيجمع الزمان بينى وبينه فى الآخر. ولما وردت مع شهاب الدولة الرسالة المقدم ذكرها ألهبت النار فى أثوابى، وكتبت إليه كتابا نفثت فيه نفثة مصدور، وأوردت ما أن جفى قوله منى كان أجفى فعله منه، وكنت على إصدارى من فورى، ثم حضرنى صاحبه وخرج لى منى الأمر تأويلا أوقفنى على انتظاره، وعلق قلبى بوقع إسفار نهاره، وتوقفت عن إصدار الكتاب إلى هذه الغاية، فلما طالت بعد ذلك المدة وبعدت دون وضوح ما انتظرته الشقة، قلت كما قال المتنبى: «فليسعد النطق إن لم يسعد الحال[2]» وأصدرت الكتاب معذرة إلى نفسى وشفاء لصدرى ولم يكن من الحسبان أن كتابى يلقاه فى الطريق، وهو ثان وجهه عن الوجهة التى كان موليها، ولو علمت لكنت أعتاض عنه بالأهل والمرحب، وألقاه بوجه المتحيب المتقرب، ولكنت أقول كما قال الله تعالى فى نص الكتاب حكاية عمن نسبتى إليه نسبة التراب إلى السحاب: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾[3] وما سؤلى فى الدنيا إلا ما بدل الله تعالى به

=ما فى المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضة وستور وغير ذلك وأدركهم الليل فعادوا. فلما كان الغد كثر الجمع فقصدوا المشهد وأحرقوا جميع الترب واحترق ضريح ابن ابنه محمد بن على الجواد والقبتان الساج اللتان عليهما، واحترق ما يقابلهما ويجاورهما من قبور ملوك بنى بويه، فلما كان الغد خامس الشهر عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمد بن على لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر فجاء الحفر إلى جانبه، ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دبيس بن مزيد عظم عليه واشتد وبلغ منه لأنه وأهل بيته وسائر أعماله كلهم شيعة فقطعت فى أعماله خطبة القائم بأمر الله فكوتب فى ذلك وعوتب، فاعتذر بأن أهل ولايته شيعة واتفقوا على ذلك فلم يمكنه ان يشق عليهم كما أن الخليفة لم يمكنه كف السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا وأعاد الخطبة إلى حالها

(١) راجع القصيدة الثالثة والعشرين من «ديوان المؤيد داعى الدعاة» التى قيلت سنة ٤٤٣ بمناسبة نبش قبر موسى الكاظم، والتى جاء فيها:

آل الغيب مازلتم عشير الولاء فنعم العشير
ويا آل عوف غيوث المحول ليوثا إذا كع ليث هصور

(٢) من قول المتنبى فى الأمير أبى شجاع فاتك الرومى المعروف بالمجنون وهو أحد موالى الأخشيد وأحد قواده. وبعد استيلاء كافور على أمر البلاد انحاز فاتك إلى الفيوم ولما ورد المتنبى مصر استأذن المتنبى كافورا فى أن يمدح أبا شجاع فأذن له فقال لاميته المشهورة:

لا خيل عندك تهديها ولامال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

(٣) سورة يوسف آية ٩٢

السيئات الحسنات، وما طبقت الأرض بذكره من القبيح خيرات وصالحات، فلقد كنت والله أغار على ذكره أن تركبه هجنة، وعلى قول طالما قلته فى الثناء عليه أن تتخونه شبهة، ولقد أتانى التبكيت من مجلس الوزارة فقيل ألست الذى كنت تشهد له دائما بكونه أوفى العرب، وقد كاتبت حضرته مزيلا عن قلبه الكريم ما اعترضه من الثقل بالكتاب الذى أحوجنى إليه حرج الصدر وضيق نطاق الصبر والفكر فى سعى سنتين انقطع منه الوتين لا أقول شج منه الجبين، صادفته تعصف به العاصفات عصفا، وبيوت أموال وجدتها تنسف فى اليم نسفا، وحقيق بمن يكون هذا دأبه أن يتخرق وفى جلده يتمزق والسلام.

كتاب آخر إلى قريش

ووصل جوابه فأجبته بما هذه نسخته: ووصل كتابه جوابا عن كتابى مشترطا فيه الاضراب عن التقصى فى الجواب الذى عسى أن يورث نفورا، ومشفوعا بما فسخ الشرط رجوعا إلى ذكر أوائل المعرفة من حين نزولى بالرحبة وإلى هذا اليوم وتتبعا للفصول أكثرها وإجابة عنها، وقرأته وأحطت به علما، ومعلوم أنى لو أطلقت عنان القول لوجدت فى أرضه مراغم كثيرا وسعة، ولكننى متصون عما يشغل سره ويضيق صدره، ولولا أن الأمر فاض معلى قلبى فى الأول، لما لذعته فى الكلام الذى كان حقا فهو يعلمه، وإن كان باطلا فهو يعلمه، ومن عجائب صنع الله تعالى فى الإنسان أن له باطنا وظاهرا وأنه لا يمكنه أن يكذب نفسه مادام الكلام فى سر نفسه، فاذا انتهى إلى العبارة عنه بلسانه كان عنانا الصدق والكذب بيده، إن شاء كذب وإن شاء صدق، كقول الرجل أكلت وربما لم يأكل، وعلى هذه النصبة فكل منا يعرف أنه محسن أو مسئ كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾[1] فأما حالنا فى هذه النوبة فهى أجل وأوضح من أن تحتاج إلى برهان عليها، فأموالنا هى التالفة، ومساعينا هى الضائعة، والأمر فى ذلك لا يعدو إحدى حالتين: إما أن يكون الذنب للمتبوعين أو التابعين، فإذا كان المتبوعين يبرءون أنفسهم عن هذه الحالة ويعتذرون وأنا أحد من يقبل عذرهم ويصدق قولهم، ثم أعدل باللائمة إلى التابعين، وأقول إن تلك الأمة التى اختنقت بها البرارى، وضاقت عنها الصحارى، ورأت أن شرذمة قليلة يقلون عن عدد عيالهم وعبدان حللهم لا طاقة لهم بهم على قلتهم، وكثرة أولئك فهم منطلون فى نسائهم وحريمهم ليأخذوهن، فحاروا وضعفوا ووهنوا، حتى اضطر

(١) سورة القيامة آية ١٤ - ١٥.

أمراؤهم إلى إلقاء السلام إليهم، والإذعان لهم. لأمة لاتساوى الماء الذى تشرب، والطعام الذى تأكل، وما ها هنا قسم ثالث. فأنا على ما عهده سيدنا من محبته وإيثار الخير له والحرص على جميل ذكره وعلو قدره، وحقيق على كرمه أن يتصور ذلك منى ولا يرتاب به. ويعلم أن خشن الكلام منى لو صدر والعياذ بالله لكان أسلم من لينه [وخشنه من غيرى]. فإنى ما أرى للناس قاطبة إلا الخير والجميل فضلا عن مثله ممن قام فى ديارد عماد التشيع والولاء، وأصبح غصة فى حلوق المخالفين والأعداء، والسلام.

رحيل المؤيد من الرحبة

وفى خلال نفوذ الكتب فى عود الأجوبة. حصل القوم المكاتبون بفناء الرحبة وقلوبهم متشوقة إلى ما يرد عليهم من جهتنا فى معنى الحفاوة بهم، وإظهار الرغبة فى مجاورتهم وقربهم. فلم نر إلا أن نزور عنهم بطالعة الميل إليهم، والحرص عليهم ذات اليمين، كما قرضونا بغروبهم عن حسن الوفاء وحفظ الذمام ذات الشمال. فلما يئسوا من إشارة بناننا إليهم بالتحية، وإقبال وجوهنا عليهم بالبشر والأريحية. مضوا على خيط الفرات منحدرين خائفين، من كبسة إليهم حذرين. وكان التركمانى بعد أن فل الجمع بحد مكره لايجد سيفه أصعد إلى ديار بكر ليعصر ابن مروان عصرة يستخلص بها دهنه. فاتصلت كتبه ورسله يقول «أدركونى من قبل التمزيق وخلصونى من هذا المضيق» فأصعدت إلى تلقاء الرقة، فاستدعيت ابن وثاب ووافقته على الاحتفال والاحتشاد، وجمع العشيرة ليرحل أبو الحارث فى أتراكه وأعرابه وأكراده ويعبروا الفرات وتجمع الجموع ليمقات يوم معلوم، فى مكان معلوم. وينفروا إلى التركمانى خفافا وثقالا مستظهرين عليه بحول الله وقوته ومتكلين عليه اتكالا. ولما تحرر هذا الأمر كاتبت ابن مروان بمشروح هذا التقرير، وأبا الحارث فى معنى الحث على تقديم المسير، فورد الكتاب على ابن مروان وقد علقت النار ذيله، ونال منه الدعك نيله، ولم يكن له جنان يصابره على الخسف. والتوقع لأن يغسل عنه العار بالسيف، فجعل يمسك رسلنا على تواليهم عنده. ويعقد للسلم مع التركمانى عقده، بأن يخرج كرائم ما يملكه أتاوة، ولا يباشر من كريهة الحرب ما يجعل على بصره غشاوة. وذلك دأب طلاب السلام وأصحاب الزاوية والعافية.

ثم إنى صعدت إلى حلب ولقيت دونها بثلاث رحلات عطية الذى ذكرت فعلته فى تخطف المال، وتحيف ريش الرجال فى ساعة العسرة من يوم النزال، مترامیا علىّ،

ومتنصلا من ذنبه إلىّ. فأجبته من كلامى شـــهدا. وجعلت له موعدى باستصلاح شأنه مع الســـلطان أعز الله نصره مهدا. ولما كان ثانى يوم التقائى به صادفت أخاه ثمال بن صالح وقد حشـــد من حشود عشيرته الكلابية من كان استنهضهم إلى حلة عطية ليحملها حملا. ويلهب النار فيها فتكا وقتلا. فتناولته بلســـان وعظ صادق موقعا من قلبه منطقه. ونهيته عما هم به نهيا كثر من الصلاح موقعه. ودفعت عن حمى الفريقين دفعا احتمت به حلب وأعمالها من الهلكات. وأمنت من بغتات الأذى بمشيئة الله.

ولحق أبو الحارث على أثرى فنزل ببالس على رحلتين [من حلب إذ كان قد اتصل من الرحبة] على نصبة إجارة ابن مروان لما استجاره. فلما قصر باع صبره دون انتظار المجير. ونـــزل تحت حكم الجائر لم يكن من أبى الحـــارث إلا أن ينكص على عقبيه من الرحبة، فأصعـــد إلى بالس ومعه قريش بن بـــدران ونخبة وجوه بنى عقيل. فلما كان بعد أيام أتانى رســـوله يظهر الرغبة فى لقائى ومشـــاهدتى ويذكر أنه لا قبل لـــه أن يطأ موطئا هو لبعض البوادى من أبناء جنسه، ويلتمس التكشف إليه ليجتمع بى ويفرشنى سر نفسه. فتوجهت لموضع يقال له دير حافر[1] فاجتمعنا فيه على خلوة. وطال بيننا النجوى فيما أضحك طورا وطورا أبكى، ما بين تحشم له على فعله تارة، وتمهيد لعذره مع الإنابة تارة. ورحلت عنه رحيل من بســـط معه التأنيس ذرعا. وزرع المحبـــة فى قلبه زرعا. وأعلقه علاقة من صفاء عقده ووفاء عهده وثيقة. ورد مجاز التطوع منه طاعة حقيقة.

المؤيد فى حلب وعودتها الى أملاك الفاطميين

وعدت إلى حلب وصادفت فيها ثمال بن صالح خمر خميرة أمر دونه برزخ من الخطار. وأمام سريعة الصفو من شربه شرب الأقذار والأكدار. وهو أن هذا الرجل لم يزل يتقلب فى بردة الخوف من السلطان – خلد الله ملكه – لبادرة أبيه من قبل. وفعله فى الممانعة عن داره لما هجم عليها من بعد. ولم يزل السلطان أيد الله نصره أيضا يلتمسه على سبيل الادهان، ويعد طاعته طاعة صادرة عن صدر العصيان. ولما ندبت للوجه الذى كان محجته ومدرجته كان أول الحـــذر منـــه من أن يفترس المال الذى يصحبنى بمخالبه وأنيابه. وأول الوصية لى ألا أنزل إلا فى كنف قوى من العسكر بجنابه. فركبت الأبلق فى مخالفة الوصية. والعمل

---

(١) قرية بين حلب وبالس ذكرها أبو عبد الله محمد بن نصر فى شعره:

ألا كـم تـرامـت بالس بـمسافر وكم حافر أدميت يا دير حافر

بضدها من القضية. وقد تقدم الشرح فيه، فما جمعنى وإياه الزمان وقد سبقت السؤال له من فعلى بالسكون إليه والتعويل عليه، وعلم أن إيثارى أن أوضح للسلطان خلد الله ملكه من محض طاعته ملبسا. وأن أضرب له فيما يؤمنه من سطوته طريقا فى البحر يبسا، وتجرد فى الخدمة معى التجريد الذى رض أفواه من عنى عنه بسوء، وكفى ورد ألسن المتوشقين عليه لكنا، ولم تنل الأيام فى مجاورتى له وتوفره على خدمة السلطان - خلد الله ملكه - فى جهتى تبدله من خوفه أمنا ومن استيحاشه أنسا. حتى انقلبت عينه واستأنس إلى مكان وحشته. وأمن من خوفه وخشيته. ولما اتفق عليه ما اتفق من خروج أخيه عليه وخيانته له فى المال الذى سلمه إليه، وتقاعد عشيرته عنه لما أرادهم فى ساعة العسرة. وتبرمه بالعسكر العراقى الذين جاوروه لما لقيه منهم من سوء العشرة. دعته هذه الدواعى كلها إلى أن يورث سلطانه خلد الله ملكه أرضه وديارة، ويتفيأ ظلاله ويسكن جواره، فكاتبه يستدعى شحنة يشحن بها قطر حلب، ويقضى بها من تسليمها وتسلم قلعتها كل أرب. ثم أنه لم يتشكل له كيف يبنى الأمر فى تسليمها وفى نفس المدينة قوم يسمون (الأحداث) هم لها أملك من مالكها وأكثر استيلاء عليها من واليها، وبينهم وبين المغاربة من قديم الوقت إحن وطوائل لا تنام عينها، ولا ينقضى دينها. فجعل موضوع الأمر فى التسليم أن يعبر العسكر الوارد باسم النجدة للعسكر العراقى لئلا يظن أن له عقلة بحلب. ثم إنهم إذا قربوا نهض إليهم بحجة الاشتمال على خلعة السلطان - خلد الله ملكه - المحمولة فى صحبتهم وأن يؤذن الأحداث بشد أسلحتهم عليهم والنفوذ فى خدمته إلى ظاهر البلد، فإذا هم فعلوا ذلك جعل مرتبا على الأبواب من يغلقها فى وجوههم، ويحول بينهم وبين الدخول إليها، ولم يلبث إلا قليلا حتى بطل هذا الوصول. وانخرق ستره وانكشف سره، وصارت العامة أعرف بما يراد فعله من الخاصة. وكلما أراد القوم الورادون تقربا زادت الفتنة تلهبا. فحين رأى الأمير الذى هو ابن صالح أن الماء طغى اعتصم بقلعته، وتمنع بمنعته، وتركنى وحيدا لا متلفت لوجهى إلى وزر آوى إلى حصنه، ولا يمسكنى إلا من يمسك السماء أن تقع بشير على الأرض إلا باذنه، ودمى طافح فى الدماء ما يحجز عنه إلا ما يحجز عن قطرة ماء والقوم يوعدوننى بسفكه صباحا ومساء، وكل من الأمير وغيره يشير على بالهرب والنجاة من شرك العطب. وأنا راسخ كالصخر، متمسك بالصبر، مكفل نفسى من هو بحياتها كفيل. قائل إذا اشتد الخوف حسبنا الله ونعم الوكيل. وانتهى الحال إلى أن يثبت فيهم رسلى يمينا وشمالا حتى أحضرتهم عندى، وقلت: يا قوم إن كنتم تعرفوننى

فقد عرفتمونى، وإلا فاسألوا عنى. إننى رجل منقطع العلائق من الدنيا وأحوالها إلا ما لابد منه فما يمسك الأجسام كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾[1] وما انتدبت فى هذه الوجهة التى كنت متوليها إلا سعيا فما ينفع المسلمين ويشد الاسلام، وإننى محقوق بشكركم خاصة، وشكر المسلمين عامة. ضد ما أنتم تفيضون فيه، وتتهارجون من أجله، فإن كنتم خائفين من بادرة بدرت فإنى أقول عفا الله عما سلف، ومن عاد فينتقم الله منه. وهذا أمان الله وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمان الدولة العلوية مبذول لكم على أنفسكم وأموالكم وشعوركم وأبشاركم ونساءكم وولدانكم، وإن كان بدوى وطأ لكم كنفا من عدله وإحسانه، فإن الدولة العلوية أولى بهما وهى ولية العدل والإحسان، والفضل والامتنان. فتدبروا أموركم واعقلوا لنفوسكم. واسلكوا مراشد قصدكم.

وجرى فى الباب ما طالت نوبته وكثرت شعبه وفروعه وانشقت عن طمأنينة القلوب أرضه، وهطلت بسكون سماؤه، ودخل العسكر[2] المنصور والأبواب لهم مفتحة، والصدور منهم منشرحة، ووجوه البشر والبر لهم ملاقية، وألسن التحية والسلام لها مناجية، ولما دخل كان ليلة دخولهم المدينة، واختلاط الفريقين بعضهما ببعض. والنفوس بفزع أحدهما من الآخر موتى، وهم كما قال الله فى محكم كتابه ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[3] اتفق من الاتفاق وقوع نار فى المرقد الذى كان ابن صالح رقبه، فما تنبه الناس إلا وقد تغلب سلطانها وعلا لسانها، وسطع فى عنان السماء دخانها، فلم تبق له ذخرا من قديم الوقت وحديثه مذخورا إلا وأتت عليه، فجعلته هباء منثورا، فما عهد من نزع من ملكه ومُلكه فى ليلة واحدة غيره. وخفيت على الناس الذين غصت بهم المدينة القصة ووقعت فيهم الصيحة، فكاد يقع السيف بالفتنة الصماء فى خلال تلك الليلة الليلاء، فيكون كما قيل:

الليل داج والكباش تنتطح ... فمن نجا برأسه فقد ربح

فكان من لطف الله تعالى أن عقل أرجل الأحداث الحلبية بعقال العقل، وشكل بشكلهم عن موارد الجهل، وانثالوا علىّ فى نصف الليل يسألونى عما يفعلون، ليمضوا حيث يؤمرون،

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨.

(٢) فى مرآة الزمان مجلد ٩٦ ص ٤٤ أ، الجيوش المصرية بقيادة أبى علم بن ملهم الخويلدى دخلت حلب واستولت عليها من ثمال بن صالح سنة ٤٤٩ هـ.

(٣) سورة الحشر آية ١٤.

فجزيتهم خيرا، وأوصيتهم بضبط البلد وحفظ العسكرية. فآووهم إلى نفوسهم وسكنوا روعة قلوبهم، وقالوا نحن نقيكم بأموالنا وحريمنا، وأصبح الصبح عن جناب بالأمن مشمول، مأهول ورعية مطمئنة قلوبهم مستقرة على مضاجع الهدوء والدعة جنوبهم.

هذا أدام الله لى المسرة بطول بقائك وحراسة حوبائك [مشروح حالى لك] إلى هذا اليوم ملقم لأشداق المعضلات، مشكل بشكل المشكلات، مسخر بسخور منى إن أصبت لم أشكر وإن أخطأت لم أعذر. وإن بلغت غرضا لم أستفد من أجره جوهرا ولا عرضا، وإن نشبت بى فى أثناء هذه الهزاهز أنياب المنية. كان فيه للعاريات الكاسيات بلوغ الأمنية. لاحجة لها فى ذلك إلا حسد الجهل للعلم والنقص للفضل، وكل امرئ لما قدمه من خير أو شر يلقى. ولا رغبة إلا فيما عند الله خير وأبقى، والسلام والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وعترته الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

دعاء عن النبى صلى الله عليه وآله علمه أمير المؤمنين عليه السلام وهو:

«يا عماد من لاعماد له، ويا سند من لا سند له، ويا حرز من لاحرز له. ويا ذخر من لاذخر له، ويا غياث من لاغياث له»[1].

عصيان إبراهيم بن ينال على أخيه طغرلبك

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مخرج العجائب فى مضمار الأقدار، ومظهر مختلفات الأحوال من بين اختلاف الليل والنهار، وجاعلها عبرة لأولى الأبصار. وصلى الله على نبيه المصطفى المختار محمد المبعوث بالإعذار والإنذار، وعلى وصيه على الكرار، قسيم الجنة والنار وعلى الأئمة من ذريته الأبرار الأطهار.

[أما بعد] فقد كنت علقت نبذا من مجارى حالى، منذ حططت بالباب الطاهر رحالى وإلى أن قفلت إلى ناحية العراق، لمساطعة الشياطين التركمانية الفساق، وسقت جملا مما قاسيت من مصاعب تلك الأمور وأوعارها، توليته من حارها وقارها، وما جرى فى ضمها من المكاتبات والمشافهات، والمخاشنات والملاطفات، حتى أتاح الله النصر على الظالمين، وشفى صدور قوم مؤمنين، فإننى بعد تمام سنة فما فوقها بالرحبة رجعت إلى حلب فوقعت فى خطة، كادت النفس فيها تتلف، وأننى مازلت أتضرب فى مداواة دائها،

(١) ورد هذا الدعاء فى النسختين، وأخشى أن يكون النساخ أضافوه هنا لأننا لانجد فى كتب المؤيد التى بين أيدينا شيئا من الأدعية فى فصول كتبه. كما أننا نجد على هامش مخطوطات البهرة أمثال هذه الأدعية مما يدل على أنها ليست فى متون الكتب بل من عمل النساخ.

وملاقاة الثائرة بحيلة إطفائها، حتى سهل الله تعالى من ذلك عسيرا. وكفى خطبا عظيما. وأننى ملكت حلب مشفوعا بامتلاك قلوب أهلها وانتظامهم فى سلك الولاء السليم من غش النفوس وغلها. وفتحت أبواب حلب لابن ملهم رحمه الله وعسكره حتى دخلوها بالسلام آمنين. وحصل الرجل على ذروة القلعة مالكا فى المالكين. وكان ثمال بن صالح - رحمه الله - يومئذ ساكن القلعة شادا لرحاله للنزول والتوجه إلى الباب الطاهر. فلما كان بعد قطعة من الليل قيل إنه كان بين يديه شمعة فاشتعلت فى قطن منزوع عن بعض الرحال. فانتشرت النار واشتعلت وقويت وأحاطت بالرحال المشدودة المحزومة فأكلتها كلها. ولم يبق عليها للإطفاء سبيلا. فجعلت تأكل ما حولها نحو ثلاثة أيام بلياليها. حتى استوعبت رحالات ابن صالح كلها وكانت سلامته بنفسه الغنيمة الكبرى. فنزل عن القلعة فقيرا بعد أن كان يملك ملكا كبيرا بكثرة ماله وحسن حاله. وسار عن حلب.

ولما كان بعد مسيره بمدة أرسل إبراهيم بن ينال التركمانى وهو أخو طغرلبك لأمه رسولا من الموصل إلى مستقر أبى الحارث البساسيرى وقريش بن بدران - رحمهما الله - وهما يومئذ فى موضع يسمى بالس - على مرحلتين من حلب - يبذل لهما الجميل عن أخيه وعنه، ويرغبهما فى الدخول فى الطاعة ليوليهما الولاية الجليلة، ويحسن إليهما الإحسان الكثير. فكان هذا ظاهر رسالته. وباطنها أن يخاطبانى على التوثق له بأن أسوق إليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية من الأموال الجزيلة والخلع والألقاب والأولوية حتى يبطش بطغرلبك البطش الشديد الذى يهد قوته ويطفئ نائرته، فتصير جميع ممالكه فى قبضته وحوزته ويكون هو ملكها، وعلى أن تكون الخطبة لنا بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته.

فلما جاء هذا الرسول إلى مستقر البساسيرى وقريش بن بدران وقص عليهما القصة ظاهرا وباطنا، سيراه إلى مستقرى بحلب لأبرم فى بابه ما يجب إبرامه. فدخل إلىّ بزى المتصوفة مشدود الرحل على عادتهم، وهو رجل على طبع العامة، فى كلامه خساسة وعامية كثيرة. وسلم علىّ تسليمة الأكفاء، وكان وقت الظهر. وقال مالى نشطة للخطاب معك إلا بعد أن أجدد الطهارة وأقضى الصلاة المفروضة فقلت: ذلك خير وأبرك. ثم إنه بلغ جميع رسالته وأفرغ ما فى كنانته. فوجد منى حسن بشر وتلطف وتقبل، ودخلت معه فى أسلوب الصوفية وأخرجت إليه من كلام المحققين منهم فصولا فرح بها وطابت نفسه، ثم عاقدته عن الحضرة الطاهرة بالإجابة إلى سؤاله فى معنى المال والخلع والألقاب، وأعطيته صفقتى بذلك ففرح بنجاح سعيه، وكثر إلفه بى وسكونه إلىّ. ولما همّ بالرجوع بعد مقامه

عنـدى يوميات عرضت عليه نفقة غير زرية فأبى قبولها. وكمثل ذلك فعل بالبساسيرى وقريش عند رجوعه إليهما، وصدر عنهما إلى مستقر إبراهيم صاحبه وهو بالموصل. وكان هذا الحديث بذر الزرع. نسوق ذكره عند انتهائنا إليه بإذن الله تعالى.

المؤيد فى طريقه إلى مصر

ثم إننى أقمت بحلب ما امتد لى شوط المقام وذلك لأننى كلما هممت بالمسير هم البساسيرى بأن يتبعنى بحشوده من العسكر البغدادى. فقلت كيف أسوق هذا الشر كله إلى الباب الطاهر. وأسوق حمل أثقالهم واحتمال سوء أخلاقهم وأفعالهم. فجعلت أرابطهم وأقف سدا فى وجوههم، حتى أتى الخبر بانفصال إبراهيم بن ينال عن الموصل. وتركه بها شرذمة قليلة من الغز يحفظونها فانتهزت الفرصة وقلت للبساسيرى: قد آن لك أن ترجع إلى الرحبة وتتدبرها. وتستعين على وقتك بارتفاعها. ونحن بعد ذلك نسوق إليك كل سنة مالا كثيرا يكون إضافة إلى ما تستجلبه إلى الرحبة فتتسع يدك ولاتتناقص حالك. وأنت يا قريش فقد حان لك أن ترجع إلى بلدك الموصل فإنه كلحم على وضم، والشرذمة التى بها قبل لهم بالثبات فى وجهك، لاسيما إذا شد منك البساسيرى. فلم أزل أروضهما بهذا الكلام حتى أقلعا وتوجها. وتيسر لى أيضا السبيل إلى العود نحو الباب الطاهر. فسرت وسار معى رجل محتشم من الأتراك رسولا عن البساسيرى. فلما حصلنا بصور وجدنا كتيبة من الأتراك البغداديين سبقونا إليها مقاطعين للبساسيرى ومصممين على قصد مصر فى عدة تشتمل على مائة وثلاثين غلاما[1] فرأيت من الرأى أن أدخل كل مدخل فى دارهم إلى حلب ليرتبطوا هناك ولا يصيروا كلا على الحضرة. فلم أزل أداريهم وأتلطف لهم حتى رددتهم. وسرت من صور. فلما حصلت فى موضع يسمى البواقير لقينى صاحب الترتيب هناك بسجل عليه ثلاثة ختوم. فلما ناولنيه قبلته ووضعته على عينى ونزلت عن دابتى لأستقر فى الأرض وأتأمل مضمونه تأملا شافيا. إذ كانت الختوم الكثيرة أرعبتنى. وصورت فى نفسى أن فى مضمون السجل سرا غامضا. فلما فضضت الختوم وجدته يشتمل على ذكر عزل البابلى وتولية ابن المغربى[2] والتأكيد علىّ فى النكوص على عقبى إلى حلب. فملكنى

---

(١) ولكن الذى فى مرآة الزمان جـ١٦ ص ٤٥ أن المؤيد قابلهم فى دمشق وأظن أن المؤيد أصدق فى روايته عن نفسه.

(٢) هو أبو الفرج عبدالله بن محمد البابلى ولى الوزارة بعد اليازورى سنة ٤٥٠ وصرف عنها فى ربيع الأول وقرار مكانه أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين المغربى (ابن ميسر ص ١٠ - ابن منجب ص ٤٦).=

التحـــير والدهش من هـــذا الأمر ووجدت الرجوع إلى حلب ممتنعـــا جملة واحدة، والوفادة على الباب بعد تحريمها خطة شـــديدة، ورجحت بين الأمرين فرأيت أن الاتمام خير من الرجوع. وأن الذى اقتضى إنشـــاء ذلك الســـجل هو تلفيق من بعض المفسدين، أو أظن ظان أننى إذا دخلت تعرضت بوزارة أو زاحمت أحدا فى رتبته، واستخرت الله تعالى وتوجهت علـــى صوبى، فلقينى بســـجل مثله بثلاثة ختـــوم فى المعنى الأول. وصـــرت على صوبى حتـــى انتهيـــت إلى الفرقان فلقينى ثلاثة من النجابين بســـجل فـــى المعنى بعينه، فقلت: يا سبحان الله بم يستحق من هدف لسيوف التركمانية وسهامها نفسه، وأقام بازائهم سنة جرداء يعاين فيها كل ســـاعة حتفه. حتى نصـــره الله النصر العزيز، وفتح على يده الفتح المبـــين ثـــم من بعد رجوعه عبر بحلب فملكها تملكى، وبلغ من تســـخير أهلها مبلغى، أن يكون جزاؤه المنع عن العود إلى باب ولى نعمته ولكنه لا حيلة فى المقادير.

=وبنـــو المغربـــى أصلهم من البصرة وصاروا إلى بغداد وكان أبو الحســـن على بن محمد تخلف على ديوان المغرب ببغداد فنســـب به إلى المغرب وولد ابنه الحســـين بن على ببغداد وتقلد أعمالا كثيرة وســـار إلى الشام وهناك لقى الأخشيد، ولما تم أمر مصر للأخشيد أرسل إلى بغداد يستدعى أبا الحسن على بن الحسين المغربى فوفد ومن يليه على مصر ثم خرج وأهله منها الى حلب حيث خدموا سيف الدولة وسعد الدولة الحمدانيين، ثم بدا له ما جعله يترك حلب إلى الرقة. ثم كاتب العزيز بالله الفاطمى يستأذنه المسير إلى مصر فأذن له فقدم فى جمادى الأولى ســـنة ٣٨١ هـ ومات بمصر، ولما ولى الحاكم بأمر الله اصطفى أبا القاســـم حســـين بن على المغربى وجعله من جلسائه ولكن ابن المغربى خشى على نفسه نزوات الحاكم ففر إلى الشام وألب العرب على الحاكم ولكن تدبيره فشـــل فاضطر إلى الهروب إلى بغداد وهناك اتهم بافســـاد الدولة العباسية فسار إلى الموصل فخشى منه وزيرها فأخرجه إلى ديار بكر فأقام عند أميرها أبى نصر أحمد بن مروان الكردى ووزر له ثم عاد إلى بغداد وتقلد الوزارة بها ســـنة ٤١٥ فأقام شـــهورا يغرى رجال الدولة بعضهم ببعض فأدى ذلك إلى خروجه إلى الموصل فديار بكر ثم كوتب بالعودة إلى بغداد فوصل إليها ولكنه ســـم فى الطريق ســـنة ٤١٨ وكان بمصر من بنى المغربى أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد على بن الحســـين المغربى وكان الحاكم قتل جده محمدا وأباه على بن الحســـين فلما نشـــأ أبو جعفر إلى العراق وخدم هناك ثم عاد إلى مصر واصطنعه الوزير اليازورى فـــولاه ديوان الجيش وكانت أم المســـتنصر تعنى به فلما مات اليـــازورى وولى أبو الفرج البابلى قبض عليه فى جملة أصحاب اليازورى واعتقله وتقررت له الوزارة وهو فى الاعتقال فى الخامس والعشـــرين من ربيع الاخر سنة ٤٥٠ هـ ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخاصته فأقام سنتين وشهورا فى الوزارة وصرف فى تاســـع شـــهر رمضان ســـنة ٤٥٢ وكان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرفوا فاقترح أبو الفرج بن المغربى لما صرف أن يتولى بعض الدواوين فولى ديوان الإنشـــاء وتوفى ســـنة ٤٧٨ هـ. (راجع خطط المقريزى جـ ٣ ص ٢٥٥ وما بعدها).

ولعل السبب الذى من أجله رفض ابن المغربى مؤازرة البساسيرى هو أنه كان يريد الانتقام لأبيه وجده من الفاطميين ويريد الانتقام من البساسيرى لأن ابن المغربى كان هرب منه إلى مصر.

ولما كان الأمر على هذا فى تسلسل الكتب والرسل فى معنى الرجوع على أدراجى [رأيت أن أنكب] فنكبت عن الطريق الجادة إلى البرية والمجاهل. فما شعروا بى حتى أطلعت رأسى بالجب[1] على باب القاهرة. فدخلتها دخول المهزوم لا الهازم، والمكسور لا الكاسر، والمغلوب لا الغالب، ولقيت ما كنت آمله من التقديم والاعلاء والرفع إلى [مناط الجوزاء] عكسا وضدا والله المستعان.

دخول البساسيرى بغداد

ثم أن قريشا لما أيقن أن إبراهيم بن ينال نزع عن الموصل[2]، وترك بها شرذمة قليلة من أصحابه بحصن فى البلد، حركته النحيزة للرجوع إلى بلده وسأل البساسيرى صلة جناحه والشد منه بعسكره العراقى، فأجابه إلى ذلك وسار معه إلى الموصل واستولى عليها، وأحاط بالقوم المتحصنين بحصنها، فقتل فريقا ومنّ على فريق بإطلاقهم. وكان فى جملتهم رجل من مقدم الغز و كبرائهم اسمه تارختكين[3] فهمّ البساسيرى بضرب رقبته وسأل الرجل أن يجود عليه بروحه حتى يستنفد عيال البساسيرى الذين كان الغز سبوهم من بغداد وقت دخولهم إليها وبذل له سوى ذلك مالا جزيلا فأبى ذلك وقال: أما مالك فلا حاجة بى إليه وأما عيالى فإنى أحسب أن دارهم ارتدمت عليهم فهلكوا، وكان الصواب لو فعل لأن هذا الرجل كان سبب هلاك البساسيرى لما هلك. وبلغ كتاب عمره

---

(١) الجب الذى قرب القاهرة هو جب عميرة زكافن يبرز إليه الحاج والعساكر (معجم البلدان جـ ٧ ص ٤٦، طبعة القاهرة).

(٢) جاء فى ابن الأثير: فى هذه السنة (أى سنة ٤٥٠ هـ) فارق إبراهيم بن ينال الموصل نحو بلاد الجبل فنسب السلطان طغرلبك رحيله إلى العصيان، فأرسل إليه رسولا يستدعيه وصحبته الفرجية التى خلعها عليه الخليفة، وكتب الخليفة إليه أيضا كتابا فى المعنى. فرجع إبراهيم إلى السلطان وهو ببغداد. فخرج الوزير الكندرى لاستقباله وأرسل الخليفة إليه الخلع، ولما فارق إبراهيم الموصل قصدها البساسيرى وقريش بن بدران وحاصرها فملكها البلد ليومه. وبقيت القلعة وبها الخازن واردم وجماعة من العسكر، فحاصراها أربعة أشهر حتى أكل من فيها دوابهم، فخاطب ابن موسك صاحب اربل قريشا حتى آمنهم، فخرجوا فهدم البساسيرى القلعة وعفا أثرها. وكان السلطان قد فرق عسكره فى النوروز، وبقى جريدة فى ألفى فارس حين بلغه الخبر. فسار إلى الموصل، فلم يجد بها أحدا وكان قريش والبساسيرى قد فارقاها. فسار السلطان إلى نصيبين ليتتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد ففارقه أخوه إبراهيم ينال وسار نحو همذان فوصلها فى السادس والعشرين من رمضان سنة خمسين، وكان قد قيل إن المصريين كاتبوه والبساسيرى قد استماله وأطمعه فى السلطنة والبلاد، فلما عاد إلى همذان سار السلطان فى أثره.

(٣) فى ابن الأثير جـ ٩ ص ٤٤٧ يسمى خمارتكين الطغرائى.

أجله. غير أن أولاده أخذتهم الحنة على السبايا من إخوانهم فحالوا بينه وبين القتل.

ولما تمهد أمر قريش بالموصل رجع البساسيرى إلى مركزه بالرحبة وأقام بها، والتركمانى الذى هو طغرلبك مقيم ببغداد وفى صدره الغيظ والحزازات باستئصال شأفة عسكره بسنجار وما تعقبه ممن أخذ الموصل ما تغلى مراجله، ولا تهدأ بلابله، وقد نفذت كتبه إلى خراسان وبلاد الترك يستنفر الناس خفافا وثقالا، حتى حشد من الحشود الجم الغفير والعدد الكثير وألقى بين عينيه عزمه. وجعل قصده الشام، ومصر همه، عالما بأن تلك الجموع التى اجتمعت على قمعه ودفعه بعيد أن تجتمع. وأن البساسيرى طار جنده فوقع. ونهد بحشوده وجنوده إلى الموصل نهود من ليس فى طريقه شوك يشوكه ولا شىء يشفق منه ويخافه. ولقد كان الأمر على ما قدره فى نفسه. وقرر فى فكره فإن قريشا أجفل منه هزيما. والبساسيرى كان يشد على خيل الهزيمة وقطع البرية متوجها إلى دمشق، فعند ذلك أخرجت الأرض أثقالها وكشف القناع عما كان استقر بينى وبين إبراهيم بن ينال كما أتانى رسوله الصوفى وأنا بحلب. فلم يشعر طغرلبك بشىء حتى ضرب إبراهيم بن ينال على خزائنه وأمواله فحازها كلها. وأخذ بها صوب الجبال فاختبط طغرلبك وعسكره فتفرقوا [أيدى سبا] وهام طغرلبك على وجهه مقتفيا لأثره حتى غاب حسه ولم يدر أى طريق سلك، وفى أى واد هلك. فلما رأى البساسيرى أن الله سبحانه قد قطع به الأسباب. وفل منه الأنياب. علم أن بغداد فريسة لمن طلب. وقبضة لمن رغب. فزحف إليها بالرايات المستنصرية. وصادف منها أرضا تعج إلى الله تعالى من ظلم التركمانية. وقلوبا ملئت غيظا من العباسى وابن المسلمة الذى كان سبب استدعائهم وتسلطهم على حرم الناس وأموالهم ودمائهم، فكان قدوم البساسيرى عليهم كنزول الرحمة من سمائهم، فشدوا حيازتهم معه لاقامة الدعوة المستنصرية على المنابر. وقصد دار العباسى برقبته ونقله عن عزة المجالس إلى ذل المحابس، فأما ابن المسلمة لعنه الله الذى كان سبب هلاك المسلمين فقد جعل بعد صب العذاب الأليم عليه فى جلد بقرة وركب على جنبيه قرنان وصلب على صار طويل إلى جانبة ابن مأمون الذى كان رسوله إلى التركمانى[1] واشتعلت

(١) فى ابن الأثير حوادث سنة ٤٥٠: لما عاد إبراهيم بن ينال إلى همذان سار طغرلبك خلفه. ورد وزيره الكندرى وزوجته إلى بغداد وكان سيره من نصيبين فى منتصف شهر رمضان. ووصل إلى همذان وتحصن بالبلد. وقاتل أهلها بين يديه، وسار من كان ببغداد من الأتراك إلى السلطان بهمذان. وسار عميد الملك الكندرى إلى دبيس بن مزيد فاحترمه وعظمه ثم سار من عنده إلى هزارسب. وأرسل الخليفة إلى نور الدولة دبيس يأمره=

=بالوصول إلى بغداد فورد إليها في مائة فارس. وقوى الإرجاف بوصول البساسيرى فلما تحقق الخليفة وصوله إلى هيت أمر الناس بالعبور من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى فأرسل دبيس إلى الخليفة وإلى رئيس الرؤساء يقول: «الرأى عندى خروجكما من البلد معى. فإننى أجتمع أنا وهزاربت فإنه بواسط على دفع عدوكما» فأجيب ابن مزيد بأن يقيم حتى يقع الفكر فى ذلك. فقال: العرب لا تطيعنى على المقام وأنا أتقدم إلى ديالى فإذا انحدرتم سرت فى خدمتكم. وسار وأقام بديالى ينتظرهما. فلم ير لذلك أثرا فسار إلى بلاده.

ثم إن البساسيرى وصل إلى بغداد يوم الأحد ثامن ذى القعدة ومعه أربعمائة غلام على غاية الغر والفقر وكان معه أبو الحسن بن عبدالرحيم الوزير. فنزل، البساسيرى بمشرعة الروايا، ونزل قريش بن بدران وهو فى مائتى فارس عند مشرعة باب البصرة. وركب عميد العراق ومعه العسكر والعوام وأقاموا بإزاء عسكر البساسيرى، وعادوا. وخطب البساسيرى بجامع المنصور للمستنصر بالله العلوى صاحب مصر وأمر فأذن بحيى على خير العمل، وعقد الجسر، وعبر عسكره إلى الزاهر وخيموا فيه، وخطب فى الجمعة من وصوله بجامع الرصافة للمصر، وجرى بين الطائفتين حروب فى أثناء الأسبوع، وكان عميد العراق يشير على رئيس الرؤساء بالتوقف عن المناجزة، ويرى المحاجزة ومطاولة الأيام انتظارا لما يكون من السلطان: وبسبب ميل العامة إلى البساسيرى أما الشيعة فللمذهب وأما السنة فلما فعل بهم الأتراك. وكان رئيس الرؤساء لقلة معرفته بالحرب ولما عنده من البساسيرى يرى المبادرة إلى الحرب، فاتفق أن فى بعض الأيام حضر القاضى الهمذانى عند رئيس الرؤساء واستأذنه فى الحرب وضمن له قتل البساسيرى فأذن له. فخرج ومعه الخدم والهاشميون والعجم والعوام إلى الحلبة وأبعدوا والبساسيرى يستجرهم، فلما أبعدوا حمل عليهم فعادوا منهزمين، وقتل منهم جماعة ومات فى الزحمة جماعة من الأعيان. ونهب باب الأزج، وكان رئيس الرؤساء واقفا دون الباب. فدخل الدار وهرب كل من فى الحريم، ورجع البساسيرى إلى معسكره واستدعى الخليفة عميد العراق وأمره بالقتال على سور الحريم فلم يرعهم إلا الزعقات، وقد نهب الحريم وقد دخلوا بباب النوبى فركب الخليفة لابسا للسواد وعلى كتفه البرده وبيده سيف وعلى رأسه اللواء وحوله زمرة من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة، فرأى النهب. وقد وصل إلى باب الفردوس من داره فرجع إلى ورائه ومضى نحو عميد العراق فوجده قد استأمن إلى قريش وصعد المنظرة، وصاح رئيس الرؤساء: ياعلم الدين – يعنى قريشا – أمير المؤمنين يستدنيك. فدنا منه فقال له رئيس الرؤساء: قد أنالك الله منزلة لم ينلها أمثالك وأمير المؤمنين يستذم منك على نفسه وأهله وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله صلى الله عليه وذمام العربية. فقال: قد أذم الله تعالى له. قال: ولى ولمن معه. قال: نعم. وخلع قلنسوته فأعطاها للخليفة وأعطى مخصرته رئيس الرؤساء ذماما. فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء من لباب الحلبة وصار معه. فأرسل إليه البساسيرى: أتخالف ما استقر بيننا، وتنقض ما تعاهدنا عليه. فقال قريش: لا. وكانا قد تعاهدا على المشاركة فى الذى يحصل لهما وأن لايستبد أحدهما دون الآخر بشئ. فاتفقا على أن يسلم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيرى. فلما رآه قال: مرحبا بمهلك الدول ومخرب البلاد. فقال: العفو عند المقدرة فقال البساسيرى: فقد قدرت فما عفوت وأنت صاحب طيلسان وركبت الأفعال الشنيعة مع حرمى وأطفالى، فكيف أعفو أنا وأنا صاحب سيف. وأما الخليفة فإنه حمله قريش راكبا إلى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله فى خيمة ونهبت دار الخلافة وحريمها أياما، وسلم قريش الخليفة إلى ابن عمه مهارش ابن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة، فحمله فى هودج. وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها وسار من كان مع الخليفة من خدمه وأصحابه إلى السلطان طغرلبك مستنفرين فلما وصل الخليفة إلى الأنبار شكا البرد فأنفذ إلى مقدمها يطلب منه ما يلبسه فأرسل له جبة فيها قطن=

نار النهب والغارة فى دار العباسى. فلم يسلم له سبد ولا لبد، وسلم العباسى إلى أحد أمراء البادية يسمى مهارش[1] فأخذه إلى موضع يقال له الحديثة بقرب الرحبة، وكان هذا من فعل البساسيرى غيظا وحنقا على الحضرة، كيف قطعت عنه مواد أموالها إذ عائدته جرت بذلك من الناظر فى ذلك الزمان، ولما زال ذلك الناظر وجاء آخر قطع المعائدة بكليتها، فكاد البساسيرى يتميز من الغيظ. وجعل مكان ما يجب عليه من إخراج العباسى إلى الحضرة تسليمه إلى البدوى المقدم ذكره يستجر به المال. واحتج بأنه لم يملك ناصية العباسى إلا بمساعدة قريش له. وأنه لو كان الأمر بيدى لسقته إليكم وجها واحدا لكن شريكى الذى هو قريش سلمه فى يد بدوى وهو صاحبه فإن وفيتم له بالمراد أخذتم الرجل إليكم وإلا فما بقى لى عليكم حكم.

وأرسلوا فى هذا المعنى رسلا كثيرين. منهم رسول البساسيرى ومعه فيل أخذوه من الغز، ورسول قريش ورسول مهارش ورسل آخرين من وجوه بنى عقيل كلهم على كلمة سواء فى الطلب والالتماس. فأول ما فعل معهم أنه لم يضرب فى مثل هذه البشارة التى ما رأت عين الدنيا مثلها طبل ولا بوق، ولا نقر فيها نقرة[2] حتى كاد الرسل يكفرون

=ولحافا. وأما البساسيرى فإنه ركب يوم عيد النحر وعبر إلى الموصل بالجانب الشرقى وعلى رأسه الألوية المصرية فأحسن إلى الناس وأجرى الجرايات على المتفقهة. ولم يتعصب لمذهب. وأخرج محمود بن الأخرم إلى الكوفة وسقى الفرات أميرا. وأما رئيس الرؤساء فأخرجه البساسيرى آخر ذى الحجة من محبسه بالحريم مقيدا وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر وفى رقبته مخنقة جلود بعير وهو يقرأ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَٰلِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ...﴾ وبحق أهل الكرخ فى وجهه عند اجتيازه بهم لأنه يتعصب عليهم وشهر إلى حد النحمى وأعيد إلى معسكر البساسيرى وقد نصبت له خشبة وأنزل عن الجمل وألبس جلد ثور وجعلت قرونه على رأسه وجعل فى فكيه كلابان من حديد وصلب فبقى يضطرب إلى آخر النهار ومات.

وانظر القصيدة الثامنة والثلاثين (فى ديوان المؤيد داعى الدعاة) التى أشاد فيها المؤيد بذلك وتحدث فيها اين المسلمة رئيس الرؤساء.

(١) هو الأمير محيى الدين أبو الحارث مهارش بن المجلى العقيلى صاحب الحديثة وعانة.

(٢) هكذا يقول المؤيد فى الدين، ولكن الذى يفهم من كتب التاريخ أن مصر احتفلت بالاستيلاء على بغداد. والخطبة على منابرها باسم المستنصر الفاطمى، ويقال إن القينة نسب الطبالة التى غنت المستنصر بقولها:

يا بنى العباس صدوا ... ملك الأمر معد

ملككم كان معارا ... والعوارى تسترد

فطرب المستنصر لذلك، ووهبها أرضا بمصر جائزة لإنشادها هذا الشعر. وتلك الأرض عرفت بأرض الطبالة [راجع النجوم جـ ٥ ص ١٢. وخطط المقريزى جـ ٢ ص ١٢٥، وتاريخ الاسلام للذهبى] فاذا صح ما رواه=

ويتزندقـون. وكمثل ذلك عقلاء الناس. وكانوا يقولون إنه لو ملكت قرية من أدون القرى. وأخـذ متغلـب مـن أدون المتغلبين لكان من حـق ذلك أن ينقر فى الناقـور فكيف تؤخذ بغداد والخليفة الذى هو السادس والعشرون من خلفاء بنى العباس الذين كانت لهم ملكة الشرق الغرب فلا ينقر نقرة فى طبل البشارة. وجعلوا يكاتبون أصحابهم بذكره، والإهوان بهم والاسـتصغار لأمرهم. فكانوا يلتهبون بنار الغيظ كل التهاب لا سـيما البساسيرى إذا اغتلظ لم يفكر لو رمى نفسه من البحر فى العباب. وأقام الرسل شهورا عدة لا يقضى لهم حاجة، ولا تنجح لهم طلبة. ولا يشـترى الخليفة العباسـى من البدوى الذى كان عنده بفلسـين فيكونوا متحكمين عليه بين أن ينزل فـى دار وفرش ممهدة ويجرون عليه جرية علـى قدر اسـتحقاقه من التربة فتصفو الدنيا من الأضـداد ويورث الله الأرض من اصطفاه مـن العباد أو يمنون عليه بالإطلاق، ويردونه مكرما إلى العراق ليكون صنيعة من صنائعهم وطليقا من طلقائهم. ولما كانت الصورة هذه ولبث الرجل فى الحبس سنة فما فوقها ويئس البدوى من خير ما عندنا، تقرب به إلى طغرلبك فأطلقه من أسره ورده إلى مقره. والثالث علينا كل ما تعبنا فيه التباثا. وكنا كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾[1] فأما حال البساسـيرى فإن الغز المسـمى تارختكن المقدم ذكره لما رجـع إلى صاحبـه ووجده قد ظفر بإبراهيم بن ينال عفى الله عنه الذى كان سـبب خلله وزلزاله حقر فى نفسـه أمر البساسـيرى. وذكر أنه لا رجال معه إلا القليل الذين لا يعبأ بهم. وسـأله فى تجريد خمسـة آلاف فارس من الغز معه فى المقدمة. وأن يسير طغرلبك فى السـاقة ليتسـرعوا إليه ويخطفونه خطفا، فركضوا إلى بغداد، ومدوا إلى ديار ابن مزيد فأصابوه هناك، وانتشب القتال فيما بينهم، واستمر القتل فيهم فأصيب البساسيرى بسهم طائح، فلحق به من عرفه، واجتهد أن يأخذه حيا، ويحمله إلى طغرلبك فلم يستطع ذلك إذ كان السـهم أصاب منه المقتل. فحينئذ جز رأسـه – رحمه الله – وحمله إلى بغداد[2].

=المؤرخـون عـن هذه المغنية. فنرجح أن مصر احتفلت بهذا الانتصار، أما المؤيد فلعله أراد أن ابتهاج المصريين بهذا النصر لم يكن كما وجب أن يكون.

(١) سورة النحل آية ٩٢.

(٢) فى ابن الأثير جـ ٩ ص ٤٤٧: أنفذ السـلطان طغرلبك بعد اسـتقرار الخليفة فى داره جيشـا عليهم خمارتكين الطغرائى فى ألفى فارس نحو الكوفة فأضاف إليهم سرايا بن منيع الخفاجى. وكان قد قال للسلطان أرسل معى هذه العدة حتى أمضى إلى الكوفة وأمنع البساسيرى من الإصعاد إلى الشام. وصار السلطان طغرلبك=

فهذه قصته فيما جرى عليه ولئن جرى ما جرى من الفقدان بعد الوجدان وانقلب الأعيان فقد ارتسمت بالدعوة المستنصرية بأرض العراقين فروق المنابر وبالنداء بحى على خير العمل في ذروة المآذن والمنائر والله متم نوره ولو كره الكافرون، ومنجز وعده إذ يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[1] إن شاء الله تعالى والسلام.

والحمد لله وصلواته على رسوله سيدنا ومولانا محمد وعلى آله أجمعين وتبارك وسلم.

=في أثرهم فلم يشعر دبيس بن مزيد والبساسيرى إلا والسرية قد وصلت إليهم ثامن ذى الحجة من طريق الكوفة بعد أن نهبوها، وأخذ نور الدولة دبيس رحله جميعه وأحدره إلى البطيحة. وجعل أصحاب نور الدولة دبيس يرحلون بأهليهم فيتبعهم الأتراك، فتقدم نور الدولة ليرد العرب إلى القتال فلم يرجعوا، فمضى ووقف البساسيرى فى جماعته، وحمل عليه الجيش. فأسر من أصحابه أبو الفتوح بن ورام، وأسر منصور وبدران وحماد بنو نور الدولة دبيس. وضرب فرس البساسيرى بنشابة، وأراد قطع تجفافه لتسهل عليه النجاة، فلم ينقطع. وسقط عن الفرس ووقع فى وجهه ضربة ودل عليه بعض الجرحى. فأخذه كمشتكين دواتى عميد الملك الكندرى وقتله وحمل رأسه إلى السلطان ودخل الجند فى الظعن فساقوه جميعه وأخذت أموال أهل بغداد وأموال البساسيرى مع نسائه وأولاده وهلك من الناس الخلق العظيم، وأمر السلطان بحمل رأس البساسيرى إلى دار الخلافة. فحمل إليها فوصل منتصف ذى الحجة سنة إحدى وخمسين فنظف وغسل وجعل على قناة وطيف به وصلب قبالة باب النوبى.

(١) سورة الأنبياء آية ١٠٥.

الفهارس

١ - معجم الأعلام.
٢ - معجم أسماء الكتب.
٣ - معجم الأمكنة والبقاع.
٤ - دليل الآيات القرآنية الشريفة.
٥ - دليل الأحاديث المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم.
٦ - المراجع.
٧ - موضوعات الكتاب.

معجم الأعلام

(أ)

آدم عليه السلام ٣٣.

إبراهيم بن محمد ٣٦.

إبراهيم بن ينال ١٦٥، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٣.

ابن أبي مليكة ٣١.

ابن الأثير ٦، ٤٥، ٥٥، ٥٦، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٨، ٨٦، ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١١٥، ١١٧، ١٣١، ١٣٤، ١٣٦، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٣.

ابن الإسكندر ٤٦، ٤٧.

ابن حمدان، انظر: سيف الدولة الحمداني.

ابن حيوس الشاعر ١٣١.

ابن خلدون ١١٧.

ابن خلكان ١٣، ١٥، ٨٦، ٩٥، ١٥٥، ١٦٠.

ابن زولاق ١٦٠.

ابن صالح، انظر: ثمال بن صالح المرداسي.

ابن عباس ١٨، ٢٤، ٣١، ٣٢، ٣٧، ٣٨.

ابن عبدون ٨٢.

ابن عقيل، انظر: أبو الحسن محمد بن عبدالله بن أبي عقيل.

ابن عمر ٣١، ٣٢.

ابن فسانجس ١٣٦.

ابن قائد بن رحمة ١٣٦.

ابن قتيبة ١٦٠.

ابن ماجة ٣٤.

ابن مأمون ١٨٠.

ابن المذهب القاضي ١٦٦.

ابن مرشد ١٦٢.

ابن مروان، انظر: أبو نصر أحمد بن مروان الكردي.

ابن مزيد، انظر: دبيس بن مزيد.

ابن مسعود ٣٦.

ابن المسلمة، انظر علي بن الحسين بن أحمد.

ابن المشترى، انظر: أبو الحسن عبد الوهاب ابن منصور بن المشترى.

ابن المغربي، انظر: أبو القاسم حسين بن علي المغربي.

ابن مكر ٧٠.

ابن ملهم، انظر: أبو علم بن ملهم الخويلدي.

ابن منجب الصيرفى ٨٦، ٩١، ١٧٧.
ابن موسك صاحب إربل ١٧٨.
ابن ميسر ١٣، ١٧٧.
ابن النعمان. انظر: أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز بن النعمان.
ابن وثاب. انظر: شبيب بن وثاب النميرى.
ابن ورام. انظر: أبو الفتح بن ورام.
أبو أخفش الأحوص ٣٢، ٣٦.
أبو البركات. انظر: الحسين بن محمد الجرجرائى.
أبو البركات بن البساسيرى ١٣٤.
أبو بكر ٣١، ٣٨، ١١٥.
أبو بكر الشافعى ٣٠.
أبو بكر محمد بن غلينمه ٣٠.
أبو بكر محمد بن أحمد بن على ٣٠.
أبو البقاء ١٦٢.
أبو تمام نقيب العباسيين ١٦٦.
أبو جعفر العلوى ١٦٠.
أبو الحارث أرسلان البساسيرى ٥٦، ٩٦، ١٠٠، ١٠٨، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٦١، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤.
أبو حامد بن أحمد بن أبى أحمد الابيودى ٣٠.
أبو الحسن بن بشر ٣٨.
أبو الحسن بن عبدالرحيم ١٣١، ١٨٠.
أبو الحسن عبدالوهاب بن منصور بن المشترى ٥٥، ٧٢.
أبو الحسن محمد بن عبدالله بن أبى عقيل ١٠٠، ١٠١.
أبو الحسن بن مزيد ١٢٤.
أبو الحسن على بن محمد ١٧٧.
أبو حنيفة النعمان (الإمام) ١٨، ٢٤، ٢٥، ٢٦.
أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله (القاضى) ٢٥.
أبو داود ٣٤.
أبو الدرداء ٣٦، ٣٧.
أبو ذوابة عطية بن صالح بن مرداس ١٥٣.
أبو السداد هبة الله بن جعفر ١٥٧.
أبو سعد التسترى ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٩٢، ١١٧.
أبو سعد بن أبى كاليجار ١١٧.
أبو سعد المروزى ٣٢.
أبو سعد منصور ١٠٨.
أبو شجاع فاتك الرومى ١٦٧.
أبو صالح ٣١.
أبو طالب ١١٧.
أبو طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام ٦٩.

أبو العالية ٣٢.
أبو العباس محمد بن الحسين بن جعفر بن جابر ٣٦.
أبو عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ٨٦، ٩٥، ١٠٣.
أبو عبدالله محمد بن نصر ١٧١.
أبو علم بن ملهم الخويلدى ٩٥، ١٧٣، ١٧٥.
أبو على بن أبى كاليجار ١١٧.
أبو على بن الملك أبى طاهر بن بويه ٨٧، ١١١.
أبو عمر ٣٢.
أبو غالب الواسطى الملقب بفخر الملك (الوزير) ١٥.
أبو الفتح بن ورام ١٣١، ١٣٥، ١٤٤، ١٤٦، ١٦٣، ١٨٣.
أبو الفرج عبدالله بن محمد البابلى ١٧٧.
أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن حسين المغربى ١٧٧.
أبو الفضل صاعد بن مسعود ٩١.
أبو الفوارس الحسن بن عبدالرحمن ١١٩.
أبو القاسم حسين بن على المغربى ١٠٨، ١٧٧.
أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى ٨٦.
أبو كاليجار ٣، ٤، ١٦، ٤٣، ٤٩، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٤، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ١١٧، ١٦١، ١٦٢.
أبو محمد حاتم بن يعقوب ٣٦.
أبو محمد الحسن بن عبدالرحمن اليازورى ٨٦.
أبو محمد الحسين بن حسن الماسكى ١٠١.
أبو محمد القاسم بن عبدالعزيز بن محمد بن أبى حنيفة النعمان ٨٢، ٨٧، ٩١، ٩٣.
أبو منصور بهرام بن مافنة الملقب بالعادل ٦، ٤٣.
أبو منصور بن جلال الدولة ١٠٩.
أبو نصر أحمد بن مروان الكردى ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٧، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٠، ١٧٧.
أبو نعيم الفضل بن دكين ٣٠.
أبو نعيم الفضل بن زكريا ٣١.
أبو هريرة ٣١.
أحمد بن الحسن ٩٦.
أحمد بن حنبل ١٦٦، ١٦٧.
أحمد الوفى بن عبد الله ٥٥.
الأخشيد ١٦٧، ١٧٧.
الإسكندر ٤٦، ٤٧، ٥٠.
إسماعيل بن أبى خالد ٣٦.
إسماعيل بن جعفر ٥٥.
الأعمش ٣٦.
أم المستنصر الفاطمى ٨١، ٨٤، ١٧٧.
الأمير المؤيد ١٠٢.
أنس بن مالك ٣١.
أنوشتكين ١٠٠.

(ب)

الباقر ٢٦.
بختنصر ٨٤.
بختيار ٧٠.
بدر بن على الأسدى ١٣٥.
بدران بن دبيس ١٨٣.
بريل ٦، ٥٤، ٥٦.
البساسيرى، انظر: أبو الحارث أرسلان البساسيرى.
بهاء الدولة بن دبيس ١٣٤، ١٥٧.
سهرام بن بشكر سنان الديلمى ٧٨.

(ت)

تاج الأمراء، انظر: ثمال بن صالح.
تارختكين ١٧٩، ١٨٣.
الترمذى ٣١، ٣٤.

(ث)

ثمال بن صالح المرداس ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٥، ١٢٩، ١٥٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣.
ثيودورا بنت كونستانتين الثانى ٩٥.

(ج)

جابر بن ناشب ١٣١، ١٦١.
جاسوس القلك (الشاعر) ٨٦.
جالينوس ٥٢.
جبرائيل ٦٠.
الجرجرائى: انظر الحسين بن محمد الجرجرائى.
جعفر بن محمد الصادق ٢٤، ٤٢، ٥٥.
جعفر بن منصور ٤٨.
جلال الدولة بن بهاء الدولة ٧٠، ٧٢، ٧٣.
جندب ٣١.
جوهر القائد ١٦٠.

(ح)

الحاكم بأمر الله ٥٦، ٧٤، ٨٦، ١٠٨، ١١٢، ١٧٧.
حبى بنت رجاء بن مالك ٣٦.
الحسن ٢٦، ٣٧، ١١٨.
الحسن (البصرى) ٣١.
الحسن بن على ٥٥، ٥٨.
الحسين ٢٦، ١١٨.
الحسين بن على ٥٥، ٥٨، ١٧٧.
الحسين الزكى بن أحمد ٥٥.
الحسين بن محمد الجرجرائى ٨١، ٨٦، ٩١، ١٠٣.
حماد بن دبيس ١٨٣.
حيدرة بن الأمير عضد الدولة ١٠١.

(خ)

الخازن واردم ١٧٨.
الخراسانى ٣٠.
خمارتكين الطغرائى ١٧٩، ١٨٣.

(د)

داعى الدعاة ٩٣.
دبيس بن مزيد ٧٤، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٧، ١٦١، ١٦٥، ١٦٧، ١٨٠، ١٨٣.
الدزبرى ٨١.

(ر)

ربيعة الرأى التابعى ٣٦.
ربيعة عثمان التميمى ٣٦.
رجاء بن مالك ٣٦.
رزين ٣١.
رضى الدولة مقبل بن بدران ١٣٢.
ركانة بن عبد يزيد المطلبى الصحابى ٣٤.

(ز)

زعيم الدولة بركة بن المقلد ١٢٥.
الزهيرى ١٦٦.
زوا بنت كونستانتين الثانى ٩٥.
زين العابدين ٢٦.

(س)

سرايا بن منيع الخفاجى ١٨٣.
سعد الدولة الحمدانى ١٧٧.
سعيد ٣٦.
سعيد بن حيدر ٣١.
سليمان عليه السلام ١٢.
سليمان بن أبى سليمان ٣٦، ٣٧.
سهم الدولة أبو الفتوح بن عمرو ١٣١.
سيف الدولة الحمدانى ٨٥، ١٧٧.

(ش)

الشافعى ١٨، ٢٤.
شبيب بن وثاب النميرى ١٠٦، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٩، ١٧٠.
شرف الدولة مسلم بن قريش ١٥٣
شرف الدولة (الأمير) ١٣٥، ١٦٤، ١٦٧.

(ص)

صابر (وجيه الدولة) ٥٧، ٨٨.
الصادق ٢٦.
صالح بن مرداس ١٠٠.
الصنهاجى ٥٦.

(ط)

طغرلبك السلجوقى ٦٤، ٨٦، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٠، ١٠٨، ١٠٩، ١١٥، ١١٧، ١٢٤، ١٢٥، ١٣١، ١٥٥، ١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣.
طلحة ١٦٠.

(ظ)

الظاهر لإعزاز دين الله ٥١، ١١٢.
ظهير الدين أبو القاسم ٧٠.

(ع)

عباس ٥١.
العباس بن عبد المطلب ١٥٤.
عبد الصمد ١٦٦.

عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل ٥٥.
عبد الله بن عباس ٣٢.
عبد الله بن موسى ١٦.
عبد الواحد بن أحمد بن أبى القاسم ٣٦.
عبيد الله المهدى ٥٥، ١٥٦.
عثمان ١١٥.
عدنان بن الرضى ١٦٦.
العزيز بالله الفاطمى ١٤، ١٧٧.
عضد الدولة البويهى ١٤.
عكرمة ٣٦.
عطاء بن دينار ٣٨.
علم الدين ١٦٢.
العلوى الزيدى ٥٧.
علي بن أبى طالب ٣، ٢٥، ٢٦، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٤٣، ٤٨، ٥٨، ٦٦، ٧٤، ٧٥، ١١١، ١١٦، ١١٨، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٥، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٦.
علي بن الحسين بن أحمد بن محمد (ابن المسلمة) ٥٦، ٥٧، ٦٥، ٦٦، ٩٥، ٩٦، ١٥٥، ١٦٦، ١٨٠، ١٨١.
على بن حسن المغربى ١٧٧.
على بن الملك أبى كاليجار ١١٥.
عمر ٣١، ١١٥.
عمر بن الخطاب ٣٨.
عميد الملك أبو نصر منصور بن محمد الكندرى ٩٥، ١٥٦، ١٨٠.
عيسى بن طهمان الجشمى ٣١.

(ف)

فاطمة ١١٨.
فاطمة الزهراء ١٦٣.
فخر الدولة بن جهير ١٠٨.
الفراء ٤٧.
الفلاحى (الوزير فخر الملك صدقة بن يوسف) ٨١، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٠.
فولاذ الديلمى ١١٧.

(ق)

القائم ٢٥، ٥٥، ٩٥، ١١٩.
القائم بأمر الله ١٦٦، ١٦٧.
القادر العباس ١٣.
القاسم بن عبدالعزيز بن محمد بن النعمان ٨٢،٨٧، ٨٨، ٩١، ٩٣.
قاضى القضاة ٩٣.
القاضى الهمذانى ١٨٠.
قتادة ٣٦.
قتلمش ١٣١.
قرواش بن المقلد ٧٤، ١٠٨، ١١٩.
قريش بن بدران ١٢٤، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.
قيس ابن أبى حازم ٣٦.

(ك)

كافور الأخشيدى ١٠٤، ١٦٧.

الكرمانى ٦.
كمشتكين دواتى عميد الملك الكندرى ١٨٤.
الكندرى ٩٥، ١٥٤، ١٥٦، ١٨٠، ١٧٨.
الكندى ٨٨.
كونستانتين العاشر ٥٩.

(ل)

ليث ٣٦.

(م)

مالك (الإمام) ٥٦.
مالك بن سليمان أبو عبد الرحمن السعيدى ٣٦.
المأمون ٤٧.
المؤيد ٤، ١٤، ١٦، ٢٢، ٣٧، ٣٨، ٤٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٤، ٦٨، ٦٩، ٧٢، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٩، ١١١، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٧٦، ١٨٢.
المتنبى ٨٥، ١٠٤، ١٦٧.
مجاهد ٣٦.
محمد بن إسحق ٣٦.
محمد بن إسماعيل ٥٥.
محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ١٥٦.
محمد بن حماد ١٣١.
محمد بن سليمان الحرث الواسطى ٣٠.
محمد بن على بن الحسين المغربى ١٧٧.
محمد بن على بن خلف أبو غالب الواسطى ١٥.
محمود بن الأخرم ١٣٥، ١٨١.
محمود بن سبكتكين ١٣، ١٥٤.
محمود بن شبل الدولة ١٥٣.
محيى الدين أبو الحارث مهارش بن المجلى ١٨١، ١٨٢.
المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ٤، ٥٥، ٦٤، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٦، ٩١، ٩٢، ٩٥، ١٠٠، ١٠٣، ١١٦، ١١٩، ١٢٢، ١٣١، ١٥٦، ١٨٠، ١٨٢.
مسروق ٣١، ٣٢.
مسعود بن محمود بن سبكتكين ١٥٤، ١٥٥.
مسلم بن قريش ١٦٥.
مشرف ٧٥.
المعز بن باديس بن منصور بن بلكين الحميدى الصنهاجى ٥٦.
المعز لدين الله الفاطمى ٢٥، ٨٢، ١٦٠.
مقبل بن بدران ١٣١.
مقبل بن المقلد ١٧٥.
المقتدر العباسى ٦٩.

المقرب ٩٢.
المقلد بن أبى الحسن ١٢٤.
الملك الرحيم ١١٥، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧،١٥٥.
ملك بن سليمان ٣٦.
المنصور ٢٥، ٥٥.
منصور بن حسين الأسدى ٧٢، ٧٣، ٧٤.
منصور بن دبيس ١٨٣.
منيع بن شبيب النميرى ١٠٦، ١١٩.
المهدى ٢٥، ٥٥.
مهذب الدولة أبو منصور هبة الله ٥٤.
موسى بن جعفر ٥٦، ١٦٦، ١٦٧.
موسى الكاظم ١٦١.

(ن)

نسب الطبالة ١٨٢.
نصر بن على بن عيسى ١٥٧.
نصر الدولة أحمد بن مروان ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١٣٧، ١٣٨، ١٧٠.
نصير بن عمر ١٣١.
النعمان بن محمد قاضى القضاة ٨٢.

(هـ)

هزارسب بن نكير ١٥٧، ١٦٥، ١٨٠.

(و)

وجيه الدولة. انظر: صابر.

(ى)

اليازورى (الوزير) ٨٦، ٨٧، ٨٨،٨٩، ٩١، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٧٧.
يزيد ٣٦.
يزيد بن مرثد ٣٧.
يزيد بن معاوية ١٥٩.

معجم أسماء الكتب

(أ)

اتغاظ الحنفاء ١٦٠.
أدب مصر الفاطمية ٨٢، ١٠٣.
الإشارة إلى من نال الوزارة ١٣١.
الإمامة والسياسة ١٦٠.
الإنباء عن الأنبياء ١٠٣.
الإنجيل ٤٨.

(ت)

تاريخ ابن خلدون ١٠٩.
تاريخ الإسلام للذهبى ١٠٠، ١٨٢.
تاريخ مختصر الدول ٧٤.
تاريخ مصر لابن ميسر ١٣.
تفسير القرطبى ٣١.
تفسير مالك بن سليمان ٣٦، ٣٨.

تفسير النقاش ٣١.
تهذيب التهذيب ٣١.
التوراة ٤٨.

(خ)

خطط مصر للقضاعى ١٠٣.
خطط المقريزى ٨١، ٨٦، ٨٩، ٩١، ٩٣، ١٧٧، ١٨٢.
خلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣٦.

(د)

دعائم الإسلام ٢٥.
دمية القصر ٩٥.
ديوان المؤيد ٤، ٥، ٧، ٧٥، ١٦٧، ١٨١.

(ذ)

ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ١٠١.

(ر)

الرسالة اللازمة لشهر الصوم للكرمانى ٦.
رفع الإصر عن قضاة مصر ٨٨.

(ز)

الزيور ٤٨.

(ش)

الشفا للقاضى عياض ٣٤٠.

(ص)

صلة تاريخ الطبرى ٦٥.

(ع)

عيون المعارف ٦.

(ف)

الفترات والقرانات ٤٨.

(ق)

القرآن ٤٨، ٥٣.

(ك)

كتاب القضاة للكندى ٨٢.

(م)

المجالس المستنصرية ٦.
مختصر الدول ٧٣.
مرآة الزمان ٣، ٥٦، ١٠١، ١٠٦، ١١٥، ١١٧، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٧٣، ١٧٦.
مسند أبى داود ٣١.
معجم البلدان ٦٩، ٧٤، ١٣٥، ١٤٠، ١٧٨.
مناقب الشافعى ١٠٣.
المنتظم لابن الجوزى ١٧.

(ن)

النجوم الزاهرة ٣، ١٣، ١٤، ١٥، ٥٦، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٨١، ٨٧، ٩٢، ٩٥، ١٠٠، ١٠٢، ١٥٥، ١٨٢.
نزهة الألباء ٤٧،
نهاية الإرب ٨٤.

(هـ)

الهمة فى آداب اتباع الأئمة ٢٥، ٨٢.

معجم الأمكنة والبقاع

(أ)

أذربيجان ٧٧.

أصبهان ١١٧.

اصطخر ١٧٧.

الأنبار ١٢٥، ١٨١.

الأهواز ٣، ١١، ١٢، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ١١٧.

أوان ١٥٧.

(ب)

بابل ٧٤.

باريس ٣، ٨٤.

بالس ١٧٠، ١٧١، ١٧٥.

بحر فارس ٦٩.

البحرين ٦٩.

البحيرة ٩٢.

بدر ١٢٣.

بسا ١٢، ٥٠، ١١٧.

البصرة ٣، ٣٢، ٥٦، ٥٧، ٦٩، ٧٠، ٧١، ١١٧، ١٥٦، ١٧٧.

البطيحة ١٨٣.

بغداد ٤٧، ٥٥، ٥٦، ٧٣، ٨٧، ٨٨، ٩٦، ١٠٠، ١١١، ١١٥، ١١٧، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١، ١٣٥، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣.

بلاد الترك ١٧٩.

بلاد الجبل ١٧٨.

بلد ١٥٧، ١٦٥.

البوازيج ١٥٧.

البواقير ١٧٦.

بيت المقدس ٩٥.

بيروت ١٠١.

(ت)

تكريت ١٧٥، ١٦٢.

تنيس ١١٢.

(ج)

الجب ١٧٨.

جب عميرة ١٧٨.

الجزيرة الدبيسية ٧٢.

جناية ٦٩.

الجيزة ٩٢.

(ح)

الحجاز ٩٦.

الحديثة ١٨٢.

حران ١٠٦، ١١٩، ١٥٧.

الحظيرة ١٢٥.
حلب ٨٩، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٥٣، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩.
حلة بنى مزيد ١٢٤.
حلل بلال بن غريب ١٢٥.
حلل قريش ١٣٤.
حمص ١٠٧.
الحيرة ٧٤.

(خ)

الخابور ١٢٨، ١٣٠.
خراسان ٧٧، ١٥٤، ١٥٥، ١٧٩.
خوزستان ٥٥، ٧٢.
خيبر ١٢٣.

(د)

دمشق ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٧، ١٥٣، ١٧٦، ١٧٩.
دمياط ١١٢.
ديار ابن وثاب ١٢٨.
ديار بكر ١٠٨، ١٤٣، ١٧٧.
ديالى ١٨٠.
دير حافز ١٧١.

(ر)

الرحبة ٦٩، ١٢١، ١٢٤، ١٥١، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٢.
الرقة ٦٩، ١٠٠، ١٠٦، ١٥٣، ١٥٧، ١٧٧.
الرملة ٨٧.
الرى ٧٧، ٩٤، ٩٥.

(س)

سابور ٧١.
سنجار ١٣١، ١٣٥، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٥، ١٧٩.

(ش)

شاطئ الفرات ١٠٠.
الشام ٣٢، ٩١، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٧، ١٦٢، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٣.
شيراز ٩، ١٢، ٢٢، ٥٧، ٦٣، ٦٦، ٦٨، ٧٦، ١١٧.

(ص)

الصالحية ١٢٥.
صور ١٠٠، ١٠١.

(ع)

عانة ١٨٢.
العراق ٣، ٩٥، ٩٦، ١٠٨، ١١٧، ١١٩، ١٢٥، ١٢٨، ١٣٥، ١٥٥، ١٦١، ١٦٥، ١٧٤، ١٧٧، ١٨٣.
عكبر ١٥٧.
عمان ٧٠.

(غ)

غزنة ١٣، ١٥٤.

(ف)

فارس ٣، ٥٥، ٦٣، ٧٨، ١٢٤، ١١٧.
فامية ٩٥.

(ق)

القاهرة ٨١، ٨٣، ٩٨، ١٠٥، ١١١، ١٣٨، ١٧٨.
القسطنطينية ٩٥، ١٥٣.
قصر المأمون ٧٠.
قصر مجاشع ٧٨.
الفيارة ١٣٥، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤.
القيروان ١٦٠.

(ك)

الكرخ ١٦٦، ١٨١.
كرمان ٧٠، ٧٨.
الكوفة ٣٢، ٦٩، ٧٤، ١٢٤، ١٣٥، ١٨١، ١٨٣.

(ل)

اللاذقية ٩٥.

(م)

المدينة ١٥٥.
مصر ٤، ٤٥، ٤٧، ٥١، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٤، ٨٠، ٨١، ٨٧، ٩٥، ١٠٠، ١٠٣، ١٣١، ١٣٦، ١٦٠، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٧، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٢.
معزة النعمان ١٠٨.
المغرب ١٥٦، ١٧٧.
الموصل ٧٤، ٧٧، ١١٩، ١٢٤، ١٣١، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٧، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩.
مكة ٦٩، ٩٥، ١٥٥.
ميافارقين ١٠٨.

(ن)

نصيبين ١٥٧، ١٧٩، ١٨٠.
النعمانية ١٢٤.

(هـ)

همذان ٩٥، ١٧٩، ١٨٠.
الهند ١٥٤.
هيت ١٨٠.

(و)

واسط ١٧٧، ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٦، ١٨٠.
وراء النهر ١٥٤، ١٥٥.

دليل الآيات القرآنية الشريفة

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
	﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾	٢	البقرة	٤٥
	﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾	٢	البقرة	٧١
	﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾	٢	البقرة	١٧٧
	﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾	٢	البقرة	٢٣٣
	﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾	٢	البقرة	٢٦٩
	﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾	٣	آل عمران	٧
	﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾	٣	آل عمران	١٣
	﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾	٣	آل عمران	٢٦
	﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾	٣	آل عمران	١١٠
	﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾	٣	آل عمران	١١٨
	﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾	٣	آل عمران	١٤٥
	﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾	٣	آل عمران	١٤٦
	﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ ﴾	٣	آل عمران	١٦٩
	﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾	٤	النساء	١٤
	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾	٤	النساء	٥٩

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
	﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾	٤	النساء	٨٠
	﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾	٤	النساء	٨٣
	﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾	٤	النساء	١١٤
	﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾	٤	النساء	١٤١
	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾	٥	المائدة	٣٥
	﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾	٥	المائدة	١١٦
	﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾	٧	الأعراف	١٤٢
	﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾	٧	الأعراف	١٦١
	﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾	٧	الأعراف	١٨٨
	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾	٨	الأنفال	٢٤
	﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾	٩	التوبة	١٠
	﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾	٩	التوبة	٢٨
	﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾	٩	التوبة	٣٣
	﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾	٩	التوبة	٣٧
	﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾	١٠	يونس	٣٩
	﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾	١١	هود	٤١

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
	﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾	١١	هود	١٠٣
	﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾	١١	هود	١١٣
	﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾	١٢	يوسف	٢١
	﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾	١٢	يوسف	٩٢
	﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾	١٢	يوسف	١٠٠
	﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾	١٣	الرعد	١٥
	﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾	١٣	الرعد	١٧
	﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾	١٦	النحل	٧٦
	﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾	١٦	النحل	٩٢
	﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾	١٧	الإسراء	٤٤
	﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾	١٧	الإسراء	٧٠
	﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾	١٧	الإسراء	٨٨
	﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ﴾	١٩	مريم	١
	﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾	١٩	مريم	٤٢
	﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾	٢٠	طه	٤٤

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
	﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾	٢١	الأنبياء	٨
	﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾	٢١	الأنبياء	١٠٥
	﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾	٢٢	الحج	٥
	﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾	٢٢	الحج	١٨
	﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾	٢٢	الحج	٣٠
	﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾	٢٤	النور	٢٤
	﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾	٢٤	النور	٣٩
	﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾	٢٥	الفرقان	٢٣
	﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾	٢٦	الشعراء	٢١٧ – ٢١٩
	﴿ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾	٢٧	النمل	٧
	﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾	٢٧	النمل	٢٣
	﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾	٢٨	القصص	٢٠
	﴿ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾	٢٨	القصص	٢٩

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
	﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾	٢٩	العنكبوت	١ – ٣
	﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ ﴾	٣٣	الأحزاب	٧
	﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾	٣٨	ص	١٨
	﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾	٤١	فصلت	٥٣
	﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ ﴾	٤٢	الشورى	١ – ٢
	﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾	٤٢	الشورى	٢٣
	﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾	٤٦	الأحقاف	١٥
	﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾	٤٦	الأحقاف	٣٥
	﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾	٤٧	محمد	١٥
	﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ ﴾	٥١	الذاريات	٤٢
	﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾	٥٣	النجم	٢ – ٤
	﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾	٥٥	الرحمن	٦
	﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾	٥٩	الحشر	٢
	﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾	٥٩	الحشر	٧
	﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾	٥٩	الحشر	١٤

صفحة	نص الآية	رقم السورة	اسم السورة	رقم الآية
	﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾	٦٨	القلم	٤٢
	﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾	٧٥	القيامة	١٤ – ١٥
	﴿ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾	٧٧	المرسلات	٣٠ – ٣١
	﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾	٧٨	النبأ	٣٣
	﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾	٨٠	عبس	٣١
	﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾	٨٠	عبس	٣٧
	﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾	٨٢	الانفطار	١٠ – ١٢
	﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾	٨٩	الفجر	٦
	﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾	٨٩	الفجر	٢٢

دليل الأحاديث المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم

صفحة	نص الحديث

(أ)

اتقــوا الحديث إلا ما علمتم، فإنه من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، ومن كذب فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار.

أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجدا.

اللهــم علمــه الحكمــة وتأويل القــرآن (دعوته صلى الله عليه وســلم لابن عباس).

إن رجلا ســأل رســول الله صلى الله عليه وســلم عن القبلــة للصائم أنهــا تفطر أم لا؟ فقال له: «أرأيت لــو تمضمضت ماء فمججته أكان ذلــك يفطــرك؟» فقال الرجل: لا. فقال النبى صلى الله عليه وســلم: «فلا إذن».

إن ركانة ســأل النبى صلى الله عليه وســلم معجزة. فقال «وما تريد؟» فقال: أريد أن تشــهد تلك الشــجرة لك بالنبوة. فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يأتيها ويستدعيها.

إن هذا القرآن أنزل على ســبعة أحــرف لكل منها ظهر وبطن، ولكل حد مطلع.

أنا صاحب التنزيل وعلى صاحب التأويل.

إنك صاحب التأويل (قالها فى على).

إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض.

إياكم وخضراء الدمن.

(ت)

تعلمـوا من عالم أهل بيتى أو ممـن تعلم من عالم أهل بيتى تنجوا من النار.

(ض)

ضرب الله مثلا صراطا مسـتقيما، وعلى جانبى الصراط سـور، وعلى أبواب مفتحة عليها سـتور مرخـاة، وعلى جانبى الصراط داع يدعون أن ادخلوا الجنة ولا تعرجوا.

(ع)

على منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى.

(ص)

ما صيد من مصيدة ولا قطعت من وشيجة إلا بما يضيع من تسبيح الله فخلى سبيله.

من سئل عن علم عنده فكتمه ألجمه الله تعالى بلجام من نار.

من فسر القرآن بالرأى فأصاب لم يؤجر، وإن أخطأ دخل النار.

من فسر القرآن برأيه فأصاب كتبت عليه خطيئة لو قسمت بين العباد لوسعتهم، فإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار.

من فسـر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، وإن أخطأ محا الله النور عن قلبه.

من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار.

من فسـر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.

مـن قال فى القـرآن برأيه فأصاب فقد أخطـأ. (وزاد رزين) ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر.

(ذ)

نحن قوم أميون لانعرف الحسـاب. الصوم مرة هكذا (حتى اسـتوفى العدد ثلاثين فى سـت مرات وأنه جمع الأصابع ثانية فلما انتهى إلى الآخر نقَّص واحدا من الأصابع ثم قال) ومرة هكذا.

نزل القرآن على سبعة أحرف.

(و)

وجدتها بحرا (قالها لما ركب فرسا).

(لا)

لاتتخذوا ظهور الدواب كراسـى لأحاديثكم. فرب راكب مركوبه خير منه وأطوع وأكثر ذكرا.

لايصاد من الحيتان إلا بما يضيع من التسبيح.

لاينقص مال من صدقة بل يزيد.

(ى)

يا عماد من لا عماد له. ويا سـند من لاسـند له، ويا حرز من لا حرز له. ويا ذخر من لا ذخر له. ويا غياث من لا غياث له.

المراجع

- ابن الأثير (عز الدين أبو الحسين على الشيبانى).
الكامل فى التاريخ طبع لندن سنة ١٨٦٣م.
- ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد).
بدائع الزهور طبع بولاق سنة ١٣١١.
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف).
النجوم الزاهرة فى مصر والقاهرة (طبع دار الكتب المصرية).
- ابن الجوزى (أبو المظفر بن قيزوغلى سبط بن الجوزى).
مرآة الزمان نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٠٦.
- ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين على)
رفع الإصر عن قضاة مصر نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٥ تاريخ.
- ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد).
كتاب العبر، وديوان المبتد والخبر (طبع بولاق سنة ١٢٨٤هـ).
- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباسى أحمد بن محمد).
وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان (طبع القاهرة).
- ابن طاهر الأزدى (جمال الدين أبو الحسن على).
أخبار الدول المنقطعة نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ.
- ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقى).
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية (طبع بمطبعة الرحمانية بالقاهرة).
- ابن القلانسى (أبو يعلى حمزه).
ذيل تاريخ دمشق (طبع بيروت سنة ١٩٠٨).
- ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر).
البداية والنهاية (طبع القاهرة سنة ١٣٥٨هـ).
- ابن منجب الصيرفى (أبو القاسم على).
الإشارة إلى من نال الوزارة (طبع القاهرة سنة ١٩٢٤هـ).

– ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم).
لسان العرب (طبع بولاق).
– ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف بن حلب).
تاريخ مصر (طبع القاهرة سنة ١٩١٩).
– البغدادى (الخطيب).
تاريخ بغداد (طبع القاهرة).
– البندارى.
تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٩٠٠).
ثقة الإمام علم الإسلام الداعى.
– المجالس المستنصرية تحقيق محمد كامل حسين (طبع القاهرة).
– الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد).
– تاريخ الإسلام (نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٢٩٦ تاريخ).
– السيوطى (جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر).
تاريخ الخلفاء طبع القاهرة سنة ١٣٥١هـ.
حسن المحاضرة طبع القاهرة سنة ١٣٢٧هـ.
– الفيروزبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب).
القاموس المحيط.
– القلقشندى (أبو العباس أحمد).
صبح الأعشى.
– الكرمانى (أحمد حميد الدين بن عبد الله).
– رسائل الكرمانى (نسخة خطية بمكتبتى الخاصة).
– ناصر خسرو.
سفرنامه (ترجمة الدكتور يحيى الخشاب).
– النعمان القاضى (أبو حنيفة النعمان بن محمد حيون المغربى).
دعائم الاسلام نسخة خطية بمكتبتى.
كتاب الهمة فى آداب أتباع الأئمة – تحقيق محمد كامل حسين (طبع القاهرة).

- محمد كامل حسين.
- أدب مصر الفاطمية (طبع دار الفكر العربى).
- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على).
اتعاظ الحنفا طبع القدس سنة ١٩٠٩.
المواعظ والاعتبار طبع مطبعة النيل.
- المؤيد فى الدين داعى الدعاة (هبة الله بن موسى بن داود).
ديوان المؤيد فى الدين داعى الداعى تحقيق محمد كامل حسين (طبع القاهرة).
المجالس المؤيدية نسخة خطية بمكتبتى.
- ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى).
معجم الأدباء (طبعة فريد رفاعى).
معجم البلدان (طبعة ليبزج سنة ٩٨٧ هـ).

HAMADANY (H.F).

The History of the Isma.ili Da.wat and its literature during the phase of the Fatimid Empire. J.R.A.S., Part I 1932.

HITH (Ph. K).

The History of the Arabs.

IVANOW (W).

A Guid to Ismaili Literature.

LANE-POOLE.

History of the Egypt in the Middle Ages.

O'LERARY.

A Short History of the Fatimide Khalifate i923.

الفهرس

صفحة

كلمة المحقق..... ٥
المؤيد وأبو كاليجار..... ٢٥
مناظرة المؤيد مع العلماء فى حضرة أبى كاليجار..... ٣٥
رد المؤيد..... ٤١
مناظرة الخراسانى..... ٤٩
جواب المؤيد..... ٥٦
أبو كاليجار يعتنق الدعوة الفاطمية..... ٦١
الندماء يكيدون للمؤيد..... ٦٢
حادث مسجد الأهواز..... ٧٢
مناظرة المؤيد مع العلوى الزيدى..... ٧٤
وشايات النديم..... ٧٧
غدر أبى كاليجار بالمؤيد..... ٨٠
فرار المؤيد من شيراز..... ٨٤
المؤيد فى جنّابة..... ٨٥
المؤيد فى الأهواز..... ٨٧
المؤيد فى طريقه إلى مصر..... ٨٩
خطاب أبى كاليجار إلى المؤيد..... ٩١
المؤيد فى مصر..... ٩٤
المؤيد والتسترى..... ٩٥
المؤيد والوزير الفلاحى..... ٩٨

المؤيد بحضرة المستنصر..... ٩٨
المؤيد والوزير الجرجرائى..... ١٠٠
المؤيد واليازورى..... ١٠٢
بدء النزاع بين الفاطميين والتركمانية..... ١٠٨
خروج المؤيد لمؤازرة البساسيرى..... ١١٢
خطاب المؤيد إلى الوزير اليازورى..... ١١٤
خطاب آخر من المؤيد إلى اليازورى..... ١١٥
خطاب المؤيد إلى تاج الأمراء..... ١١٦
خطاب المؤيد إلى اليازورى..... ١١٧
خطاب المؤيد إلى ابن مروان..... ١٢١
خطاب آخر إلى ابن مروان..... ١٢٥
خطاب المؤيد إلى جماعة الأتراك الذين مع البساسيرى..... ١٢٨
المؤيد وابن وثاب..... ١٣٠
المؤيد فى الرحبة..... ١٣٢
عهد البساسيرى..... ١٣٣
المؤيد ودبيس بن مزيد..... ١٣٥
عهد ابن مزيد..... ١٣٨
المؤيد وقريش بن بدران..... ١٤٠
كتاب المؤيد بالانتصار فى سنجار..... ١٤٢
خطاب آخر بذكر الانتصار..... ١٤٣
دخول الموصل..... ١٤٤
خطاب المؤيد بفتح الكوفة..... ١٤٥
خطاب المؤيد بإقامة الدعوة فى واسط..... ١٤٦
موقف ابن مروان بعد موقعة سنجار..... ١٤٧
خطاب المؤيد لابن مروان يدعوه لتأييده..... ١٤٨

تفرق جمع المؤيد..... ١٤٩
خطاب المؤيد إلى البساسيرى فى تهجين النكوص..... ١٥٠
كتـاب المؤيد إلى دبيس بن مزيد..... ١٥١
كتاب المؤيد إلى ابن ورام..... ١٥٢
كتاب المؤيد إلى قريش بن بدران..... ١٥٣
رد المؤيد على خطاب ابن ورام..... ١٥٥
رد المؤيد على دبيس بن مزيد..... ١٥٦
رد المؤيد على قريش بن بدران..... ١٥٨
كتاب المؤيد إلى أبى الحارث..... ١٥٩
الفتنة بسبب المال..... ١٦٠
كتاب المؤيد إلى الكندرى..... ١٦٢
دسائس الكندرى..... ١٦٤
كتـاب المؤيد إلى ابن مزيد فى تهجين صلحه مع طغرلبك..... ١٦٥
كتاب آخر إلى ابن مزيد..... ١٦٩
خطـاب المؤيد إلى ابن ورام فى تهجين موقفه..... ١٧٠
كتـاب المؤيد إلى قريش بن بدران فى أمر الهدنة..... ١٧١
كتاب المؤيد إلى قريش بن بدران..... ١٧٣
كتاب آخر إلى قريش..... ١٧٥
رحيل المؤيد من الرحبة..... ١٧٦
المؤيد فى حلب وعودتها إلى أملاك الفاطميين..... ١٧٧
عصيان إبراهيم بن ينال على أخيه طغرلبك..... ١٨٠
المؤيد فى طريقه إلى مصر..... ١٨٢
دخول البساسيرى بغداد..... ١٨٤
معجم الأعلام..... ١٩٢
معجم أسماء الكتب..... ١٩٩

معجم الأمكنة والبقاع..... ٢٠١
دليل الآيات القرآنية الشريفة..... ٢٠٤
دليل الأحاديث المنسوبة للنبى صلى الله عليه وسلم..... ٢١٠
المراجع..... ٢١٣

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٣٦٣٤
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7726-3

١ / ٢٠١٢ / ٤٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)